جاهلية القرن العشرين

محمد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

صدق الله العظيم

مقَــدّمَة

سيعجب الناس من العنوان .. وسيستنكره كثيرون !

القرن العشرون ؟! .. الحضارة والمدنية .. العلم والكشوف .. التنظيم والتنسيق .. سيطرة الإنسان على الطبيعة .. الذرة والصاروخ . كل ذلك جاهلية ؟!

لقد بلغ الإنسان أوجاً من العظمة لم يبلغه في تاريخه كله .. وبلغ من القــوة والــسيطرة والجبروت مدى لم يحلم به سكان الكوكب الأرضي قبل عشرات من السنين فقط ؛ فضلاً عــن عشرات من القرون ! فكيف نقول بعد ذلك إن الإنسان يعيش فــي الجاهلية فــي هــذا القــرن العشرين ؟

و " القيم " التي يعيش في ظلها البشر اليوم .. الحرية والتحرر .. الإخــاء والمــساواة .. الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ..

كيف بالله نقول إن هذا العصر الذي نعيش فيه .. عصر جاهلية ؟!

* * *

يحسب الكثيرون أن " الجاهلية " فترة معينة مــن الزمن – كانت – فــي الجزيرة العربية – قبل الإسلام .

أولئك " الطيبون " .. الذين لا يجادلون في صدق ما وصف الله به الحياة العربية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤمنون أنها كانت جاهلية حقا بالقياس إلى الإسلام .

أما " الخبيثون " – تدفعهم دوافع غير إسلامية ، من تلك التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من دعا إلى عصبية .. " [1] – فأولئك يجادلون كثيراً في هذا الأمر ، منافحين عن الجاهلية العربية وأنها لم تكن " جاهلية " كما وصفها القرآن ! فقد كان في البيئة العربية " فضائل " و " قيم " ذاتية ، و " معلومات " و " حضارة " مكتسبة من الاتصال بالرومان والفرس .. مما كشفت عنه " الدراسات " الحديثة التي قام بها المستشرقون ! وهم من باب أولى لا يتصورون أن تكون الجاهلية قائمة في هذا القرن العشرين ، ما دام مقياسهم هو هذا المقياس !

هؤلاء وأولئك لا يدركون معنى " الجاهلية " كما هو في واقع الأمر وكما عناه القرآن !

* * *

الطيبون يحصرون مظاهر الجاهلية في الشرك الساذج والوثنية البدائية وأخذ الثأر والمفاسد الخلقية التي كانت سارية في البيئة العربية .. أي أنهم يأخذون " مظاهر " الجاهلية العربية على أنها هي " الجاهلية " ذاتها . ومن ثم يحصرونها في هذه الصورة المحدودة ، في هذه الفترة المعينة من التاريخ ، في هذه البقعة من الأرض في الجزيرة العربية .. ويظنون – من ثم – أنها مضت إلى غير رجعة في الزمان أو المكان !

والخبيثون يظنون أن " الجاهلية " هي مقابل ما يسمى " العلم " أو " الحضارة " أو " التقدم المادي " أو " القيم " الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو " الإنسانية ! " ومن ثم يجهدون أنفسهم إجهاداً – مدفوعين بتلك الدوافع غير الإسلامية التي نوه بها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم – لكي يثبتوا أن العرب لم يكونوا جهلاء ، فقد كانوا يعرفون بعض المعارف . ولا متأخرين ، فقد كانوا ملمين بشيء مما يسمونه الحضارة وشيء من المدنية . ولا خاوين من القيم ، فقد كان لديهم من الفضائل : الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وبذل النفس في سبيل الشرف أو النخوة

---

[1] " ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية " أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود .

أو الكرامة أو ما شابه ذلك من الأمور . ومن ثم فوصف القرآن لهم بالجاهليـــة لـــيس حقيقـــة تاريخية !! ومن ثم كذلك فالقرن العشرون في نظرهم هو قمة الارتفاع البشري الذي يمكـــن أن يحلم به الإنسان ..

وهؤلاء وأولئك كما قلنا لا يدركون معنى " الجاهلية " كما هو في واقع الأمر ، وكما عناه القرآن !

ليست الجاهلية " صورة " معينة محدودة كما يتصورها الطيبون الذين يرون أنهـــا فتـــرة تاريخية مضت إلى غير رجوع . إنما هي " جوهر " معين ، يمكن أن يتخـــذ صـــوراً شـــتى ، بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان ؛ فتتشابه كلها فـــي أنهـــا " جاهليـــة " وإن اختلفـــت مظاهرها كل الاختلاف .

وليست هي المقابل لما يسمى العلم والمعرفة والحضارة والمدنية والتقدم المـــادي والقـــيم الفكرية والاجتماعية والسياسية والإنسانية على إطلاقها ، كما يتصورها الخبيثون ، سواء بالنسبة للجاهلية العربية أو بالنسبة للقرن العشرين ..

إنما الجاهلية – كم عناها القرآن وحددها – هي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهـــدى الله ، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله : " أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " [2] .

هي إذن مقابل معرفة الله ، والاهتداء بهدى الله ، والحكم بما أنزل الله .. وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الإنتاج !

* * *

[2] سورة المائدة [50] .

ولم يقل القرآن قط إن العرب كانوا في " جاهلية " لأنهم لا يعرفون الفلك والطبيعة والكيمياء والطب .. أو لأنهم لا يعرفون النظم السياسية .. أو لأنهم قاصرون في ميدان الإنتاج المادي .. أو لأنهم خلوا من بعض الفضائل ، أو خلوا من " القيم " على الإطلاق !

ولو قال لهم ذلك لأعطاهم البديل من نفس النوع ! البديل من الجهل العلمي " معلومات " علمية فلكية وطبيعية وكيميائية وطبية .. إلخ ! والبديل من الجهل السياسي نظريات سياسية مدروسة مفصلة ! والبديل من القصور في الإنتاج المادي توجيهات لزيادة الإنتاج أو لتحسينه ! والبديل من نقص بعض الفضائل وبعض القيم مزيداً من هذه وتلك مطلقة من أي ارتباط .. !

ولكنه لم يقل لهم ذلك ، ولم يكن البديل الذي أعطاهم إياه شيئاً من ذلك كله .. [3] .

إنما قال لهم إنهم جاهليون لأنهم يحكّمون أهواءهم ويرفضون حكم الله .. وأعطاهم البديل من الجاهلية .. الإسلام .

فذلك هو المقياس الذي يقيس به القرآن الحياة البشرية .. وهو المقابل للجاهلية ، سواء جاهلية العرب أو أية جاهلية غيرها في التاريخ ..

ولقد قص القرآن عن " حضارات " كثيرة في أمم خيالية ، كانت – ولا شك – أكثر تحضراً من العرب حين نزل عليهم الإسلام ، ومع ذلك اعتبرها الإسلام جاهلية لأنها لا تهتدي بهدى الله : " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ " [4] .

---

[3] حقا لقد وجد ذلك كله نتيجة " البعث " الإسلامي ، ولكنه لم يكن هو البديل الذي طلبه الله من الناس ليخرجوا من الجاهلية !

[4] سورة الروم [9 : 10] .

فهنا يوجه القرآن العرب " الجاهليين " إلى النظر في أمر " جاهلية " سابقة ، ليروا نتائجها ويحذروها ، فلا يكذبوا بآيات الله ، بل يؤمنوا بها ويهتدوا . وإن كان لا يستخدم هنا لفظ " الجاهلية " بالتحديد ، فإنه يستخدم مدلولها ، ويقول للعرب الجاهليين : هؤلاء مثلكم في الجاهلية ، وإن كانوا أكثر منكم قوة وتعميراً للأرض و " حضارة " و " مدنية " .. فخير لكم أن تخرجوا من الجاهلية – التي تشملكم وتشمل تلك " الحضارة " المنحرفة سواء – بأن تدخلوا في هدى الله وتصبحوا مسلمين ..

* * *

الجاهلية – إذن – حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله ، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله .. ثم تصيبها النتائج الحتمية لهذا الانحراف . نتائج تختلف باختلاف صورة الانحراف ومداه .. ولكنها تتفق في أنها اضطراب في حياة البشر وشقاء ، وقلقلة وتدمير وعذاب ..

ومن ثم فهي ليست محصورة في الجاهلية العربية ولا في فترة من الزمن معينة .. وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي وقت وفي أي مكان .. كما توجد كذلك في أي " مستوى " من المعرفة و " الحضارة " والتقدم المادي والقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية و " الإنسانية ! " .. إذا كانت هذه كلها لا تهتدي بالهدي الرباني ، وتتبع أهواءها وترفض أن تتبع ما أنزل الله .

وإن " الجاهلية " و " الهوى " .. سيان .

فالذين يتبعون أهواءهم يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله .. وهم حينئذ في " الجاهلية " لهذا السبب عينه : لأنهم يرفضون هدى الله .. أيّاً كان مبلغهم من العلم البشري ومبلغهم مما يسمى الحضارة والتقدم المادي والتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي .. وهم كذلك عرضة للنتائج الحتمية لهذه الجاهلية .. من اضطراب وشقاء ، وتفتت وحرمان ..

ومن ثم فليس العرب وحدهم هم الذين كانوا يعيشون في الجاهلية ، قبل الإسلام ، وإنما كذلك كل قوم انحرفوا عن الهدي الرباني ، واتبعوا الأهواء ..

* * *

والذين يظنون أن الجاهلية هي جاهلية العرب قبل الإسلام وحدها .. نحب أن نبين لهم حقيقة الجاهلية ، ليتبينوا نوح الحياة التي يعيشونها في القرن العشرين !

والذين ينافحون عن الحاهلية العربية – بدافع من العصبية – نحب أن نقول لهم يطامنوا من الجهد الجاهد الذي يبذلونه في هذا السبيل .. فمهما أجهدوا أنفسهم فلن يستطيعوا أن يزعموا أن العرب في جاهليتهم قد بلغوا من التقدم العلمي ، والتنظيم السياسي والاجتماعي و " القيم " الفكرية ما بلغته حضارة القرن العشرين ! ومع ذلك فالقرن العشرون أبشع في جاهليته من العرب في جاهليتهم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان . بل إن جاهلية القرن العشرين – في الواقع – أبشع جاهلية في تاريخ البشر على ظهر الأرض .

لقد كانت الجاهلية العربية جاهلية ساذجة قريبة الغور ! تعبد أوثاناً محسوسة فجة ساذجة ! وتمارس ألواناً من التصور وألواناً من السلوك ، منحرفة .. نعم .. ولكنه انحراف ساذج غير عميق ! وكل ما كان من بطش قريش وكيدها وحرصها على " مصالحها " و " سيادتها " ، ووقوفها في طريق الحق والعدل الأزليين من أجل هذه المصالح وتلك السيادة .. كل ما كان من هذا البطش والكيد – وإن يكن من حيث الجوهر موجوداً في كل جاهلية ، قديمة أو حديثة – إلا أنه كان يتخذ صورة بسيطة غير معقدة ، صريحة على كل التوائها ، مباشرة على كل تخابثها ، ذلك أن الفساد لم يكن في أصل الفطرة بقدر ما كان في مظهرها الخارجي .. فما هو إلا أن عرك الحق القشرة الخارجية الزائفة حتى استسلمت الفطرة للحق الأزلي ، وانجابت الظلمات ..

أما الجاهلية الحديثة فشأنها أوعر ، وأخبث ، وأعنف ..

إنها جاهلية " العلم " !

جاهلية البحث والدراسة والنظريات !

جاهلية النظم المستقرة المتعمقة في التربة !

جاهلية التقدم المادي المفتون بقوته ، المزهو بما وصل إليه من آفاق !

جاهلية الكيد المنظم المدروس المخطط الموجَّه لتدمير البشرية .. على أسس علمية !

جاهلية لا مثيل لها في التاريخ ..

* * *

وهذا الكتاب مَعْنِيّ بدراسة هذه " الظاهرة " التي يعيش فيها القرن العشرون .. ظاهرة الجاهلية ..

مَعْنِيّ بدراسة أسبابها . وملامحها . وانعكاساتها في تصورات البشر وسلوكهم الواقعي . ونتائجها في حياتهم . ومستقبلها .

وشواهدنا في هذه الدراسة مستمدة كلها من الواقع الذي نعيش فيه ، سواء في الشرق أو الغرب ..

شواهد من كل الأرض ..

وهدفنا من هذه الدراسة هو تصحيح التصور وتصحيح السلوك . هو كشف هذه الجاهلية التي تفتن الناس باسم " التقدم " و " التطور " و " الحضارة " و " المدنية " .. حتى يفيئوا إلى أنفسهم ، ويعرفوا حقيقة الهوة التي ينحدرون إليها ، وهم يحسبون أنهم مهتدون ..

وهدفنا كذلك التبشير بمستقبل البشرية ..

المستقبل الذي نؤمن به .. حين يخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

وأنا أعلم بطبيعة الحال أن هذا الأمر لا يصنعه كتاب .. ولا ألف كتاب !

ولكني هنا أسجل أمرين اثنين :

أولهما : أنني أومن حقا بأن " الكلمة " لا يمكن أن تضيع .. وإن تجافتها الآذان فترة من الزمان ..

والثاني : أنني أومن بأن هذا التحول من الظلمات إلى النور قد بدأ بالفعل !

بدأ في الظلمات الحالكة بصيص من النور .. أراه رأي العين .. وعلى ضوئه أكتب هـذا الكتاب .

والله الموفق لما يريد .

محمد قطب

تمهـــــيد

إذا عرفنا أن الجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة في ثنايا التاريخ ..

وإذا عرفنا أنها ليست المقابل لما يسمى بالعلم والحضارة والمدنية والتقدم المادي .. إلخ ..

وإنما هي رفض الاهتداء بهدى الله ورفض الحكم بما أنزل الله ..

إذا عرفنا هذا وذاك فقد تهيأت أذهاننا ونفوسنا – بعض التهيؤ – للحديث عن جاهلية القرن العشرين !

نقول " بعض التهيؤ " .. لأن كثيرين ممن أخذتهم الجاهلية الحديثة في طوفانها سيهزون أكتافهم ساخرين ، يقولون : إذا كان هذا مقصدكم " بالجاهلية " فنعم الذي نحن فيه ! إننا راضون عنها كل الرضا ، ولو سميتموها جاهلية ! بل نحن حريصون عليها كل الحرص ، نرفض أن نتخلى عنها ونعود إلى " هدى الله " ! فقد كان " هدى الله " هو الجهل والخرافة والتأخر والانحطاط والهمجية .. ونحن قد خرجنا منه عامدين .. لنتحضر ونتمدن .. ونخرج من الظلمات إلى النور .. ! كلا ! الجاهلية أحب إلينا مما تدعوننا إليه !

وصدق الله العظيم إذ يقول : " فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى " [5] .

وصدق الله العظيم إذ يقول : " كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ... " [6] فالجاهليون صنف واحد من البشر على مدار التاريخ !

* * *

---

(5) سورة فصلت [17] .

(6) سورة البقرة [118] .

لقد تهيأت أذهاننا ونفوسنا بعض التهيؤ للحديث عن الجاهلية الحديثة .. لم يعد الموضوع عجيباً ولا مستنكراً كما بدا لأول وهلة . ولكنه ما زال بعد في حاجة إلى كثير من التوضيح ..

بل هو في حاجة إلى بيان مستفيض يستغرق هذا الكتاب كله وكتباً أخرى كثيرة لمن يشاء !

إن عقدة الجاهلية – كل جاهلية – أنها تستنكر هدى الله ، وتستحب العمى على الهدى ، وتزعم أن ما هي فيه هو الخير المحض ، وأن ما تُدْعَى إليه من الهدى هو الضرر والخسران !

ولا يستبين لها ما هي فيه من ضلال وانحراف وشقوة واضطراب ، إلا بعد أن تهتدي .. بعد أن تخرج من الظلمات إلى النور .. بعد أن تعود إلى استقامة الفطرة على هدى الله ..

ومهمتنا في هذا الكتاب أن نبين للناس ما يعانونه من ضلال وانحراف وشقوة واضطراب .. وصلة هذا كله بابتعادهم عن هدى الله ..

ولن يكون الأمر سهلاً على نفوسهم ولا أفهامهم ! فقد تعودت الجاهلية أن تبث في نفوس أهلها ألواناً كثيرة من الانحراف في التصور وفي السلوك :

فهي تارة تقول لهم إنهم لا يخالفون الله فيما هم عليه من تصورات ومن سلوك ! وإن الله قد أقر هذا الذي يصنعونه أو أمر به !

وتارة تقول لهم إنه لا بد لهم فيما يجري من انحراف في التصور وفي السلوك . فهو أمر " حتمي " لا يملكون رده ولا تغييره !

وهي دائماً تفسر لهم الأمر من كل زاوية إلا الزاوية التي يجيء فيها ذكر الله وما أمر به الله ! فقوة ما – من قوى الأرض – هي الباغية ، وقوة ما – من قوى الأرض – ينبغي أن

تقاتل ، ووضع ما ينبغي أن يعدل .. ولكن دون أن تقاس هـذه القوة أو هـذا الوضع بمقياس الله .. لأنه ليس داخلاً في الحساب !

وسيعجب الناس – حين يفيئون إلى أنفسهم ويتيقظون لما هم فيه – أن هذا ليس شأن الجاهلية الحديثة وحدها مع الناس ! وإنما هو شأن كل جاهلية في ثنايا التاريخ !

" وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا " [7] .

" سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا " [8]

" ....

فالجاهليات تختلف في صورتها المادية والبيئية .. ولكنها لا تختلف كثيراً في تصوراتها وفي أفاعيلها على مدار التاريخ !

وأيّاً كان الأمر ، فلن يجد الناس من السهل عليهم أن يتبينوا ما هم فيه من انحراف ؛ وأن هذا الانحراف – إذا تبينوه – ناشئ من ابتعادهم عن هدى الله ؛ أو أن هدى الله – حتى إذا تبينوا أن انحرافهم ناشئ من البعد عنه – يملك أن يخرجهم مما هم فيه من اضطراب وشقوة وألم وعذاب .. إلى الاستقرار والطمأنينة والسعادة والرضوان .. ويملك حلولاً لمشكلاتهم التي عقَّدوها على أنفسهم بما هم فيه من جاهلية وانحراف !

لن يجد الناس ذلك سهلاً على نفوسهم ، بعد الجهد الجهيد الذي بذلته الجاهلية الحديثة في إبعادهم عن الله ، وتنفيرهم من هداه ، وتفسير الحياة لهم من خلال كل التفسيرات إلا التفسير الرباني الذي أنزله الله !

ولكن صعوبة الأمر لن تقعدنا عن تقديم هذا البيان ! ولا هي حائل حقيقي يحول بين الناس وبين الاهتداء إلى الحق ! فالناس – على غير ما توحي إليهم الجاهلية الحديثة – وكل

---

[7] سورة الأعراف [28] .

[8] سورة الأنعام [148] .

جاهلية – يملكون في لحظة أن يفتحوا قلوبهم للحق فيتبينوه ، ويملكون – بعد أن يعرفوه – أن يحبوه ؛ وأن يعملوا به ويجاهدوا فيه !

* * *

لن يصدق الناس في بادئ الأمر !

لن يصدقوا أن ما هم فيه اليوم من اضطراب يشمل وجه الأرض قد نشأ من بعدهم عن الله !

فقد أوحت إليهم الجاهلية الحديثة أن " رأس المال " هو السبب في هذه الشقوة . أو أنه " صراع الطبقات " أو أنه " الملكية الفردية " أو أنه " التناقضات الحتمية " أو أنه " الضغط الاقتصادي " أو ... أو ... ولم تقل لهم مرة واحدة إن الله أو سنة الله أو منهج الله ذو صلة قريبة أو بعيدة بواقع الحياة !

بل لقد سخرت الجاهلية الحديثة أيما سخرية من أي تفسير للحياة في صعودها أو هبوطها ، في سعادتها أو شقائها ، يفسر الأمر بسنة الله أو منهج الله ! وحرصت على إبعاد كل ما يتصل بالله جملة عن نفوس الناس وأذهانهم وهم يتناولون واقع الحياة ، سواء في عالم التطبيق أو في عالم النظريات !

وفوق ذلك فقد ربطت بين الله ومنهجه ، وبين العصور الوسطى وعصور الظلام ! كما ربطت بين العلم ومنهجه ، وبين البعد عن منهج الله !

لذلك لن يصدق الناس في يسر في بادئ الأمر !

* * *

ومنهجنا في هذا البحث أن نبين للناس أولاً : كيف نشأت الجاهلية الحديثة .. صفحة من التاريخ .

ونبين لهم ثانياً : ملامح الجاهلية التي يعيشون فيها .. صفحة من الحاضر .

ثم نتتبع ملامح الجاهلية في حياتهم جميعاً . في التــصور والــسلوك . فــــي الــسياسة والاقتصاد . والاجتماع وعلم النفس . والأخلاق والفن . وكل ما تشمله الحياة من نشاط . صفحة من الواقع .

ثم نبين لهم أخيراً كيف كانت تصبح هذه الأمور كلها لو أنهم ساروا علـــى مـــنهج الله ، وكيف يمكن في هذه اللحظة – إذا إرادوا – أن ينفضوا عنهم الغبار كله ، ويستووا على الطريق النظيف الصاعد على هدى من الله .. صفحة من الأمل في المستقبل .

وفيما يلي من الفصول بيان لهذه الصفحات ..

صفحة من التاريخ

للجاهلية تاريخ قديم في الأرض .. كما للإيمان !

كلاهما يرجع إلى الإنسان الأول – إلى آدم – وإلى بنيه ..

وكلاهما يرجع إلى الطبيعة البشرية ذاتها ، في ازدواجها ، وقابليتها للضلال والهدى ، وللجاهلية والعرفان : " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا " [9] . " وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ " . [10] " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً " [11] .

فكل ما يحدث من البشر على الأرض ، وكل ما يحدث لهم ، إنما يجري على هذه السنة الإلهية التي خلقت الإنسان مزدوج الطبيعة ، قابلاً للهدى وقابلاً للضلال . ولم يحدث للبشر في تاريخهم كله ، ولم يحدث منهم ، خروج على هذه السنة ولا إمكان للخروج عليها في وقت من الأوقات ! [12]

وتاريخ البشر كله على الأرض لا يخرج عن أحد هذين الوضعين : الهدى أو الضلال .. الإسلام أو الجاهلية !

ويتطور البشر على الأرض تطورات شتى ..

---

[9] سورة الشمس [7 – 10] .

[10] سورة البلد [10] .

[11] سورة الإنسان [3] .

[12] انظر كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

يتطورون بالمعنى الحقيقي المستقيم للكلمة ، أي أنهم ينمون وينضجون ويتكـــاملون .. أو يتطورون بالمعنى الزائف المنحرف ، أي ينحرفون عن سواء السبيل [13] .

ويتخذون في تطورهم هذا وذلك " صوراً " شتى .. تلائم البيئة والتقدم المادي والعلمـــي والمستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .. ولكنهم في كل تطوراتهم ، وفي كـــل الـــصور التي يتخذها تطورهم ، لا يخرجون عن وضعين اثنين لا يوجد لهما ثالث : إما الهـــدى وإمـــا الضلال .. إما الإسلام وإما الجاهلية !

ومن ثم ينتفي – في وضوح – أي ارتباط بين الجاهلية وبين الزمان والمكان ، كما ينتفي أي ارتباط بينها وبين مستوى " العلم " والتقدم المادي والحضارة والمدنية والتنظيم ..

والهدى كله جوهر موحد .. والجاهلية كلها جوهر موحد .. ثم تختلف بعد ذلك الـــصور والأشكال .

الهدى هو المعرفة بالله ، واتباع هداه ..

ثم يتخذ الهدى والجاهلية أشكالاً – في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن والعلم ... إلخ – تناسب ما بلغ إليه " العقل " البشري في احتكاكه بالكون المادي من حوله ، وما بلغت إليـــه " التجربة " في التنظيم والتنسيق والربط بين مختلف العوامل في الحياة .

ولا يخرج الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن والعلم .. إلخ ، في أية حالة من حالاتها " المتطورة " عن أحد وضعين اثنين : إما الهدى وإما الضلال .. إما الإسلام وإما الجاهلية !

ومن هنا ينتفي – في وضوح – أي ارتباط بين الجاهلية وبين " طور " معين من أطـــوار الإنسان أو أطوار التاريخ !

* * *

ولن نتتبع هنا كل صفحات التاريخ .. فذلك أمر مستحيل !

---

[13] انظر كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

ولكننا نأخذ أمثلة منها تبين هذه الحقيقة التي أهملتها الجاهلية الحديثة إهمالاً متعمداً لتفصل بين الناس وكل ما يربطهم بالله في واقع الحياة !

الدين – منذ وجد – تنظيم شامل للحياة .. يشمل اجتماعياتهم واقتصادياتهم وسياساتهم .. كما يشمل وجدانهم وعقيدتهم . وقد حرصت الجاهلية الحديثة – لأمر سنبينه فيما بعد – على أن تنفي هذه الحقيقة ، وتزعم أن الدين لم يكن قط موكلاً بغير الوجدان والعقيدة ، وأنه لا شأن له بالتشريع للحياة !

فأما العقيدة فهي ثابتة لا تتغير .. الله هو الخالق ، والله هو المعبود .. (وإن اختلفت " صور " العبادة من دين إلى دين على مدار التاريخ) .

وأما الشريعة فقد تدرجت مع الناس في نموهم ونضوجهم ، من البساطة إلى التعقيد ، ومن التعميم إلى التفصيل .. حتى اكتمل الدين عقيدةً وشريعةً يوم قال تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً " [14] .

وعلى مدار التاريخ وجد الهدى والجاهلية متجاورين ومتعاقبين .. كلما أرسل رسول ونزل من عند الله وحي .. فاستقام الناس على الهدى في " أطوار " مختلفة من حياتهم ، وارتدوا إلى الجاهلية في هذه الأطوار ذاتها أو في أطوار أخرى .. فكان الهدى وكانت الجاهلية في كل مرة متناسبين ومتناسقين مع " طور " الحياة الذي وجدا فيه :

" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ " [15] .

---

[14] سورة المائدة [3] .

[15] سورة الأعراف [85 – 86] .

فهذه رسالة شعيب إلى قومه : عقيدة وشريعة . العقيدة الثابتة التي لا تتغير : " اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " . وشريعة مبسطة ، تشمل خيوطاً اقتصادية : " فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " ، وخيوطاً اجتماعية وسياسية : " وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ .. " على قد " الطور " الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي كانوا يعيشون فيه .

وفي هذا الطور نظم بعض الناس حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على هدي شريعة الله فكانوا مؤمنين ، أو كانوا " مسلمين " بالمعنى الشامل للإسلام . وأبى آخرون – من قوم شعيب أنفسهم – أن ينظموا حياتهم على هدى الشريعة فكانوا على الجاهلية . وكلا الإسلام والجاهلية كان على مستوى " الطور " الذي يعيشه الناس في ذلك الحين .

ثم .. جاء موسى عليه السلام ونزلت عليه التوراة فيها هدى ونور .. فيها العقيدة الثابتة التي لا تتغير : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وفيها الشريعة التي تناسب نمو البشرية إلى مجتمع منظم ودولة وحكومة . فيها تشريعات اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة وشاملة : البيع والشراء . والزواج والطلاق . والجريمة والعقاب . ونظام الدولة .. إلخ .

وفي هذا الطور كذلك نظم بعض الناس حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على هدى شريعة الله فكانوا مؤمنين ومسلمين . وأبى آخرون – من قوم موسى أنفسهم – أن ينظموا حياتهم على هدى الشريعة فكانوا على الجاهلية .. وكلا الإسلام والجاهلية كان على مستوى التطور الذي يعيشه الناس في ذلك الحين .

ثم جاء عيسى عليه السلام بالإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم ، فكان من حيث العقيدة والشريعة إتماماً للتوراة وامتداداً لها .. فتبعه قوم فكانوا مؤمنين مسلمين ، وأبى آخرون فكانوا على الجاهلية . وأخذ الإسلام والجاهلية كلاهما صورة الطور الذي يعيشان فيه .

ثم جاء الإسلام ..

واكتمل الدين وتمت نعمة الله على البشرية ..

جاء الإسلام عقيدة وشريعة ككل دين جاء من عند الله .. العقيدة الثابتة التي لا تتغيــر : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، والشريعة المتطورة في آخر صورها .. الصورة التي أرادهــا الله لمستقبل البشرية كلها ، والتي وضعها الله على مستوى النضج للبشرية كلهــا ، وصــاغها بحيث تشمل كل دقائق حياتهم ، وتسير مع كل نموهم و " تطورهم " حتى يرث الله الأرض وما عليها . وقد تحدثت بالتفصيل في غير هذا الكتاب عن قضية الثابت والمتطور في حياة الإنسان ، وكيف عالج الإسلام الأمرين معاً بحيث لا تخرج الحياة البشرية في أية لحظة من " تطورهــا " عــن مفاهيم الإسلام وتشريعاته [16] ، ولن يتسنى نقل الكتب الأخرى في هذا الكتاب ! ولكنــا سنعود إلى هذا الموضوع بالحديث المفصل في موضعه من هذا البحث ..

وقد آمن بالإسلام قوم فأصبحوا مؤمنين مسلمين .. وأبى قوم آخــرون فأصــبحوا فــي الجاهلية .. منذ ذلك الحين ..

و " تطورت " الحياة أو " تغيرت " في خلال الأربعة عشر قرناً التي مضت منذ مجــيء الإسلام .. وظل الناس في كل الأرض فريقين لا ثالث لهما : مسلمين أو جاهليين .. كلٌّ فــي " الطور " الذي يعيش فيه ، وعلى مستوى ذلك الطور ومقتضياته .. إما قوم يعرفــون الله حــق معرفته فيهتدون بهديه ويحتكمون إلى شريعته فــي تفصيلات حيــاتهم كلهــا ، فأولئــك هــم المسلمون ؛ وإما قوم لا يعرفون الله حق معرفته ، فلا يهتدون بهديه ولا يحتكمون إلى شــريعته فأولئك هم الجاهليون [ولو كانوا " رسميا " أو " تقليديا " ممن يسمون أنفسهم مسلمين .. !] .

* * *

تلك أمثلة من التاريخ .. تبين حقيقة واضحة .

فالحياة كلها لا تخرج عن أحد وضعين : إما الهدى وإما الضلال .. إما الإســلام وإمــا الجاهلية .

---

[16] اقرأ بالتفصيل فصل " الإسلام وحياة البشرية " في كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

والأطوار كلها تتشكل في أشكال مختلفة ، جيلاً بعد جيل ، ولكنها تتشكل في داخل أحد هذين الإطارين اللذين لا ثالث لهما : الهدى أو الضلال .. الإسلام أو الجاهلية . فليس الطور ذاته هو الذي يحدد الهدى أو الجاهلية .. وإنما الطريق الذي ينهجه هذا الطور هو الذي يحدد مكانه : إن كان في إطار الهدى أو إطار الجاهلية . ومن جانب آخر فليس الهدى طوراً معيناً من حياة البشرية ، ولا الجاهلية كذلك . وإنما هما داخلان في كل الأطوار من البدء إلى الانتهاء ..

تلك الأمثلة التي ذكرناها من التاريخ ، ليست هدفنا الحقيقي في هذا الفصل ! إنما هي تقدمة ضرورية لتوضيح ما نريد أن نعرضه في هذه الصفحة من التاريخ .. أما هدفنا فهو عرض تاريخ الجاهلية الحديثة : كيف بدأت ؛ ولماذا سارت في خطها الذي سارت فيه حتى استفحلت في هذا القرن العشرين ؛ والعوامل التي نفخت فيها حتى تضخمت وتشعبت وملأت واقع البشر كله في هذا الجيل ..

* * *

أوروبا اليوم هي الغالبة على كل الأرض .. إن لم يكن بذاتها [وأمريكا مجرد امتداد لها] فبحضارتها ومفاهيمها وتصوراتها وعقائدها .

وتاريخ أوروبا كله تاريخ جاهلية متصلة الحلقات !

منذ القدم كانت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية ..

ثم كانت جاهلية العقيدة المحرفة في العصور الوسطى ..

وأخيراً كانت الجاهلية الحديثة ، التي هي – في جانب منها – ارتداد إلى الجاهلية اليونانية الرومانية ، وفي جانب آخر " تطور " في الجاهلية استحدثته الداروينية واستغلته عبقرية التدمير من جانب اليهود ..

وإذ كان موضوعنا الرئيسي في هذا الكتاب هو الجاهلية الحديثة .. فإننا سنمر مجرد مرور على جاهلية العصور القديمة وجاهلية العصور الوسطى ، بمقدار ما يلقي ذلك من الأضواء على الجاهلية الحديثة ، التي لم تنبت فجأة ، وإنما كانت لها جذورها العميقة في التربة الأوروبية وفي أعماق التاريخ !

* * *

الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية هما الأساس الحقيقي " للحضارة " الأوروبية المعاصرة ! ذلك ما تعترف به المصادر الأوروبية ذاتها ، وإن كانت بطبيعة الحال لا تسميها جاهلية ، وإنما تسميها حضارة .

ولقد أفادت " النهضة " الأوروبية الحديثة كثيراً – بل كثيراً جدا – من الحضارة الإسلامية ، كما تقول المصادر الأوروبية ذاتها ، ولكنها – كما سنبين ذلك في موضعه من هذا الفصل – لم تسر على الخط الإسلامي ولا الخط الرباني عامة بما أفادته من الحضارة الإسلامية ، بل صبغت ذلك بالصبغة اليونانية الرومانية ، وعادت إلى وثنيتها الأولى ، يغشيها غشاء رقيق من المسيحية – كما صورتها الكنيسة الأوروبية – غشاء ظل يرق رويداً رويداً حتى تمزق نهائياً في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ..

ومن ثم يحسن أن نلم ببعض ملامح الجاهلية اليونانية والرومانية قبل التعرض لجاهلية القرن العشرين .

* * *

كانت الجاهلية اليونانية تحتوي فنوناً وفلسفات ونظريات سياسية وتجريدات علمية نظرية .

وتراثها في هذه الجوانب تراث كبير ..

وقد عنيت أوروبا في " نهضتها " الحديثة بتتبع التراث اليوناني في كل جوانبه ، ودراسته دراسة مستفيضة ، وتفصيصه إلى أدق جزئياته .. لأنه المعين الذي تقتات منه أوروبا في عصرها الحديث .

وما من شك في أنه كان " جهداً " بشريا رائعاً ، في تعدد جوانبه واتساع آفاقه ..

وما بنا أن نبخس الناس أشياءهم ! وما بنا أن نحاسب الإغريق على جوانب نقص في تفكيرهم أو جوانب انحراف .. فقد اجتهدوا جهدهم . ولم يكن لهم من معلمٍ يقوّم انحرافهم ويردهم إلى الصواب فيه . ولا كان في وسعهم – بمفردهم – أن يقوّموا هذا الانحراف ..

وإنما نريد فقط – بغير لوم موجه إلى أحد – أن نبين جوانب الانحراف في التراث اليوناني – والانحراف سمة دائمة من سمات الجاهلية – لأنها تفيدنا في تبين ملامح الجاهلية الحديثة ، التي تستمد غذاءها من ذلك التراث .

نقول : بغير لوم موجه إلى أحد .. أحد من أولئك الأقدمين ، الذين اجتهدوا جهدهم ولم يجدوا من يهديهم . ولكنّا لا نخلي من اللوم أولئك الذين يأخذون عنهم انحرافهم – في الجاهلية الحديثة – بغير مبرر للانحراف .. إلا شهوة الانحراف !

وفي التراث اليوناني أشياء كثيرة نافعة دون شك .. كما في التراث المصري القديم والتراث العربي القديم والتراث الفارسي القديم والتراث الهندي والصيني ... إلخ . ولكن هناك أمرين يستحقان التنبيه في هذا الشأن :

الأول : أن أوروبا – في جاهليتها الحديثة – قد بالغت مبالغة شديدة في تضخيم التراث اليوناني – تعصباً منها لأوروبا ! – حتى خيّلت للناس أنه – في جميع أحواله – القمة التي ليس بعدها قمة .. بل القمة التي يقاس إليها الوحي الإلهي ذاته فيصدَّق أو يكذّب – وهو غالباً يكذّب ! – لأنه المحك الصادق الذي لا يوجد أصدق منه في الوجود !!

الثاني : أن إعجابنا ببعض جوانب هذا التراث – كإعجابنا ببعض التراث المصري القديم أو الفارسي أو الهندي أو الصيني – لا ينبغي أن يكون معناه إعطاء هذا التراث قيمة " مطلقة " ! فإنما يقاس دائماً إلى وقته . ولا ينبغي أن يكون معناه كذلك استيحاء هذا التراث في انحرافاته الجاهلية التي ربما كان لها عذر فيها ، ولكن لا عذر لنا نحن في استيحائها واتباعها ، بعد إذ خرجنا – أو ينبغي أن نكون قد خرجنا – من الجاهلية إلى النور !

وعلى هذا الأساس نعرض انحرافات التراث اليوناني .. أو الجاهلية اليونانية .

هذه الجاهلية التي أوحت – ورسخت – فكرة الصراع بين البشر وبين الله ! أو " الآلهة " !

وبصرف النظر عن الاعتقاد بتعدد الآلهة – وهو سمة كل جاهلية ، قديمة أو حديثة ، سواء كانت الآلهة مادية محسوسة أو معنوية ، وسواء أكان هذا الاعتقاد مباشراً وواضحاً أم ضمنياً وخافياً – بصرف النظر عن التعدد في ذاته ، فقد أضافت الجاهلية اليونانية إليه فكرة العداوة الضارية بين البشر وأولئك الآلهة المزعومين ..

وخير مثال لذلك أسطورة بروميثيوس ، سارق النار المقدسة .

" فبروميثيوس " كائن أسطوري كان الإله " زيوس " يستخدمه في خلق الناس من الماء والطين . وقد أحس بالعطف نحو البشر ، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم . فعاقبه " زيوس " على ذلك بأن قيده بالسلاسل في جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد في أثناء الليل ، ليتجدد عذابه في النهار . ولكي ينتقم " زيوس " من وجود النار المقدسة بين أيدي البشر أرسل إليهم " باندورا " – أول كائن أنثى على وجه الأرض – ومعها صندوق يشتمل على كل أنواع الشرور ليدمر الجنس البشري !! فلما تزوجها " إبيميثيوس " – أخو " بروميثيوس " – وتقبل منها هدية " الإله ! " فتح الصندوق فانتثرت الشرور وملأت وجه الأرض !!

" تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله ! النار المقدسة ، نار " المعرفة " قد استولى عليها البشر سرقة واغتصاباً من الآلهة ، ليعرفوا أسرار الكون والحياة ، ويصبحوا آلهة ! والآلهة تنتقم منهم في وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتنفرد دونهم بالسلطان ! " [17] .

وقد قالت أوروبا – في جاهليتها الحديثة – كلاماً كثيراً جدًّا عن الأساطير اليونانية المختلفة ، وعن هذه الأسطورة بالذات .. قالت إنه صراع الإنسان لإثبات ذاته ! إثبات وجوده ! إثبات فاعليته في الحياة ! إثبات إيجابيته ! وإن العصيان – عصيان الله – هو برهان الإيجابية والفاعلية وإثبات الذات !

ولسنا هنا نناقش الجاهلية الحديثة .. ! إنما نحن هنا نعرض فقط ألواناً من الجاهلية اليونانية ليتضح لنا كيف أثرت في الفكر الأوروبي فيما بعد !

إنه انحراف بشع تكاد تنفرد به – فيما أعلم – تلك الجاهلية اليونانية ! فالجاهليات الأخرى – فيما أعلم كذلك – قد توهمت وجود آلهة متعددة . وجعلت من بعض هؤلاء الآلهة آلهة شريرين صناعتهم الشر والانتقام والإيقاع بالإنسان بلا غاية سوى التدمير والإهلاك .. ولكن الجاهلية اليونانية وحدها هي التي اختصت بتصوير هذا الصراع المنفر بين البشر والآلهة ، من أجل إثبات فاعلية الإنسان وإيجابيته ! فكتبت اللعنة على الإنسان : أنه لا يثبت ذاته إلا على حساب عقيدته . وأن ضميره لا يصطلح مع الله ، فلا يقوم الوئام في داخل نفسه بين رغبته الفطرية في إثبات ذاته ، ورغبته الفطرية في الإيمان بالله !

* * *

والجاهلية اليونانية هي التي قدست " العقل " على حساب الروح .

إنها ، وهي تحاول – فيما تزعم لها الجاهلية الأوروبية الحديثة – أن تبرز كيان الإنسان ، وقداسته ، وإيجابيته ، وعلو قدره ، ورفعة جوهره ، وارتفاع قيمته في الحياة ، قد

---

[17] عن كتاب " منهج الفن الإسلامي " .

أهدرت أرفع جوانبه وأعظمها – جانب الروح – فلم تلتفت إليه كثيراً كما التفتت إلى العقل ، وجعلته سيد الإنسان !

والعقل طاقة بشرية ضخمة تؤدي دورها الكامل في إثبات وجود الإنسان وفاعليته وإيجابيته في هذا الكون ما في ذلك شك . ولكن الإيمان به وحده .. أو الإيمان به على حساب الروح .. هو انحراف جاهلي يصغر من قيمة هذا الإنسان في النهاية ، حين يجعله حيواناً عاقلاً فحسب ، كما عرفته الفلسفة اليونانية ! وهو في حقيقته " إنسان " .. كائن آخر غير الحيوان ! إنسان رفيع بكيانه كله ، لا بعقله وحده .. ورفيع بشموله وتكامله وترابطه ، بصورة فريدة لا تتحقق إلا في الإنسان [18] .

ومن جراء هذا التقديس للعقل على حساب الروح ، أو على حساب الجانب الملهم من الإنسان ، حدثت جملة انحرافات في الجاهلية اليونانية .. فما لا يستطيع العقل إدراكه يصبح شيئاً ساقطاً من الحساب . وكل الوجود يُتناول من جانبه العقلي وحده .. بما في ذلك الوجود الإلهي ذاته .. فالله – سبحانه – موجود بمقدار ما يستطيع العقل أن يدركه .. ولا وجود له إلا في داخل ذلك الإطار [19] ! أما الإدراك " الروحي " لله فضعيف الأثر جدا في الإنتاج اليوناني كله [وفي الجاهلية الحديثة من بعد !] .

كذلك حدثت التجريدات الذهنية التي ملأت الفلسفة اليونانية – وهي نتيجة طبيعية للمبالغة في الاهتمام بالعقل – والتي ظلت تستنفد طاقة أوروبا في جاهليتها الوسطى حتى نبذتها في عصرها الأخير بتأثير المذهب التجريبي الذي أخذته عن المسلمين ، كما سنبين فيما بعد .

---

[18] انظر كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

[19] يقول تعالى : " لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " ويقول تعالى : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " . وقد تخبطت الفلسفة اليونانية تخبطاً ذريعاً في حديثها عن الحقيقة الإلهية ، في حدود إدراك العقل البشري القاصر ، وكل إنتاجها في هذا السبيل لا يزيد على لغو باطل . فضلاً عن كونه لم يؤثر تأثيراً حقيقياً في واقع البشرية ولا في قضية العقيدة . فإن أحداً لم يؤمن بالله عن طريق التجريدات الذهنية الفلسفية .. ولا كانت هذه التجريدات الفارغة عنصراً قائماً في وجود أمة مؤمنة أو مجتمع فاضل في التاريخ !

وكذلك صارت " الأخلاق " قضايا ذهنية أكثر مما هي واقع عملي حــي . وحقيقــة إن " الديمقراطية " اليونانية كانت تربي أفرادها على فضائل اجتماعية معينة ، ولكنها – بعقلها – لم تهتد مثلاً إلى الحاسة الخلقية في أمر الفوضى الجنسية .. فتركتها بلا ضابط ، وأدى بها ذلــك إلى الدمار ..

* * *

تلك " بعض " انحرافات الجاهلية اليونانية ، نمر بها سريعاً لأنها – كما قلنا – ليست نقطة ارتكازنا في هذا البحث . ولكنا نود أن نخرج منها بمجموعة من الحقائق تنفعنا في متابعة النظر في أمر الجاهلية الحديثة وكل جاهلية في التاريخ .

أولاً : أن وجود بعض الفضائل أو المزايا أو الإنتاج الرفيع في أية جاهلية – ولا تخلو أية جاهلية من مثل ذلك – لا يعني أنها كانت تحيا حياة سليمة ، ولا أنها صالحة للاتباع والاقتباس !

ثانياً : أن وجود هذه الفضائل والمزايا والإنتاج الرفيع في أية جاهلية لا يرفع عنها وصمة الجاهلية ! فإنها مصابة حتماً بانحرافات تشوه هذه المزايا كلها وتفسد حصيلتها في النهاية !

ثالثاً : أن السبب الرئيسي في هذه الانحرافات أن الجاهلية تحكم بأهوائها – أو بمعرفتهــا البشرية القاصرة .. سيان ! – لأنها لا تعرف هدى الله ، أو تعرفه وتنحرف عنه لتتبع سواه !

فإذا عرفنا هذه الحقائق المفيدة ، نمضي في استعراض الجاهلية الرومانية على نحو مــا فعلنا في جاهلية اليونان .

* * *

الجاهلية الرومانية هي جاهلية المادة ، وجاهلية الحواس !

ولقد أبدعت هذه الجاهلية أشياء كثيرة نافعة للبشرية ، كما أبدعت – من قبل – جاهليــة اليونان ..

أبدعت " التنظيم " .. التنظيم السياسي والإداري والحربي والمدني ..

وأبدعت " المدنية " بمعنى استخدام الوسائل المادية والإنتاج المادي لرفاهية الناس وتيسير الحياة عليهم .. فأنشأت الطرق والجسور وخزانات الماء وقنواته ، والحمامات ، والمسارح والملاعب ..

وقد مر بنا – منذ سطور – أن الجاهلية – أية جاهلية – لا يمكن أن تخلو من بعض الخير وبعض النفع . كما مر بنا في تلك السطور أن وجود هذا الخير النسبي لا يمنع الجاهلية من الانحراف ! ولا يمنعها في النهاية من الدمار !

أعظم انحرافات الجاهلية الرومانية إيمانها العنيف بالمادة .. على حساب الروح . فالوجود هو الوجود المادي . الوجود الذي تدركه الحواس . أما الذي لا تدركه الحواس فهو شيء لا وجود له ، أو في القليل شيء ساقط من الحساب . ومن ثم كان أشد الجوانب ضحالة في حياة الرومان جانب العقيدة !

ومن أعظم انحرافاتها كذلك التضخيم الشديد لعالم الحس .. واللذائذ الحسية .. ومن ثم غرق الرومان في متاع فاجر لا يقف عند حد .. متاع تجاوز لذائذ الجنس – البالغة حد الابتذال – إلى لذة الاستمتاع الوحشي بإراقة الدم والقتل والتعذيب والتمثيل ، في لعبتهم الوحشية المفضلة التي كانوا يجتمعون لمشاهدتها وينفقون في سبيلها بسخاء ، والتي كان يتصارع فيها الأرقاء – المدربون للقتل والموت ! – يتصارعون بالسيوف والخناجر ، يشقون بطون بعضهم البعض ، ويقطّعون أوصال بعضهم البعض ، ويريقون دماء بعضهم البعض .. والوحوش من " سادة " الرومان يتابعون المنظر بلذة وشغف ، ويصل المرح منهم أقصاه حين تنتهي المبارزة الوحشية بقتل أحد المتلاعبين أو كليهما في حلبة الصراع !

ومن أعظم انحرافاتها كذلك " العدل " الروماني الشهير .. للرومان فقط ! هم وحدهم يستمتعون بالعدالة ! أما بقية العبيد .. وهم كل الشعوب المستعمَرة المستغَلة التي تكوّن الإمبراطورية الرومانية الواسعة ، فهم عبيد ! لا عدالة لهم ولا حقوق . وعليهم فقط واجبات !

تلك " بعض " انحرافات الجاهلية الرومانية .. الشهيرة في التاريخ !

*　　*　　*

فإذا انتقلنا إلى العصور الوسطى فثمت جاهلية مـــن نوع آخر .. جاهلية العقيدة المحرفة .

يقول دريبر الأمريكي في كتابه " النزاع بين الدين والعلم " :

" دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظـــائف خطيـــرة ومناصب عالية في الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام .. وكذلك كان قسطنطين . فقد قضى عمره فـــي الظلم والفجـــور ؛ ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (سنة 337 م .) .

" إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قـــسطنطين الملـــك ، ولكنها لم تتمكن مـــن قطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحهـــا أن اختلطـــت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ..هنـــا يختلـــف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى على منافسه " الوثنية " قضاء باتا ، ونشر عقائده خالصة بغير غبش ..

" وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين – النصراني والوثني – أن يوحـــدهما ويؤلف بينهما : حتى إن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كـــانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنيـــة القديمـــة ! وأن الـــدين النصراني سيخلص في عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها ! " [20] .

وتكفينا هذه الشهادة من كاتب مسيحي غربي ، لإثبات الانحراف الذي وقع في أوروبا عن العقيدة الصحيحة ، ولا نحتاج معها أن نخوض في التفصيلات .. وإنما يهمنا أن نشير إلى جملة انحرافات في الحياة الواقعية للجاهلية الأوروبية في العصور الوسطى .. التي كانت – في ظاهر الأمر – تعيش في ظلال الدين !

---

[20] عن كتاب " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " للسيد أبي الحسن الندوي .

كانت المسيحية – ككل دين منزل من عند الله – عقيدة وشريعة . وإن كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية فذلك لأن شريعتها الأساسية كانت التوراة ، مع التعديلات غير الكثيرة التي نزلت على عيسى عليه السلام في الإنجيل : " وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ " [21] فكان المفهوم الطبيعي للمسيحية أن تحكم بشريعة الله المنزلة في التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل .

ولكن الذي حدث بالفعل لم يكن كذلك . فعلى الرغم من النفوذ الضخم الذي زاولته الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى ، فلم تكن الشريعة الإلهية مطبقة في غير قانون " الأحوال الشخصية " .. أما واقع الحياة الأكبر فلا تحكمه شريعة الله ، وإنما يحكمه القانون الروماني .. أو – إن شئت – تحكمه الجاهلية الرومانية القديمة !

وهذا الفصل بين الدين والحياة الواقعة – على الرغم من نفوذ الدين الغالب على مشاعر الناس وتصوراتهم – كان سمة خطرة في جاهلية العصور الوسطى في أوروبا .. وإن لم يكن أخطر السمات !

لقد مضت الكنيسة تزاول سلطانها على القلوب والمشاعر – وإن كانت مع ذلك لا تجد بأساً في أن يأخذ القانون الروماني مكانها في واقع الحياة – وذهبت في فرض هذا السلطان إلى المدى الذي جاوز كل حد معقول . فقد احتجز الكهنة لأنفسهم ملكوت السماء واحتكروه ! فلا يُدخلون فيه إلا من رضي عنهم ورضوا عنه . أما الآخرون فهم " محرومون " من الرضوان .

وراحت الكنيسة تفرض على الناس ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة ! فالعشور والإتاوات والعمل المجاني في أراضي الكنيسة الإقطاعية ، والتجنيد في جيوشها التي تحارب بها الملوك العصاة وتؤدبهم .. ذلك لون من السلطان المفروض على العباد . والخضوع المذل لرجال الدين ، الذي يبلغ حد السجود في الأرض الموحلة بالطين عند مرور أحد من رجال الكهنوت ، لون آخر من السلطان . والأفكار " العلمية " الزائفة التي تفرضها على العقول

---

[21] سورة آل عمران [50] .

وتعاقب مـــن يخالفها بالحرمان ، أو التعذيب حتى الموت ، لون ثالث مـــن الـــسلطان الجـــائر الغشوم . فلما أثبت العلم النظري والتجريبي بطلان هذه النظريات على يـــد جردانـــو برونـــو وكوبرنيكوس وجاليليو راحت الكنيسة تعذبهم حتى يموتوا أو يرتدوا عما هم فيه !

ولم تكتف الجاهلية القائمة باسم الدين بهذا كله ، وإنما ذهبت شوطاً أبعد ، حـــين انقلبـــت الأديرة الرهبانية المقامة للتبتل والعبادة – تطوعاً دون فرض – " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ " .. انقلبت إلى مباءات ترتكب فيها كل الجرائم الخلقية من سوية وشاذة .. بين الرهبـــان أنفسهم والراهبات ! : " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَـــا حَقَّ رِعَايَتِهَا " [22] .

وأخيراً كانت مهزلة صكوك الغفران الشهيرة في التاريخ .. التي حولت أمر الـــدين إلـــى مهزلة ضخمة لا جدية فيها ولا " حقيقة " وإنما لهو وعبث وتدليس ومجون ...

وتلك " بعض " انحرافات الجاهلية التي قامت في العصور الوسطى في أوروبا .. باســـم الدين .

* * *

الجاهلية الحديثة هي خلاصة هذه الجاهليات مجتمعة .. وعليها مزيد !

وسنتتبع بالتفصيل في الفصول القادمة من الكتاب كل ملامح الجاهلية الحديثة في التصور وفي التطبيق ، إنما نحن هنا معنيون بتتبع خطوات التاريخ ..

لقد ولدت " النهضة " الأوروبية الحديثة على مبعدة من الدين .. إن لم نقل على عداء مع الدين .

وكان هذا أمراً " طبيعيا " بالنسبة للظروف في أوروبا .. وإن لم يكن بطبيعة الحال هـــو الصواب !

---

[22] سورة الحديد [27] .

في العصور الوسطى قامت الحروب الصليبية بين أوروبا " المسيحية " وبين الإسلام .

وعلى الرغم من أن أوروبا لم تكن في حقيقتها مسيحية ، كما رأينا في الفقرة السابقة ، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تتعصب وتتجمع لمحاربة الإسلام ، حرباً وصلت إلى حد الوحشية في كثير من الأحيان . والتعصب ذاته دليل على التدين الزائف . فالمتدين الحق لا " يتعصب " وإنما " يهتدي " بكل هدى يأتيه من عند الله .

وأيّاً كان الأمر فقد رفضت أوروبا الفرصة المتاحة لها لتهتدي إلى ديـــن الله ومنهجـــه ، وأصرت على جاهليتها التي كانت غارقة فيها إلى الأذقان ...

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ...

لقد كانت هناك عوامل متعددة تدفع العجلة إلى الأمام دفعاً .. ولكن في أي طريق ؟!

كان احتكاك الصليبية بالعالم الإسلامي إيذاناً بتحول جذري في الحياة الأوروبية ، كما كان اتصال أوروبا بالإسلام في المغرب والأندلس من أهم العوامل في تاريخ أوروبا الحديث .

يقول : " بريفولث " في كتاب " بناء الإنسانية " Making of Humanity " .

لقد كان العلم أهم ما جادت بـــه الحضارة العربية [يقصـــد الإسلامية كما قال فيما بعـــد] [23] على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التي ولـــدتها ثقافـــة العرب في أسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحـــضارة وراء سحب الظلام ؛ ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة . بل إن مـــؤثرات أخـــرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية . **فإنه علـــى الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصـــلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة** ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم

---

[23] لم يعرف التاريخ " للعرب " حضارة متميزة إلا بالإسلام . ولم تكن الحضارة الإسلامية حضارة " للعرب " كجنس . إنما كانت نتاج الإسلام ذاته ، من جميع العناصر المسلمة التي دخلت في الإسلام . وهي تحمل طـــابع الإسلام لا طابع العرب ، الذين يكوّنون عنصراً واحداً من العناصر الكثيرة التي صنعت هذه الحضارة .

ما تكون ، فـــي نشأة تلك الطاقة التي تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمـــايزة ثابتـــة ، وفـــي المصدر القوي لازدهاره : أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي " .

هذا الاحتكاك وذلك ، هما اللذان أحدثا " النهضة " الأوروبية الحديثة . وبدلاً من أن تهتدي هذه النهضة بالمنهج الرباني ، الذي أنشأ الحضارة الأصلية التي اقتبستها أوروبا ، فإنها راحـــت تخاصم الإسلام في ضراوة ، وفي الوقت ذاته تخاصم " الدين " و " العقيدة " !

فأما خصامها للإسلام فكان حصيلة التعصب الأحمق ، الذي بلغ ذروتـــه فـــي الحـــرب الصليبية الضارية ..

وأما خصامها للدين فقد أنشأته في نفوس الأوروبيين حماقة الكنيسة وتصرفاتها المثيـــرة للنفوس .

كانت الكنيسة تحارب " العلم " ، لأن الجهالة هي سندها الأكبر في الاحتفاظ بسلطانها على الجماهير . ويوم تتعلم الجماهير .. يوم تعلم أن ما تلقنه إياها الكنيسة يشتمل على مجموعة من الأساطير التي لا تثبت للمناقشة .. يومئذ لن تسلم الجماهير قيادها للكنيسة بالسهولة التي يتم بها الأمر في ظل الجهالة والظلام !

وكانت الكنيسة تحارب " الحرية " ؛ لأن الحرية عنصر خطر على السلطان الغاشم . ويوم يحس الناس طعم الحرية ويتذوقونه ، فلن يصبروا على العبودية ، ولو كانت العبودية تفـــرض عليهم باسم الدين وسلطانه !

وكانت الكنيسة تفجر وتعبث داخل أديرتها وهياكلها ، وهي تفرض على الناس الزهـــادة والتقوى ، وتطالبهم بمكارم الأخلاق !

وذلك فوق الإتاوات والعشور .. وفوق مساندة الإقطاع ضد الفلاحين الذين يسحق كيانهم الفقر والحرمان ..

فإذا قامت " النهضة " في أية لحظة ، فستقوم ولا شك على مبعدة من " هذا " الدين .. إن لم تقم على عداء معه وبغضاء ..

وذلك هو الذي حدث بالفعل ..

ولدت تلك النهضة على أساس غير ديني " Secular " . وارتكزت على محور يبتعد في دورانه رويداً رويداً عن الدين والعقيدة وما حولهما من مشاعر وأحاسيس .

لقد عادت إلى منابعها الأولى ، فيما قبل المسيحية ، إلى التراث اليوناني والروماني القديم ! أي أنها عادت – وهي جاهلية – إلى الجاهليتين الكبيرتين اللتين كانتا سائدتين قبل جاهلية العقيدة المحرفة في العصور الوسطى .. في " عصور الظلام " .

واعتبرت ذلك رجوعاً إلى " النور " .. !

وحقا لقد كان هناك نور ولا شك .. النور الذي سطع من العالم الإسلامي على أوروبا المظلمة ، فحرر عقولها من الخرافة ، وحرر نفوسها من الخضوع المذل لسلطان الكنيسة الجائر ، فاستنكفت العبودية للبشر ، وسعت إلى الحرية من كل سبيل .

ولكنها لم تأخذ النور على أصوله ، ولم تهتد بهديه الصحيح ..

لم تتجه إلى الله على منهج الإسلام الذي اقتبست منه هذا النور .

بل لقد تنكرت حتى لأساتذتها الذين علموها العلم ، فقامت – في وحشية محاكم التفتيش الشهيرة – تطرد المسلمين من الأندلس ، لتردها إلى السلطان الغشوم !

لقد تعلمت من المسلمين " العلم " . وتعلمت " الحضارة " . وتعلمت " الحرية " .

تعلمت المنهج التجريبي الذي قامت عليه نهضتها العلمية الحديثة .

وتعلمت التجمع في " أمم " بعد أن كانت إقطاعيات منفصلة يحكم كلا منها طاغية إقطاعي ، تتمثل في شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، ويتأله في إقطاعيته على العبيد .

وتعلمت حقوق الإنسان .. فقامت تطالب بتحرير كيان الإنسان وضميره من العبوديــات التي تخنقه وتكتم أنفاسه ..

ولكنها كانت رغم ذلك جاهلية . فقد رفضت أن تهتدي بمنهج الله في ذلك كله . وارتــدت بذلك النور الذي قبسته من العالم الإسلامي ، إلى تراثها الجاهلي القديم .. تراث الإغريق وتراث الرومان ..

وضاعت الفرصة أمامها للنجاة ..

لقد تعلمت ، وتحضرت ، وتحررت .. وشيدت حضارة ضخمة متطاولة .. ولكنها أقامتها على جرف منهار !

* * *

وقد مر بنا من قبل أن " الجاهلية " ليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة والمدنية وتقدم الإنتاج المادي .. فكل ذلك يمكن أن يوجد ، ويكون الناس رغم ذلك في جاهلية عمياء .

ومر بنا أن كل جاهلية لا تخلو من عناصر نافعة للبشرية .. ولكن ما فيهــا مــن النفــع النسبي لا يرفع عنها وصمة الجاهلية ، ولا ينقذها كذلك من النهاية الحتمية للجاهلية .

ولا نريد أن نتعجل الحديث .. إنما نسير خطوة خطوة مع التاريخ .

* * *

لم يكن الابتعاد عن الدين ضربة واحدة مفاجئة وحاسمة .. فليس هكذا طبائع النفوس !

إنما تحدث الأشياء في نفوس البشر في تدرج بطيء ، جد بطيء . وإذا كان البطء يحدث في نفس كل فرد بمفرده ، فإن الأمور أشد بطءًا في نفوس الجماعة ، لأن تكتلها يحمي الأفكــار والمشاعر من الانهيار السريع ، ويكوّن لوناً من المقاومة لكل وافد جديد .. يستوي في ذلك أن يكون البناء القائم مشتملاً على الخير أو الشر ، وكذلك بالنسبة للوافد الجديد ..

من أجل ذلك عاشت أوروبا قروناً كاملة بشخصية مزدوجة ، وثنية ومسيحية في ذات الوقت .

" النهضة " تسير في طريقها ، مستمدة من الوثنية اليونانية والرومانية ، ومحوِّلة كل تقدم يأتيها من الحضارة الإسلامية والعلم الإسلامي إلى طريق هاتين الجاهليتين العريقتين في التاريخ ..

و " العقيدة " قابعة في ضمائر الناس ، مؤثرة – إلى حد ما – في سلوكهم الشخصي وفي مفاهيم حياتهم ، وإن كانت هذه الحياة تحكمها – رويداً رويداً – مفاهيم غير مستمدة من الدين ، أو متعارضة مع الدين .

وفي ظل هذا الازدواج قام ما عرف في التاريخ الأوروبي باسم حركات " الإصلاح " الديني ، تلك الحركات التي تحاول رد الدين إلى نقائه ، وتحاول في الوقت ذاته بسط سلطانه على أوسع رقعة من الحياة .. ولكن ذلك لم يكن في الإمكان . أو هو على الأقل لم يحدث بالفعل . والسبب في ذلك أن الدين – حتى في مفهوم المصلحين أنفسهم – كان ما يزال يحمل ذلك الطابع الجاهلي ، وهو فصل العقيدة عن الشريعة ، والسماح لشريعة أخرى – غير شريعة الله – أن تحكم واقع الحياة . ومن ثم فكل " إصلاح " ديني ، فهو إصلاح في الجانب القابع في الضمير ، وليس في واقع الحياة !

وذلك فضلاً عن أن بواعث هذه الحركات الكامنة كانت بواعث " قومية " لا " دينية " في حقيقتها ! فقد كانت " الشعوب " تريد إبراز " قوميتها " بانفصال كنيستها عن كنيسة روما البابوية .. وذلك أمر مناف لطبيعة العقيدة التي تجمع الناس على أساس توحدهم في الاتجاه إلى الله ، لا على أساس قوميتهم أو الرقعة التي يسكنونها من الأرض !

إن الكيان البشري وحدة .. لا يمكن تفتيته إلى وجدان وواقع .

والحياة البشرية وحدة .. لا يمكن تفتيتها إلى مشاعر وسلوك .

وكذلك الدين المنزل من عند الله .. وحدة لا تنفصل فيها العقيدة عن الشريعة ، ولا الوجدان عن واقع الحياة .

وفي الوقت الذي كانت تقوم فيه حركات " الإصلاح " الديني ، كانت " الرأسمالية " النابتة تغير وجه الأرض .. على أسس غير دينية ، من ربا وغش ونصب واحتيال ، وظلم فادح للكادحين وامتصاص لدمائهم .. والمصلحون مشغولون بإصلاح الوجدان ..

وأيًّا كان الأمر فقد ظل الازدواج في شخصية أوروبا عدة قرون ..

ولكن الناظر إلى خط التاريخ لم يكن ليخطئ اتجاه الأحداث .. فقد كان الاتجاه يسير ولا شك نحو " اللادينية " (Secularism) في كل مرافق الحياة ، ويبتعد في سيره رويداً رويداً عن طريق الدين .

ولكن العملية سارت بطبيئة ومتدرجة ، حتى كان القرن التاسع عشر .. قرن الأحداث الكبرى في التاريخ الأوروبي ..

حدثان اثنان من بين الأحداث حددا خطوط التاريخ ..

الداروينية .. والانقلاب الصناعي ..

وكأنما كانا على ميعاد ! على ميعاد لتحطيم ما بقي من بناء العصور الوسطى ، أو – بالأحرى – ما بقي من جاهلية العصور الوسطى ، لإقامة بناء جاهلي جديد ، شامخ مرتفع .. جاهلية العصر الحديث .

الداروينية رجت العقيدة رجًّا عنيفاً في عالم النظريات والأفكار ، والانقلاب الصناعي .. في عالم التطبيق !

* * *

ولد دارون سنة 1809 ، وفي سنة 1859 أصدر كتابه في " أصل الأنواع " ونشر كتابه في " أصل الإنسان " سنة 1871 .

وبعد ذلك توالت الأحداث في عالم العقيدة وعالم الأفكار .

لقد انطلق المارد من القمقم ، ولم يعد إلى رده سبيل .. مارد اسمه " التطور " !

مارد غاشم يكتسح كل شيء في سبيله ، ويصر على تحطيم كل شيء " ثابت " في الطريق !

وقد تحدثت في كتاب " التطور والثبات " وفي كتب أخرى عن الرجة التي أحدثتها الداروينية في عالم العقيدة ، وفي الفكر الأوروبي كله . ولا أملك هنا إعادة الحديث كله . فأكتفي بسرده في عبارة موجزة حتى نعود إليه مرة أخرى فيما يلي من الفصول .

إن فكرة التطور لم تنحصر في الدراسة المعملية التي قام عليها دارون ، ولا كان في الإمكان أن تنحصر في هذا النطاق . وإنما انطلقت تصيب العلماء والجماهير ، فتدير رءوسهم حتى لم يعودوا يرون شيئاً " ثابتاً " في الوجود كله ، حتى فكرة العقيدة .. حتى فكرة الله !

وقامت الحرب العنيفة بين الكنيسة وبين دارون . هي تتهمه بالإلحاد وهو يتهمها بالجهالة والتخريف .. ووقفت الجماهير في مبدأ الأمر مع الكنيسة ، فقد عزت عليها عقيدتها ، وعز عليها أن يصورها دارون في صورة حيوانية هابطة . ولكنها عادت فوقفت في صف دارون ، لأنها وجدتها فرصة سانحة لتحطيم ما بقي من سلطان الكنيسة الجائر الذي تستذل به الرقاب ..

وانجلت المعركة عن انحسار الدين ، وانتصار المارد المنطلق من القمقم لا يقف في طريقه شيء ..

* * *

وفي أثناء ذلك كان الانقلاب الصناعي يدك الأرض دكًّا ، ويقلب صورة المجتمع كله ليقيم بناءه الجديد ..

بناء منفصل عن العقيدة ..

كل شيء فيه يحارب الدين أو يجافيه ..

الرأسمالية الطاغية لا تقف عند حد في امتهان " وصايا " الدين كله . فهي تسرق وتنهب وتقتل وتسفك الدماء . وهي تلهّي الناس عن حياتهم الجادة البسيطة ، لتحصل على مزيد من الأرباح من بيع أدوات الترف والزينة والفساد [إلى جانب ما تقدمه لهم من نفع بطبيعة الحال] . وهي تُخرج المرأة لتعمل بحثاً عن لقمة الخبز ، ثم تستغلها لتحطيم حركات العمال من الرجال ، الثائرين على استغلال الرأسمالية لهم واستهلاك طاقتهم لقاء الأجر الزهيد .. وفي الطريق تفسد أخلاقها مقابل الحصول على لقمة القوت .. وهي تجمّع العمال الشبان في فترة الشباب الفاره بعيداً عن أسرهم ، فتنتشر بينهم الفساد الخلقي ، وتيسر لهم حل " أزمتهم " عن طريق البغاء .

وهكذا .. وهكذا تدك معاقل العقيدة ومعاقل الأخلاق ..

* * *

ولكن الأمر لم يكن مقصوراً على الداروينية والانقلاب الصناعي ..

لقد كانت هنالك الشياطين !

كانت اليهودية العالمية تترقب الفرصة السانحة لتحقيق حلمها الكبير .. حلم السيطرة على البشرية .. على " الأميين " [24] .

إن التلمود يقول لهم : إن الأميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !

وتعاليمهم السرية تقول لهم : تربصوا حتى تجدوا الغفلة التي تثبون فيها على ظهور الحمير .

ولقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بمولد " النهضة " الأوروبية على أساس لا ديني .. فذلك نصف الطريق نحو تحطيم العقيدة الأوروبية . والعقيدة هي العدو الدائم لليهودية

---

[24] هذا تعبير القرآن : " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " وأنا أفضله على كلمة " الأمميين " التي تترجم إليها كلمة Gentiles أي كل الأمم من غير اليهود .

العالمية . فهي العقدة الصلبة التي تقاوم مكر الشياطين ، فإذا انحلت العقدة فقد سهل على الشياطين حينئذ أن يركبوا الحمير .

لقد قال تعالى للشيطان : " إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ " [25] .

وقال تعالى عنه : " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " [26] .

وقال : " إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ " [27] .

وقد ظل أعوان الشيطان وأولياؤه من شياطين اليهودية العالمية يتربصون حتى أمدتهم الظروف بالحدث الضخم أو الحدثين التاريخيين : الداروينية ، والانقلاب الصناعي !

ربما لم يكن دارون شيطاناً .. ربما لم يكن يريد الشر بالبشرية .

ربما كان عالماً يروي ما يعتقد أنه الحق . وعلى الرغم من الأخطاء التي ارتكبها في نظريته ، والتي كشفت عنه الداروينية الحديثة ذاتها Neo Darwinism ، رغم إيمانها بمبدأ الداروينية .. إذ آمن دارون بحيوانية الإنسان ، وكشف العلم بعد ذلك عن تفرد الإنسان حتى في كيانه البيولوجي البحت ، فضلاً عن كيانه النفسي والعقلي والروحي .. على الرغم من هذه الأخطاء في نظرية دارون ، فربما لم يكن هو سيئ النية في تقديم نظريته ، وإن كان من العسير تبرئته من الخطأ في فصل نظريته عن مفاهيم الدين حيث يقول : " إن تفسير الحياة بتدخل الله يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت " ! وحيث يقول : " إن **الطبيعة** تخلق كل شيء ، ولا حد لقدرتها " !

ولكن شياطين اليهود هم الذين توفرت فيهم الخبائث من سوء النية إلى التخريب المتعمد لكيان البشرية .

---

[25] سورة الحجر [42] .

[26] سورة النحل [99] .

[27] سورة النحل [100] .

يقول كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) : " إن دارون ليس يهوديا ، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين " .

ويقول الكتاب : " لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه ، بالترويج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي ، واضح لنا بكل تأكيد " .

لقد استغلت اليهودية العالمية نظرية الداروينية ونظرية التطور أبشع استغلال لتحطيم كل فضيلة باقية في الجاهلية الأوروبية ، على يد ثلاثة من أكبر علمائها : ماركس وفرويد ودركايم [28] راحوا كلهم يتحدثون عن الدين بزراية وتحقير ، ويلوثون صورته في نفوس الجماهير :

دركايم يقول إن الدين ليس فطرة !

وماركس يقول إن الدين أفيون الشعوب . ويقول إنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة ، وتلهيتها بنعيم الآخرة عن حياة الحرمان في الأرض !!

وفرويد يقول إن الدين ناشئ من الكبت . من عقدة أوديب . من العشق الجنسي الذي يحسه الولد نحو أمه . من رغبى الابن في قتل أبيه !!

وراح ثلاثتهم يحطمون الأخلاق ..

دركايم يقول إن الجريمة ظاهرة سوية ! والزواج ليس من الفطرة ! والأخلاق شيء لا يمكن الحديث عنه ككيان ثابت . وإنما كل ذلك من صنع " العقل الجمعي " الذي لا يثبت على حال ، وينتقل من النقيض إلى النقيض .

وماركس يقول إن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي المتطور على الدوام وليست قيمة ثابتة .

---

[28] انظر فصل " اليهود الثلاثة " في كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

وفرويد يقول إنها تتسم بطابع القسوة حتى في صورتها الطبيعية العادية . وهي كبت ضار بكيان الإنسان !

ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد .. وإنما حرصت على إخراج المرأة من بيتها إلى الطريق .

ماركس يقول إن المرأة لا بد أن تعمل ..

ودركايم يقول لها إن الزواج ليس فطرة .. !

وفرويد يتلقفها فيقول لها إنها لا بد أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسيا خالصاً من القيود .

ثم لا تكتفي اليهودية العالمية بالعمل في عالم النظريات .. إنما تعمل في نطاق الواقع .

فإذا كانت قد استغلت فكرة التطور الداروينية على هذه الصورة البشعة التي لم تخطر لدارون على بال ، فإنها كذلك تستغل الانقلاب الصناعي فتجعله قائماً على الفساد ..

فالرأسمالية بدعة يهودية يستغل فيها المرابون اليهود نشاطهم الربوي الشيطاني .

والرأسمالية لا تكتفي بإنتاج النافع من المواد ولا تقتصر على النافع من المشروعات .

فهناك " السينما " وهي مؤسسة يهودية قبل كل شيء ، تسعى سعياً حثيثاً جاهداً لإفساد الأولاد والبنات بما تعرض عليهم من فتنة الجنس .

وبيوت الأزياء وبيوت الزينة كل همها أن تجعل المرأة – التي أخرجها ماركس تعمل – فتنة للرجل ، تشغل باله بالفتنة والإغراء ، وتحل في قلبه عقدة العقيدة ..

وينقلب العالم إلى ماخور يعج بالشهوات الدنسة يغرق فيها الرجال والنساء إلى الآذان .

وعندئذ يثب اليهود على ظهور الحمير ، ويحققون الحلم الشيطاني الأكبر الذي ترسمه كتبهم " المقدسة " المشحونة بذلك الإيحاء الخبيث ..

* * *

وفي النهاية تكون الجاهلية قد سيطرت على كل الأرض ..

فأوروبا التي نبتت فيها الجاهلية من جذور ضاربة في التاريخ ، هي المسيطرة اليوم على البشرية .. ومفاهيمها الجاهلية هي المسيطرة على مفاهيم الناس ..

فالجاهلية اليونانية ، والجاهلية الرومانية ، وجاهلية العقيـدة المحرفـة فـي العـصور الوسطى ، وجاهلية الانفصال الكامل عن الدين في ظل الداروينية والانقلاب الصناعي .. كلهـا مجتمعةً هي الجاهلية الحديثة .. جاهلية القرن العشرين .

وهي ليست مقصورة على أوروبا ، لأن أوروبا قد جاست خلال الأرض كلهـا بـالنفوذ الاستعماري ، فنشرت مفاهيمها الجاهلية في كل مكان جاست فيه ، وصارت الجاهلية في كـل الأرض هي صاحبة السلطان .

والآن فقد ألممنا بهذه الصفحة من التاريخ ..

فلنتحدث عن " ملامح " الجاهلية الحديثة .

مَلامح الجاهلية الحديثة

لكل جاهلية في التاريخ ملامح خاصة تميزها ، هي ملامح البيئة التـــي تعـــيش فيهـــا ، وملامح " الطور " الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يحيط بها ، وإن كانت كلها مع ذلـــك تشترك في خصائص أصيلة هي التي تمنحها سمة الجاهلية على مدار التاريخ .

وسنتحدث بتفصيل واف في الفصلين القادمين عن انحرافات الجاهليـــة الحديثـــة : فـــي التصور والسلوك . في عالم النظريات وعالم الواقع . ولكن يحسن بنا قبل هذا التفصيل أن نلـــم إلمامة سريعة بالملامح التي تكوّن صورة الجاهلية الحديثة ، كما ألممنا في الفصل السابق بلمحة سريعة من التاريخ ، تتبعنا فيها مولد هذه الجاهلية وتطوراتها خلال القرون .

* * *

كل الجاهليات لا تؤمن بالله الإيمان الحق .

تلك هي الخصيصة الكبرى المشتركة بين كل جاهليات التاريخ . بل هي الأساس الـــذي تنشأ منه الجاهلية ، وتتبني عليه كل الانحرافات الأخرى في التصور وفي السلوك .

إن العقيدة الصحيحة هي التي تحدد للإنسان مكانه الصحيح في الكون ، وتسدد خطاه فـــي الزمان والمكان ، حيث تعين له وجهته الصائبة ، وترسم له طريقه السمتقيم ، فيستقيم وجدانـــه وسلوكه ، ومشاعره وأعماله ، ومبادئه وواقعه . ويصبح كله – كما ينبغي أن يكـــون – وحـــدة متماسكة متكاملة ، متجهة الاتجاه الصحيح .

وحين تنحرف هذه العقيدة فلا بد أن يشمل الاضطراب كيان الإنسان كله .. كما تضطرب الإبرة المغنطيسية حين يحال بينها وبين اتجاهها المرسوم . فيتفرق الكيان الموحد ، وتضطرب خطواته في الزمان والمكان . وتتوزع مشاعره وأعماله ، ووجدانه وسلوكه ، ومبادئه وواقعه ؛

فلا يعود تلك الوحدة التي ينبغي أن يكونها ، ولا يشمل كيانه الأمن والسكون اللذان يستمتع بهما في ظلال العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح .

وعندئذ توجد الجاهلية ..

فالجاهلية هي الانحراف عن عبادة الله الحق ، هذه العبادة التي تتمثل في التحـــاكم إليـــه وحده في أمر الحياة كله . ثم ما يترتب على هذا الانحراف من اضطراب وتـــوزع ، وتمـــزق وتشتيت . اضطراب في النظم واضطراب في الأفكار . اضطراب في علاقة الإنسان بربـــه ، وعلاقته بالكون والحياة من حوله ، وعلاقته بأخيه الإنسان .

ولم يحدث قط في التاريخ انحراف عن عبادة الله الحق ، دون أن يتبعهـــا انحـــراف فـــي علاقات الإنسان وارتباطاته وتصوراته وأفكاره . فالعقيدة هي المنظم لذلك كله ، ســـواء تنبـــه الإنسان إلى ذلك أم لم يتنبه ، وأراد أم لم يرد ! فإذا صحت العقيدة استقام الكيان كله ، واستقامت خطواته ، وإذا اضطربت العقيدة سرى إلى الكيان كله ذلك الاضطراب .

ومن الوجه الآخر لم يحدث اضطراب في الأرض مع استقامة في عبادة الله !

قد توجد العقيدة . نعم . ولكن مجرد وجودها ليس هو الفيصل في هذا الأمر . وإنما هـــو الوجود الحي المتحرك ، الشامل المتكامل . الوجود الذي يشمل الإنسان كله ، لا جزءاً منه دون جزء . يشمل مشاعره وسلوكه في ذات الوقت . يشمل مبادئه وواقعه ، وتصوراته وأعماله .

وكل وضع خلاف ذلك – سواء وجدت فيه عقيدة متجهة إلى الله أم لم توجد – هو لون من الجاهلية ، ينطبق عليه اسم الجاهلية ، وتصيبه عواقبها الحتمية التي لا تتخلف .. لأنها سنة الله .

* * *

وقد كان العرب في الجاهلية يعرفون الله ، ويؤمنون بوجوده . ويتوجهون إليه .. ولكنـــه توجه سقيم !

يقول القرآن الكريم عن العرب في الجاهلية :

" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " [29] .

" وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ " [30] .

" قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ " [31] .

" قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ " [32] .

وإذن فقد كانوا يعرفون الله ، وكانوا يؤمنون بأنه الخالق المدبر الذي بيده ملكوت كل شيء !

ولكن جاهليتهم أنهم لم يكونوا يعرفونه على حقيقته – سبحانه – ولا يؤمنون به الإيمان الحق ، ولا يحكمونه وحده في أمرهم كله .

" وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ " [33] .

كانوا يعرفونه ثم لا يتبعون هذه المعرفة نتائجها الطبيعية المنطقية التي لا بد أن تترتب عليها .

يعرفونه ثم يعبدون معه آلهة أخرى .. ذلك من حيث الاعتقاد الوجداني .

ويعرفونه ثم لا ينفذون شريعته ولا يتحاكمون إليه وحده في أمرهم كله .. ذلك من حيث السلوك الوقعي .

---

[29] سورة لقمان [25] .

[30] سورة الزخرف [87] .

[31] سورة يونس [31] .

[32] سورة المؤمنون [84 – 89] .

[33] سورة الأنعام [91] .

وبهذه وتلك كانوا كفاراً .. وكانوا جاهليين ..

وكانت الجاهلية التي يندد بها القرآن شاملة لهذه وتلك .

فأما في قضية الاعتقاد فلم يشفع لهم – وما كان يمكن أن يشفع – أنهم لا يعبدون هذه الأصنام – أو الآلهة – لذاتها ، وإنما لتقربهم إلى الله : " أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ " [34] .

وأما قضية الشريعة فقد شدد القرآن فيها تشديداً لأنه لا انفصال بينها وبين قضية الاعتقاد ، وما يمكن أن يوجد إيمان مع الانحراف عن شريعة الله ، وتحكيم غير الله في شأن من شئون الحياة :

" إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ، وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ **فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ، وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ **وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

(34) سورة الزمر [3] .

يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ، **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** " [35] .

" وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ " [36] .

قضية الشريعة إذن كقضية العقيدة ، لا فرق بين هذه وتلك : إما الحكم بما أنزل الله وإما الجاهلية والشرك . فالمعرفة بالله الحق ، والإيمان الصحيح به ، يستتبعان إفراده – سبحانه – بالحاكمية كإفراده بالألوهية . لأنه هو الخالق والمالك ، ومن ثم فهو – وحده – الذي ينبغي أن يطاع ، وشرعه – وحده – هو الواجب الاتباع . والعقيدة والشريعة قضية واحدة ذات شقين ، تنبعان من أصل واحد وتلتقيان في غاية واحدة والأصل والغاية هما الإيمان بالله والإسلام له .

والسمة الأولى لكل جاهلية – السمة التي تجعل منها جاهلية – هي عدم الإيمان الحق بالله أو عدم الإسلام له في أي شأن . يستوي في ذلك العقيدة والشريعة ، بلا انفصال ولا افتراق .

الإيمان يقتضي إفراد الله – سبحانه – بالألوهية ، والإسلام يقتضي إفراده – سبحانه – بالحاكمية .

والجاهلية تنشأ من عدم إفراد الله بالألوهية وعدم إفراده بالحاكمية . فتشرك مع الله آلهة أخرى ، ولا تحكم بما أنزل الله .

* * *

وإذ كانت الجاهلية لا تحكم بما أنزل الله ، فهي تتبع " الأهواء " .

وتلك هي السمة الثانية لكل جاهلية ، النابعة في الأصل من عدم الإيمان الحق بالله وعدم الإسلام له .

---

[35] سورة المائدة [44 – 50] .

[36] سورة الأنعام [121] .

" وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَــنْ بَعْــضِ مَــا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ [37] " . فالقضية مترابطة : إما الإيمان بالله ، الذي ينشأ عنه الإسلام له واتباع ما أنزله ، وإما الجاهلية واتباع " الأهواء " . وكل شرع غير شرع الله هوى .. ذلك ما قرره الله . ومصداقه هو تاريخ الحياة !

لقد اختلفت " الأهواء " من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ، ومن أمة إلــى أمــة . ولكنها كانت دائماً " هوى " فريق من الناس ، يحكمون به سائر الناس ! ومصلحة معينة لفرد أو جماعة ، يسخّر من أجلها بقية الخلق على حسب " هواه " .

وشرع الله وحده هو البريء من الأهواء . لأن الله سبحانه ليست له " مصلحة " مع هــذا الفريق أو ذاك : " مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ [38] " .

وكل الناس خلقه بالتساوي .. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [39] .

فإما اتباع لشرع الله .. فهو الإسلام . وإما اتباع للأهواء .. فهي الجاهلية في كل زمــان ومكان .

* * *

والسمة الثالثة المشتركة في كل جاهلية هي وجــود طواغيــت فــي الأرض يهمهــم أن ينصرف الناس عن عبادة الله الواحد والحكم بشريعته ، ليتحولوا إلى عبادة أولئــك الطواغيــت والحكم بشريعتهم – أي بأهوائهم :

---

[37] سورة المائدة [49] .

[38] سورة الذاريات [57] .

[39] سورة الحجرات [13] .

" اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ " [40] .

" الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ " [41] .

ووجود الطواغيت سمة ملازمة للبعد عن منهج الله .. فحين ينحرف الناس عن العبادة الحقة ، يتوجهون إلى عبادة كائنات أخرى – بمفردها ، أو بالإشراك مع الله – وعندئذ تصبح هذه المعبودات طواغيت !

ويستوي أن يكون الطاغوت فرداً ، أو طائفة ، أو جماعة ، أو عرفاً ، أو تقليداً ، أو أي قوة تستعبد الناس لها فلا يملكون الخروج عن أوامرها .

والطاغوت – سواء كان فرداً أو طائفة أو جماعة .. الخ – لا يحب للناس أن يؤمنوا بالله ويعبدوه حق عبادته . فإنه لا يستطيع أن يعيش ويتمكن حيث يكون الولاء لله ! ولا يعيش ويتمكن إلا بصرف الناس عن عبادة الله ، ليتمكن هو من أن يفرض هواه !

ومن ثم يقف الطاغوت دائماً موقف العداء من العقيدة الحقة ، لأنه يريد الولاء لشخصه ومصالحه ؛ والعقيدة الحقة تجعل الولاء لله !

ومن ثم كذلك فإن الجاهلية – أي الانحراف عن عبادة الله – تتلازم دائماً مع وجود الطاغوت .

* * *

والسمة الرابعة المشتركة ، وهي مترتبة كذلك على البعد عن منهج الله – وإن كانت أسبابها كامنة في الفطرة البشرية ذاتها – هي الانجراف في تيار الشهوات .

---

(40) سورة البقرة [257] .

(41) سورة النساء [76] .

الشهوات أمر محبب للإنسان : " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. " [42] .

وقدر من هذه الأمور كلها ضروري للحياة البشرية .. ضروري لمهمة الخلافة التي يتولاها الإنسان في الأرض . ومن ثم كانت " الدوافع " في كيان الإنسان ، دوافع الطعام والشراب والمسكن والملبس . والجنس . والبروز . والتملك [43] . لتربطه بالحياة ، وتدفعه إلى الحياة .

ولكنها حين تزيد عن قدرها المعقول ، وتصبح " شهوة " مسيطرة على كيان الإنسان ، فعندئذ لا تؤدي مهمتها الفطرية التي أوجدها الله من أجلها ، وإنما تصبح مدمرة لكيان الإنسان ، مبددة لطاقاته ، صارفة له عن مهمة الخلافة ، وهابطة به عن مستوى الإنسان الكريم الذي كرّمه الله وعلاه ، إلى مستوى البهائم ومستوى الشياطين ..

والذي يحد من اندفاعها وسيطرتها على كيان الإنسان .. هو العقيدة في الله ، والحياة في ظل نظام يقوم على شريعة الله !

والتجربة البشرية الطويلة خلال القرون تؤكد هذه الحقيقة ! إما الاهتداء بهدى الله وإما الانجراف في تيار الشهوات ، كل الشهوات .. وشهوة الجنس في مقدمة الشهوات !

إن الإنسان لا يمكن أن يمتنع عن الشهوات أبداً .. إلا لله !

لقد يخشى عقوبة القانون .. فيسعى إلى التستر على ما يعتبره القانون جريمة !

ولقد يخشى الناس .. فيرتكب جريمته في خفية من الناس !

ولكنه لا يمتنع امتناعاً حقيقيا عن الجريمة إلا حين يخشى الله . لأنه لا ستر من دون الله !

---

(42) سورة آل عمران [14] .

(43) انظر فصل " الدوافع والضوابط " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

على أن المشاهد فـــي التاريخ كله أن الجاهليات لا تحرّم الفاحشة الخلقيـــة علـــى وجـــه التحديد ! يستوي في ذلك الجاهلية العربية ، والجاهلية الفارسية ، والجاهلية الهندية .. واليونانية والرومانية والفرعونية .. وجاهلية القرن العشرين !

وتختلف الأسباب ..

فقد يكون السبب هو انشغال الطاغوت الذي يحكم – وكل حكم بغير ما أنــزل الله فهـــو الطاغوت – بحماية مصالحه القريبة عن كل أمر عداه . ومن ثم لا يلتفت إلى انحراف الناس في شؤون الجنس ، ولا يعنيه أن يقوّم هذا الانحراف .

وقد يكون السبب هـــو قيام الطاغوت بنشر الفاحشة عمداً ، ليستمتع هو بالمتعة المحرمة ، أو لتلهية الناس عن الظلم الواقع عليهم – وكل حكم بغير ما أنزل الله ظلم – بالانغماس في فـــي متع الجنس الفاحشة ، فينسون ، وينصرفون عن محاكمة الطاغوت !

وعلى أية حال فهناك تلازم دائم بين كل جاهلية وبين الانجراف في تيار الشهوات .

* * *

تلك سمات تبرز في كل جاهلية على وجه الأرض خلال التاريخ .. وهي جميعاً ناشئة من السمة الرئيسية الكبرى في كل جاهلية ، وهي الانحراف عن عبادة الله .

سمات مستركة لا يمكن أن تخلو منها الجاهلية ..

كانت موجودة في الجاهلية العربية ، وكانت موجودة في الجاهليات الفاريسة واليونانيـــة والرومانية والفرعونية .. وهي كذلك قائمة في الجاهلية الحديثة ، بلا اختلاف في غير الصورة الظاهرة ، وبلا اختلاف حتى في الصورة بعض الأحيان !

في الجاهلية العربية كان الانحراف عن عبادة لله وحده – عقيدةً وشريعةً – حيث كانـــت الأصنام والأوثان تُعبد إلى جوار الله ، وحيث كانت قوانين الجاهلية وعرفها تحكـــم بـــدلاً مـــن شريعة الله ، وكانت " الأهواء " تسيطـــر على تصرفات الناس .. القويّ يغلب الضعيف بغيـــر

حق ، والانتصاف لا بالحق ولكن بقوة الذراع ! وكانت الطواغيت .. طواغيت قريش وغيرها من كهنة وسدنة ووضاع للأعراف المنحرفة والتقاليد .. يحرّمون ما يشاءون تحريمه ويحلون ما يشاءون تحليله ، وليس ذلك فقط بل " يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً " [44] إذا شاءت لهم الأهواء ، ويمارسون سلطاناً باطلاً يستذلون به الناس ويتحكمون في رقابهم .. وكانت الشهوات .. الخمر والنساء والميسر ، والقتل والسلب والنهب ، والغارات والثأر والمفاخرة بالعدوان .. !

واليوم على بعد أربعة عشر قرناً من ذلك التاريخ تقوم الجاهلية الحديثة .. على نفس الأركان !!

فأما الانحراف عن عبادة الله – عقيدةً وشريعةً – فأمر أشهر من أن يشار إليه ! أمر لا يقف عند حد الانحراف عن العقيدة في كثير من حقائقها ، والانحراف عن الشريعة في كل مظاهرها .. وإنما يتعداه إلى الإلحاد الكامل ، يتلهى به أفراد ، أو تفرضه الطواغيت على الناس ، وتباركه الشياطين في جميع الأحوال .

وأما اتباع الأهواء .. فليس في التاريخ قرن ركب رأسه واتبع هواه كما صنع هذا القرن .. في كل شيء .. في الشرق وفي الغرب سواء .. من تحطيم للعقائد . ولهو بالمقدسات .. وعبث بكل الضوابط التي تضبط تصرفات الإنسان .. و " تقاليع " و " مودات " وأفانين من العبث تفوق الحسبان .

وأما الطواغيت .. فما أكثرهم ! طاغوت الرأسمالية تارة ، وطاغوت البروليتاريا تارة ، وطاغوت الفرد المقدس تارة ، وطاغوت العرف الفاسد والقيم المنحلة تارة .. وهي في كل مرة طواغيت !

وأما الشهوات ... !

* * *

---

(44) سورة التوبة [37] .

تلك سمات لا تنجو منها جاهلية في الأرض .. في كل التاريخ .

فإذا عرفنا هذا القدر المشترك في كل جاهلية [وسنعود إلى تفصيله في الفصلين القادمين [فقد بقي أن نلم في هذه اللمحة السريعة بالخصائص المميزة للجاهلية الحديثة – لتكتمل في أذهاننا صورتها العامة – وهي خصائص تنبع في الأصل من السمة الرئيسية الكبرى – الانحراف عن عبادة الله – ولكن الجاهلية الحديثة تنفرد بها من حيث صورتها وتفصيلاتها ، لأنها نتيجة البيئة والظروف ، و " التطور " العلمي والسياسي الاقتصادي والاجتماعي والفكري الذي حدث على مبعدة من منهج الله ، وعلى عداء مع منهج الله [45] .

لقد كان لكل جاهلية في التاريخ سماتها الخاصة المميزة إلى جانب سماتها المشتركة ..

كانت الجاهلية العربية مثلاً تتميز بوأد البنات ، وبأشياء أخرى سخيفة ومضحكة ، كخروج بعض الناس لحج بيت الله الحرام عاريا – في الحج !! – رجالاً ونساء !! وتحريم بعض الحرث والأنعام بلا سبب على هذا النحو المضحك :

" وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ، وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ، وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ .. " [46] .

وكانت الجاهلية اليونانية تتميز بعبادة العقل .. وعبادة الجسم .. والجاهلية الرومانية بحلبات المبارزة الوحشية .. والجاهلية الهندية بنظام المنبوذين ، وبتخصيص بغايا " لخدمة "

---

[45] انظر الفصل السابق " صفحة من التاريخ " .

[46] سورة الأنعام [136 – 139] .

المعابد !! يخدمنها ببذل أعراضهن المدنسة ! ويكون ذلك جزءاً من " الدين " !! والجاهلية المصرية القديمة بعبادة الفرعون واستذلال كيان الشعب كله في خدمة ذلك الفرعون المقدس ! وجاهلية القرون الوسطى بطغيان الكنيسة والفساد الخلقي في الأديرة ، وصكوك الغفران ..

وكذلك تتميز الجاهلية الحديثة بسماتها الخاصة التي تفردها بين الجاهليات بعد أن تشترك معها في بقية السمات ..

تلك الخصائص يمكن حصرها – على وجه التقريب – في هذه الأمور :

- التقدم العلمي الفائق الذي يستخدم [من بين ما يستخدم] في تضليل البشرية عن هدى الله ، وفي إيقاع الشر والأذى بمخلوقات الله .
- تبجح " الإنسان " في مواجهة الخالق ، مفتوناً بنتائج العلم والتقدم المادي ، حتى ليحسب الإنسان أنه أصبح في غنى عن الله . أو أنه أصبح هو الله .
- النظريات " العلمية " المتعددة التي توجه الناس إلى الانحراف ، في الاجتماع والاقتصد وعلم النفس .. وكل مجال من الحياة .
- الفتنة " بالتطور " .
- " تحرير " المرأة .

وليس هنا مجال التفصيل في ملامح الجاهلية الحديثة ، سواء منها سماتها الخاصة أو سماتها المشتركة مع بقية الجاهليات ، فمجال ذلك في الفصلين القادمين .. ولكنا نقول كلمة في ختام هذا الفصل عن " الفتنة " القائمة في هذه الجاهلية ..

إن الفتنة الكبرى في هذه الجاهلية أنها تملك كثيراً من العلم ، وكثيراً من القوة المادية ، وأنها حققت تيسيرات حضارية مادية كثيرة للبشر على ظهر الأرض ، ينطوي بعضها على خير ظاهري ومنافع للناس .

ومن أجل ذلك قلنا في مقدمة الكتاب إن الجاهلية الحديثة أوعر وأخبث وأعنف من كل جاهلية سابقة في التاريخ .

لقد كان " الباطل " في الجاهليات القديمة واضح البطلان .

وعلى الرغم من الجهالة التي كانت ترين على عقول الناس وضمائرهم ، فلا يرون ما في باطلهم من بطلان ، ويتصورون أن الحق الذي يُدعَوْن إليه هو الباطل ، أو الخسران .

على الرغم من ذلك فقد كانت " كمية " الجهل والشر والباطل أقل .. وكان الهدى – على ثقل مهمته – ينتصر في معركة حاسمة فيتبين الحق للناس ، ولا يعودون بعد ذلك يترددون .

ولكن الباطل اليوم يستند إلى " العلم " ويتخذ العلم وسيلته للتضليل !

ومن أجل ذلك يلتبس الحق بالباطل في أذهان الناس ولا يقدرون على التمييز .

* * *

والقوة المادية كذلك من أسباب الفتنة .

وعلى الرغم من أن كل جاهلية في التاريخ كانت تستند إلى لون من ألوان القوة المادية تسند به طاغوتها وتفرضه على ضمائر الناس ، بحيث يأخذون ما يقوله الطاغوت قضايا مسلمة لا تناقش – عن رهبة ورغبة ! – ويتقبلون سلطانه بلا معارضة أو تفكير في المعارضة .. على الرغم من ذلك فقد كانت تلك القوى المادية في الجاهليات القديمة أقل رهبة وفتكاً وتنظيماً مما هي اليوم . فهي اليوم ليست أموالاً جبارة فحسب ، وليست أسلحة فتاكة فحسب .. بل إلى جانبها من وسائل الإعلام على نطاق واسع ما لم تعرفه البشرية في تاريخها كله ، تظل تلح على أذهان الناس وضمائرهم ، في الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون ، حتى يخيل لهم أن الباطل هو الحق ، وأن الحق خيال طائر ليس له في الواقع وجود !

* * *

وكذلك ذلك القدر من الخير الظاهري والنفع الذي تحققه هذه الجاهلية للناس ..

لقد كان دائماً في كل جاهلية قدر من الخير الظاهري .. ولا يمكن أن توجد جاهلية في أية لحظة على الأرض خلو مـــن الخير كله .. فليس ذلك من طبائع الأشياء ولا طبائع النفوس .

إن الكيان البشري – مهما فسد – لا يمكن أن يتمحض للشر في مجموعه !

قد يفعل ذلك أفراد .. يغلب عليهم الشر حتى لا يُرى فيهم وجه الخير .

ولكن مجموع البشرية لا يمكن أن يفعل ذلك . سيظل فيهم قدر من الخيـــر فـــي جميـــع الأحوال . ومن هذا القدر المتبقي في النفس البشرية – في أسوأ حالاتها – يتجمع في كل جاهلية قدر من الخير الظاهري – ظاهري لأنه لا يستند إلى " الحق " ولا ينبع من المنهج الـــصحيح ، ومـــن ثم يذهب بدداً فـــي واقع الحياة – ولكنه يزيغ أبصار الناس فيحسبون أنهم ليـــسوا فـــي جاهلية .. " وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " [47] .

ولكن هذه الجاهلية الحديثة تحقق للناس من النفع – بإمكانياتها العلمية والمادية – ما لـــم يتحقق في نوعه وكميته في كل عصور التاريخ ! ومن هنا تزيغ أبصار الناس أكثر مما زاغت في أي وقت مضى .. ويحسبون أنهم مهتدون !

* * *

هذا الطغيان العنيف للجاهلية الحديثة – المتمثل في فتنة الناس بها إلى هذا الحد – ناشـــئ من عنف الانحراف عن منهج الله ! فعلى قدر انحراف الناس تكون قـــوة الطـــاغوت .. وقـــد انحرف الناس فـــي هذا العصر عن المنهج الرباني أعنف انحراف شهدته البشرية في تاريخهـــا كله .. ومن أجل ذلك كانت قوة الطاغوت أعلى ما وصلت إليه في كل مراحل التاريخ ..

والعلم والقوة والتنظيم .. وهي سمات هذا العصر وعبقرياته .. أدوات تخـــدم الطـــاغوت اليوم ، لأنها بطبيعتها طاقات محايدة تخدم السيد الذي يسيطر عليها ..

---

[47] سورة الأعراف [30] .

وفي وسع البشرية غداً حين تهتدي إلى الله الحق ، أن تستخدم هذه الأدوات كلها في سبيل الخير .. الخير الحقيقي الشامل لمجموع البشرية ..

وحسب الناس – المفتونين بهذه الجاهلية الطاغية – أن يروا كم أفسدت هذه الجاهلية من أحوالهم ومشاعرهم ، وكم ضيعت من فرص الخير الشامل التي كان يمكن أن تصيبهم ، ليعرفوا أن كل النفع الذي تقدمه لهم الجاهلية اليوم – في عمل العلم على تيسير الحياة لهم على الأرض ، وفي الخدمات الطبية والاجتماعية ، و " العدالة " الجزئية التي ينالونها في هذا النظام أو ذاك – إنما هو فتات ضئيل ينثره الطاغوت على الناس ليبرر بقاءه في الأرض ، ولتستنيم له عواطف " الجماهير " بينما هو يستمتع وحده بسلطان مروع يستذل به رقاب الخلق ، لم يتجمع قط في أي طاغوت في التاريخ ..

عند ذلك سيعرفون أنهم يعيشون في الجاهلية حقا .. وأن هذه الجاهلية ينبغي أن تزول !

وفي الفصلين القادمين نتحدث عن مدى الفساد الذي أحدثته الجاهلية في الأرض ..

فساد في التصور ..

وفساد في السلوك ..

فساد في التصور

لم تدع الجاهلية الحديثة شيئاً في عالم التصور بلا فساد !

فلقد أفسدت كل تصورات الإنسان وارتباطاته .. بالله والكون والحياة .. والإنسان !

هناك انحراف رئيسي في تصور الحقيقة الإلهية ، وعلاقة الإنسان بالله .

وانحراف في تصور الكون ، وعلاقته بالله ، وعلاقة الإنسان به وعلاقته بالإنسان .

وانحراف في تصور الحياة وارتباطاتها وأهدافها .

وانحراف في تصور النفس البشرية ، وارتباطات الإنسان بالإنسان ، فرداً وجماعة وجنسين .

وباختصار هو انحراف يشمل كل حياة الإنسان .

* * *

والجاهلية الحديثة – كما قلنا من قبل – هي خلاصة الجاهليات الأوروبية القديمة كلها ، وعليها مزيد ! ففيها ميراث من الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية وجاهلية القرون الوسطى .. مضافاً إليه مزيد جاءت به القرون الحديثة على يد المفكرين " والعلماء " من كبار اليهود ومن تبعهم من " الأميين " !

* * *

لقد تخبطت أوروبا في تصورها للحقيقة الإلهية تخبطات شتى ، سواء في الفلسفة أو العلم أو واقع الحياة ..

ولن نتعـــرض طويلاً لانحرافات العقيدة في تصور الذات الإلهيـــة وتـــصور الوحدانيـــة المطلقة ، إذ يكفينا في ذلك – كما بينا من قبل – شهادة دريبر الأمريكي في كتاب " النزاع بين العلم والدين " ، التي قال فيها إن قسطنطين – الذي فرض المسيحية فرضاً على الإمبراطوريـــة الرومانية – قد مزج كثيراً من المفاهيم الوثنية بالعقيدة الجديدة ، تأليفاً لقلوب الوثنيين وأملاً في أن يدخلوا في الدين الجديد .. !

ولكنا نعرض لوهم ضخم عاشت فيه أوروبا المسيحية في العصور الوســطى وأوروبــا الملحدة في العصور الحديثة .. سواء .

ذلك ظنهم بأن الدين علاقة بين العبد والرب .. لا شأن له بواقع الحياة !

ظنهم بأن العقيدة تكون ما تكون .. في داخل القلب ، في أعماق الوجدان .. ثم يكون واقع الحياة مستقلا عن العقيدة ، يسير في طريقه بلا تأثر بذلك الشعور المكنون !

وَهْمٌ من أوهام الجاهلية .. !

إن العقيدة هي الحياة ! سواء صحت العقيدة أم دخلها الفساد .. فهي تلقي ظلها على الحياة البشرية كلها . لا يفلت منها شعور واحد ولا عمل واحد ، يستقل بعالمه الخاص بعيداً عن العقيدة في الله !

ولقــد كان هــذا الفصل بين الدين والواقع ؛ بين الــشعور والــسلوك ؛ بــين العقيــدة والشريعة ، من أكبر الحماقات في جاهلية العصور الوسطى الأوروبية . في عصر الظلمـــات . ولكن هل انفصل بالفعل الدين عن واقع الحياة ؟

كلا ! إن الذي حدث بالفعل ، ولا بد أن يحدث ، أن العقيدة الفاسدة ألقت ظلها على الحياة الأوروبية ، ففسدت كلها ، في تدرج بطيء ، حتى صارت كلها تعج بالفساد !

إن الحياة لا يمكن أن تنفصل عن العقيدة .

فما العقيدة ؟

إنها ليست مجرد وجدان في داخل الضمير .

إنها قاعدة يقوم عليها " تصور " كامل للحياة وارتباطاتها ، ومركز الإنسان من الكـــون ، ومركزه من الوجود .

ولقد يبدو الدين في نفوس السذج البسطاء من الناس مجرد وجدان في ضمائرهم . ولكـــن هذه ليست حقيقة . فحتى هؤلاء السذج البسطاء من الناس ، الذي لا يفلسفون الأمور بعقـــولهم ، ولا يعيشون تفاصيل الحياة بوعيهم ، يقفون – بوجدانهم الديني الخالص – موقفاً معينـــاً مـــــن الحياة . فهم يقبلون منها أشياء ويرفضون منها أشياء . وهم يفسرون ارتباطات الأشياء بعضها ببعض على صورة معينة ، مستمدة من هذا الوجدان .

وإذن . فالدين – حتى في هذه النفوس الساذجة – موقف معين من الحياة ، وتصور معين للحياة .

والذين يرون الدين – في فترات الجاهلية – ضعيف الأثر في حيـــاة النـــاس وواقعهـــم ، يُغْرون بالظن أن الدين هكذا .. ضعيف الصلة بالواقع ؛ وأن الواقع مستقل عن العقيدة ؛ محكوم بأسباب أخرى وروابط أخرى لا صلة لها بالدين !

وذلك الظن ذاته أثر من آثار الجاهلية ، وإفسادها للتصور البشري !

إنه حين يضعف أثر الدين في حياة الناس الواقعية فمعنى ذلك أن العقيدة قد فـــسدت فـــي النفوس ! ومعناه كذلك بالتالي أن الحياة كلها لا تسير سيرها الطبيعي ، وأنها واقعة لا محالة في لون من ألوان الانحراف .. تبدو آثاره الحتمية بعد حين .

حين يضعف أثر الدين في حياة الناس الواقعية فمعنى ذلك أن الناس لا يعبـــدون الله ! لا يعبدونه حق عبادته . لا يفردونه بالعبادة ، ويشركون معه آلهة أخرى ، هي التي يحكّمونها في حياتهم الواقعية بدلاً من أن يحكموا الله ومنهج الله .

وذلك أول الفساد في العقيدة . أول " التعدد " الذي تتسم به الجاهليات كلهـا علـى مـدار التاريخ .

وهذه السمة الجاهلية : تعدد الآلهة ، ومن ثم ضعف أثر العقيدة في عالم الواقع ، لتـوزع إشعاعاتها وانكسارها ، بدلاً من تجمعها ووحدة اتجاهها . هذه السمة تتبعها حتماً نتائجها ، وإن كانت بطيئة في ظهورها ، فلا يحسها الناس في بلادة وعيهم إلا بعد حين !

أول نتائجها توزُّع خطى الكائن البشري على الأرض ! خطوة مشدودة إلى الله ، وخطوة مشدودة إلى " الواقع " ! الواقع المنحرف الذي شرد عن منهج الله . وتضارب القيم فـي نفـس الإنسان . تلك قيمة عالية بالنظر إلى المنهج الرباني وهابطة بالنظر إلى الواقع المنحرف عـن منهج الله ، وتلك قيمة محرمة في المنهج الرباني ، وهي " مطلوبة " أو " ضرورية " في واقـع الحياة !

ولهذا التوزع ثقلته على مشاعر الناس وضمائرهم .. وإن لم يحسوا بها في بلادة وعـيهم إلا بعد أجيال !

وينطلق " الواقع " بعيداً عن إشعاع العقيدة .. أي تنطلق " الآلهة " الجديدة بعيداً عن منهج " الله " ، فتفسد الأرض .

ينطلق " الواقع " خاضعاً للأهواء . خاضعاً للطاغوت . خاضعاً للشهوات .. ومن ثم يزداد فساداً على فساد ، وينتهي به الأمر إلى البوار ، حين يصبح " الله " آخر معبود يُعبد ، وتكون " الآلهة " هي المسيطرة على الحياة ..

وتلك قصة أوروبا !

* * *

قصة طويلة تستغرق بضعة قرون ..

بدأت أول ما بدأت بفصل " الدين " عن " الواقع " .

ثم جاءت " النهضة " فباعدت بين الدين والحياة ..

إن أوروبا في جاهلية القرون الوسطى لم تفهم على وجهه الصحيح قول المسيح عليه السلام : " أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " [48] . ولم تسمع لقوله عليه السلام : " وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ " [49] .

وربما كانت هناك ظروف تاريخية ساعدت على هذا الانحراف . فالمسيحية – كما يقول " ليوبولدفايس " ، المستشرق الذي أعلن إسلامه وصار اسمه " محمد أسد " في كتابه " الإسلام على مفترق الطرق " – لم تكن تملك أن تبسط سلطانها على الإمبراطورية الكبيرة التي تحكم بمقتضى القانون الروماني ، والتي كان " الدين " فيها مظهراً خاوياً من الحقيقة . فلما فرض قسطنطين المسيحية على الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي ، لم يفرضها إلا عقيدة وجدانية لا تحكم الواقع بتشريعها الرباني . فقد كان – حتى في عالم العقيدة البحتة – يمزج الوثنية الرومانية بدين الله .. فما بالك بالتشريع ؟!

ومع ذلك فبحكم تحمس الناس للعقيدة الجديدة كان لها سيطرة – جزئية – على الواقع الذي يعيشونه .

فلما جاءت " النهضة " تغير الميزان .. لم يعد مركز الثقل هو العقيدة ، وإنما أصبحت الحركة الجديدة – التي تستمد من الهيلينية القديمة مفاهيمها الفكرية وتصوراتها – هي الوجه الجديد الذي أخذ – في تدرج بطيء – يسيطر على الحياة .

أخذ مركز الثقل ينتقل من " الله " إلى " الآلهة " .

وكان لذلك سببان كبيران ، أحدهما واضح في الشعور والفكر ، والآخر خفيّ في الأعماق .

---

[48] إنجيل متى إصحاح 22 آية 21 .

[49] سورة آل عمران [50] .

فأما السبب الظاهر فقد تمثل في حرب الكنيسة للعلماء والعلم ، وكل مفهوم للحركة والتطور ، خوفاً على سلطانها التقليدي أن يزحزحه العلم عن مكانه ، ويستبدل به سلطاناً آخر لا تكون الكنيسة طرفا فيه . فلما ولدت الحركة " العلمية " كانت بطبيعتها معادية للكنيسة أو على الأقل مباعدة لسلطانها ؛ كما كانت كذلك " النهضة " الفكرية والحضارية ، لأنها حركة وتطور ، مخالفة لإرادة الكنيسة في تثبيت الأوضاع على ما هي عليه إلى آخر الزمان .

وكان طبيعيا أن تسيطر النهضة الفكرية والحضارية على الحياة الواقعية ، لأنها بطبيعتها متصلة بالواقع الأرضي والحياة اليومية . وما دامت الكنيسة لا تبارك هذه النهضة ولا تواكبها ، فقد كان الأمر المنطقي مع الظروف هو استمرار التباعد بين الحياة الواقعية و " هذا " الدين الذي تمثله هذه الكنيسة .

ولقد كانت تلك هي الفرصة المناسبة لتصحيح الأوضاع كلها ، والخروج من الجاهلية الشاملة إلى منهج الله الحق . ولكن أوروبا – كما بينا من قبل – قد رفضت هذه الفرصة المتاحة ، بدافع من الروح الصليبية الغالبة عليها ، فأخذت من المسلمين علومهم ، ومذهبهم التجريبي ، ومظاهر حضارتهم ، وأبت أن تأخذ المنهج الرباني الذي يقوم عليه البناء كله . فكان بناؤها منذ اللحظة الأولى " للنهضة " منحرفاً عن منهج الله .

ذلك هو السبب الظاهر .

أما السبب الخفي فهو ذلك الميراث النكد من الجاهلية اليونانية القديمة ، الذي بعثته الهيلينية العائدة في أعماق الضمير الأوروبي .

بروميثيوس ، سارق النار ..

إنه هو " الإنسان " الأوروبي الحديث . !

لقد فعلت هذه الأسطورة فعلها في مشاعر الأوروبيين وضمائرهم ، فجعلتهم – هي وأمثالها – وهم يكتسبون المعرفة ، يحسون بالعداوة مع الله !

لقد وقر في أخلادهم من هذه الأسطورة وأمثالها أن الله – أو الآلهة ! – لا يحبون للإنسان الخير ، وبصفة خاصة لا يحبون له " المعرفة " . وإنما تؤخذ المعرفة اغتصاباً من الله – أو الآلهة – ويتحقق الخير على كره وعداء .

ووقر في أخلادهم – كما قال جوليان هكسلي صراحة في كتابه " الإنسان في العالم الحديث " – أن الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعان الإنسان لله ! فإذا زادت معرفته وقوته فلا موجب إذن لفكرة الله ، وما يرتبط بها من عبادات .. وليكن الإنسان هو الله !

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد دفعة واحدة بطبيعة الحال . فطبائع النفوس بطيئة التحول ، وخاصة في شئون العقيدة . ومن ثم تحتاج إلى زمن طويل يمتد إلى أجيال .

في المرحلة الوسطى قامت عبادة " الطبيعة " بدلاً من عبادة الله .

وكانت الطبيعة مهرباً وجدانيا من إله الكنيسة الذي تستعبد الناس باسمه ، وتفرض عليهم الإتاوات والعشور ، والخدمة المجانية في أرض الكنيسة والخدمة العسكرية في جيوشها ، وتستذل الرقاب " لرجال الدين " . كانت إلهاً لا كنيسة له ولا فرائض .. ولا التزامات كذلك . إلهاً يستجيب لرغبة الفطرة في التوجه إلى " الخالق " بالعبادة ، وفي الوقت نفسه يستجيب لرغبة أوروبا في الفرار من سلطان " الدين " كما مارسته الكنيسة الأوروبية بضعة قرون .

وفي الوقت الذي كانت الطبيعة فيه تُعبد على هذا النحو ، كان " الله " لا يزال موجوداً في ضمائر الأوروبيين ، يتوجهون له بالوجدان ، ويعبدونه داخل الكنيسة ، ويصوغون من وحي منهجه بقية من أخلاقهم وتقاليدهم .. بحكم العادة أكثر من حكم الإيمان .

وهكذا تعددت الآلهة المعبودة ، وتعقدت بينها العلاقات !

الله ، المحبوب المرهوب ، مرتبط بلحظة الصلاة في الكنيسة ، و " بعض " لحظات الحياة العابرة .. بلا ميزان .

والطبيعة ، المحبوبة المرهوبة ، مرتبطة بالمشاعر الفنية من ناحية ، فقد راحت الحركة الرومانتيكية توليها عناية زائدة ، وتصوغ حولها أشعارها ورسومها ووجداناتها ؛ وبالتقدم العلمي من ناحية أخرى ، فقد أخذ العلماء يكتشفون " القوانين الطبيعية " التي تسيّر الكون ، وينسبونها إلى هذه " الطبيعة " كقضية مسلمة لا يناقشها العقل ، ولا منطق العلم ذاته الذي يكتشف هذه القوانين !

والدولة وقوانينها هي الإله الثالث الذي تعبده الجماهير راضية أو كارهة .. وتخضع لسلطانه خضوعها لله .

وهكذا تفرق الدين الواحد ثلاث شعب متنافرة ، لا شعبتين فحسب كما كان في جاهلية القرون الوسطى ، حين كان عقيدة وشريعة منفصلتين ، يحكم كلا منهما إله .

ثم حدث بالتدريج تحول آخر ..

صار " الله " نسياً منسيا في قلوب الأوروبيين .

قل سلطانه على المشاعر وسلطانه على السلوك .

وبرز بدلاً منه " الإنسان " !

لقد انهار الإقطاع وجاء على أعقابه – بعد مولد الآلة – الانقلاب الصناعي ، وجاء معه انقلاب في المشاعر والأفكار .

جاء الانقلاب الصناعي في هذه الجاهلية التي لا تعبد الله – إلا من " الظاهر " – فاتسم بسمات الجاهلية الحاكمة .. ولكنه دفعها دفعة جديدة في الطريق .

فلئن كانت عواطف الريفيين ووجداناتهم ترتبط بالله وتعبده – مع إشراك الآلهة الأخرى – لأنهم يتطلعون إليه في إنبات الحب وإنضاج الثمر ومباركة الأرض وحفظها من الصقيع أو الآفات .. فقد كانت عواطف سكان المدينة ووجداناتها – التي تسيطر عليها الجاهلية – لا ترتبط بالله ذلك الارتباط !

إن " الإنسان " هو الذي يقوم بعملية الإنتاج في المدينة ، ولــيس " الله " ! كــذلك ظنــت الجاهلية في الانقلاب الصناعي ، أو كذلك أريد لها أن تكون .

إن الإنسان " بعلمه " هو الذي عرف خواص المادة . وبعلمه اخترع الآلــة التــي تقــوم بالإنتاج ..

والإنسان هو الذي يدير الآلة – ويقفها إذا أراد – وهو الذي يضع فيهــا المــادة الخامــة لتخرج من الناحية الأخرى مادة مصنعة ..

وإذن فالأولى عبادة الإنسان الصانع ، بدلاً من عبادة الله !

وفي تلك الأثناء كانت " الطبيعة " قد فقدت سحرها وألوهيتها في ضمائر الناس !

فمن ناحية لم يعد الفن معنيا بالطبيعة كما كان في الفترة الرومانتيكية السابقة ، وإنما صار – في الفترة " الواقعية " – معنيا بالإله الجديد .. بالإنسان !

ومن ناحية أخرى كشف العلم الغطاء عن كثير من " أسرار " الطبيعة ، وزاد في الوقــت ذاته من سيطرة الإنسان عليها ، فلم يعد لها سلطان !

وبذلك انتقلت الألوهية من الله ، والطبيعة ، وتركزت في الإنسان ..

وفي تلك الفترة قال الإنسان : إنه من العار عليه أن يعبد الله ! من العار أن يعبــد قــوة غيبية لا تدركها الحواس ! مــن العار أن يأخذ من هــذه القوة الغيبية التي لم يرها – ولن يراها – أخلاقه وأفكاره ومشاعره وتقاليده .. من العار أن تشرع له قوة أسطورية لا وجود لهــا فــي الواقع ، فيطيع تشريعاتها طاعة عمياء .. لا يناقش ، ولا ينقد ، ولا يبدي " رأيــه " فــي هــذه الشريعة المنزلة .. منزلة من عالم الأساطير !

لقد شب الإنسان عن الطوق ! لم يعد يليق به أن يصنع ما كان يصنعه في أيام الجهالــة ، أيام الضعف ، يوم لم يكن يعرف حقيقة الكون من حوله ، ولا يستطيع أن يسيطر على البيئــة والطبيعة . لم يعد يليق به أن يعبد الله ، أو يسمع كلام الله ، أو يصيخ لأوامر الله ..

ينبغي أن يضع كل شيء موضع النقد والتمحيص .. والمقياس هو " العقل " الإنساني . فما وافق عليه هذا العقل فهو الصواب الذي ينبغي أن ينفذ ، وما خالفه فباطل وأساطير ..

وينبغي أن يكون الإنسان هو المشرع .. هو الذي يشرع لحياته ، فهو أدرى بنفسه وحاجاته وظروفه المتطورة من ذلك " الإله " الذي كان في القرون الوسطى ، ولم يكن يرى من الأمور إلا ما كان قائماً وقتذاك .

ينبغي أن يصنع الإنسان حياته بنفسه [50] لا شريك له في هذا الوجود !

* * *

ثم مضى الانحراف خطوة أخرى ذهبت حتى بعبادة " الإنسان " !!

ولكن قبل أن ندخل في هذه المرحلة الأخيرة ، القائمة اليوم في ذروة الجاهلية الحالية ، ينبغي أن نلتفت إلى آثار الجاهليات المتعددة في هذه التصورات المنحرفة لحقيقة الألوهية ..

فمن قبل لمسنا أثر الجاهلية اليونانية في إحداث البغضاء والنفور بين الإنسان والله ..

وهنا نلمس أثر الجاهلية الرومانية في الإيمان بما تدركه الحواس وحده ، وإسقاط ما لا تدركه الحواس من الحساب . فما دام الله لا تدركه الحواس ، فلا ضرورة للإيمان به .. والأفضل عدم الإيمان !

ومرة أخرى تعود الجاهلية اليونانية فتبرز في الجاهلية الحديثة وهي تضع " العقل " الإنساني في مركز القداسة ، حتى ليصبح هو الإله الذي يتحكم في وحي الله ، بل في وجود الله ذاته إذا شاء !

تم نتتبع الجاهلية اليونانية مرة أخرى في مشاعر " الصراع " بين الإنسان والله ..

فحين كان الله هو المعبود في أوائل عهد النهضة ، كان الصراع قائماً مباشرة بين الإنسان والله ؛ يخضع الإنسان لله عن جهل وعن ضعف ، فإذا تعلم وتقوى ارتفع في نظر نفسه درجة ،

---

[50] " Man Makes Himself " عنوان كتاب لكاتب أمريكي معاصر اسمه جوردون تشايلد .

وهبط الإله في حسه بنفس القدر ! وكلما تعلم زاد ارتفاعاً وزاد هبوط الإله حتى يجيء اليوم الذي " يخلق " فيه الإنسان الحياة ، فيصبح هو الله !

وحين كانت الطبيعة معبوداً مع الله ، كان الصراع قائماً بين الإنسان والطبيعة ! فالإنسان يحاول " قهر " الطبيعة ! والإنسان " ينتزع " أسرار الطبيعة .. كما كان يصنع بروميثيوس القديم !

فلما صار الإنسان هو المعبود ، ظل الصراع النكد قائماً بين الإنسان والإنسان ! بين الإنسان العابد والإنسان المعبود ! صراع يتمثل في صراع الفرد مع الجماعة . وصراع الفرد مع الدولة . وصراع الفرد مع " القيم " السائدة في مجتمعه . وصراع الفرد مع طاقاته الفردية ذاتها .. في داخل إطار الإنسان !!

* * *

هذه الصراعات الأخيرة بين الإنسان والإنسان .. هي التي ذهبت بعبادة " الإنسان " !!

لقد اكتشف هذا الإنسان – رغم استمراره في التبجح إزاء خالقه ، وإصراره على عدم إطاعته – أنه ليس الإله الحقيقي في هذه الأرض !

إن هناك آلهة أخرى كشف عنها " البحث العلمي " في تاريخ الإنسان ! البحث الذي نجم عن صراعات الإنسان مع الإنسان !

هناك " الحتميات " ..

الحتمية الاقتصادية . والحتمية الاجتماعية .. والحتمية التاريخية .. تتحكم كلها في مصير الإنسان .

إنها " القدر " الحتمي الذي لا يرد .. القدر الذي يسيطر على حياة الإنسان ، وهو مستقل عن إرادة الإنسان .

يقول ماركس : " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس ، تـــراهم يقيمـــون علاقـــات محدودة لا غنى لهم عنها ، **وهي مستقلة عن إرادتهم** . فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هـــو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة . ليس شعور الناس هـــو الذي يعين وجودهم . بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم " .

ويقول إنجلز : " تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه مـــن تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي . فحسب هذه النظريـــة نجـــد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول النـــاس ، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتـــاج والتبادل " .

وهكذا تقوم هـــذه الآلهة – الحتمية – بصياغة حياة الناس وتسيير خطواتهم على الأرض ، دونما اعتبار لمشاعر الناس وأفكارهم ، وسعيهم وراء الحق والعدل الأزليين أو انصرافهم .. إنها آلهة لا تستجيب " لمشاعر " الناس ، ولا تتعامل مع " نفوسهم " كما يستجيب الله للمـــشاعر ويتعامل مع النفوس . ولا حتى كآلهة الجاهليات الأولى – رغم انحرافها ، وصراعها الوحـــشي مع الإنسان – وإنما تسير في حتميتها المرسومة في صرامة آلية مذلة لكرامة الإنسان !

وهكذا ظل " الإنسان " ينحدر في عبادته ويتدهور ! من عبادة الله مع إشراك آلهة أخرى – إلى عبادة الطبيعة – إلى عبادة ذاته ، وما تلا ذلك من صراعات مدمرة – إلى عبـــادة تلـــك الآلهة الجاسية الصارمة الصلبة المستذلة لكيانه ، التي لا يجد في رحابها سوى قسوة الحتميـــة وذلة الهوان !

بئس الجاهلية .. جاهلية القرن العشرين !!

* * *

لقد كان كله انحداراً بلا منطق ، ولا بصيرة ، ولا مبررات !

فحين بدأ الانحراف بإشراك آلهة أخرى مع الله .. لم يكن له سند ولا مبرر !

إن من يعرف الله حق المعرفة لا يمكن أن يقدم على الشرك في أية صورة من صـــوره . ولكن أوروبا التي أخذت عقيدتها ممتزجة بالوثنية الرومانية – على يـــد الإمبراطور قسطنطين – لم تعرف الله في حقيقته العلوية ، وإنما استمرت في جاهليتها .. كل يوم تزداد !

وبعض المؤرخين يميل إلى تفسير انحراف المسيحية عن تطبيق شـــريعة الله – المنزلـــة على موسى وعيسى عليهما السلام – بأنها نشأت في ركن صغير من الإمبراطورية الرومانية ، فلم يكن لها قِبل بفرض سلطانها الحقيقي على تلك الإمبراطورية المترامية الأطـــراف . وذلـــك يفسر جانباً واحداً من جوانب الأمر ، ويغفل الحقيقة الأخرى ، وهي أن العقيدة في ذاتها لم تكن سليمة في تصور هؤلاء المسيحيين .. وإلا فلو كانت سليمة لمـــا وقفـــت قـــوة الإمبراطوريـــة الرومانية في طريقها .. كما لم تقف أمام قوة الإسلام كل قوى الجاهلية فـــي داخـــل الجزيـــرة العربية وخارجها ، بما في ذلك الإمبراطورية الرومانية كلها ، والإمبراطورية الفارســـية إلـــى جانبها . وعلى أي حال فهذه الأسباب تفسر ولا تبرر ! فلا شـــيء فـــي الأرض كلهـــا يبـــرر الانحراف عن منهج الله !

وفد كان هذا الانحراف المبدئي هو المرشح لما تلا ذلك من انحرافـــات .. فمـــا دام فـــي النفس قابلية للشرك ، فكل شيء بعد ذلك هين .. وما دام " هذا " الانحراف قد بدأ فهو الـــسبيل المؤكد لمزيد من التدهور ومزيد من الفساد .

وقد بدأت أوروبا بداية غير موفقة منذ أول لحظة .. ثم استمرت تبتعد عن هدى الله كلما بعد العهد واستطال المسير ..

فلما زادت الكنيسة الأمر سوءًا بحماقاتها المختلفة التي سردنا طرفاً منها من قبل ، كـــان ذلك مرشحاً جديداً لمزيد من الانحراف في العقيدة الأوروبية ، أدت في تدرجها الطويل البطيء إلى جاهلية القرن العشرين .

وذلك – كما قلنا – يفسر ولا يبرر ! فقد أحس الأوروبيون ذات يوم أن ما تقدمه لهم الكنيسة الأوروبية ليس " ديناً " حقيقيا ! وإنما هو بضاعة " أرضية " مصنوعة على يد الكهنة ورجال الدين . بضاعة تشتمل على أشياء لا يفهمونها ، وأشياء لا تحترمها عقولهم التي استنارت بنور العلم الجديد .

ولكنهم بدلاً من أن يطرحوا " هذا " الدين ، الذي تقدمه لهم الكنيسة الأوروبية ممسوخاً على هذا النحو ، ويعودوا إلى العقيدة الصافية كما أنزلها الله على رسله كلهم بالحق .. بدلاً من ذلك أخذوا ينفضون أيديهم من " الدين " كله .. على أنه كله خرافة وأساطير .

وهذا .. لا شيء يبرره ! على الرغم من كل ما تقدمه أوروبا من المعاذير !

* * *

وحين أضافت أوروبا إلى شركها الذي كانت عليه في القرون الوسطى المظلمة عبادة الطبيعة .. فما الذي يبرر .. بل ما الذي يفسر هذا اللون الجديد من الشرك الذي وقع فيه " المتنورون " من الأوروبيين ؟

قلنا من قبل إن ذلك كان مهرباً " وجدانياً " تهرب به أوروبا من إله الكنيسة الذي تستعبدهم باسمه ، وتفرض عليهم ألواناً من السلطان الغشوم .

ولكن .. ما هذه " الطبيعة " ؟

كيف يتأتى " لعاقل " – وقد كان هذا عهد إحياء " العقل " على هدى الهيلينية المعادة – كيف يتأتى لعاقل أن يقول – مثلاً – ما قاله دارون عن الطبيعة : " إنها تخلق كل شيء . ولا حد لقدرتها " ؟!!

كيف يتأتى لعاقل أن يجعل من هذه الطبيعة كائناً – مفكراً أو غير مفكر [51] – يسيطر على الكون ويحدد مقاديره ؟!!

---

[51] يقول دارون – رغم قولته السابقة – إن الطبيعة تخبط خبط عشواء في تطورها !

كيف بدا لهؤلاء العقلاء ألا يسألوا أنفسهم : ما هذه الطبيعة التي يتعبدونها على وجه التحديد ؟! مخلوقة هي أم خالقة ؟ عاقلة أم غير عاقلة ؟ وكيف أنشأت نفسها وأنشأت قوانينها التي تحكم الكون ؟ وأي سلطة لهذه القوانين يسير الكون بمقتضاها ؟ ومن أين لها هذه " الحتمية " التي تفرضها على الكون ؟

ثم .. ما الفرق – في حقية الواقع – بين هذا المعبود الجديد الذي تنسب له القوة والسيطرة والخلق والهيمنة المطلقة على الكون ، وبين الله الذي نبذوه وانسلخوا من عبادته لأنه " غير معقول " و " غير مفهوم " ؟!

وحين أبوا أن يخضعوا لقوة " غيبية " لا يرونها .. فكيف تأتى لهم ألا يسألوا أنفسهم عن هذه الطبيعة : غيب هي أم شهود ؟!! فإن كانت " مظاهرها " مشهودة في السموات والأرض ، والمادة والشعاع ، فما " هي " .. " هي " في كنهها وحقيقتها ؟ " هي " التي تجعل السماء سماء والأرض أرضاً ، والمادة مادة ؟ أليست " هي " غيباً مكنوناً لا تدركه الحواس ؟!

وهل كان " الله " غير ذلك ؟

غيباً لا تدركه الحواس ، ولكن مظاهر قدرته هي السموات والأرض والمادة والإشعاع ؟!!

لقد كانت حماقة جاهلية كبيرة ، تلك التي وقع فيها " المتنورون " من الأوروبيين !

*   *   *

ثم لما بطلت عبادة الطبيعة ، وعبد الإنسان نفسه !!

فيم والله كانت هذه العبادة ؟!!

لأن الإنسان قد تعلم .. وزادت قوته !

ودعك لحظة من الجاهلية المنكرة ، التي تتنكر لخالقها ، الذي وهب لها هذه القدرة على العلم ، لغير سبب سوى أنه وهب لها هذه القدرة ! فبدلاً من أن يشكر الإنسان الله المنعم الوهاب ، على ما أولاه من نعمائه ، تنقلب النعمة ذاتها سبباً للنفور والكفران !

دعك من هذه الجاهلية المسممة بروح الجاهلية اليونانية القديمة ، في صراعها النكد بين البشر والآلهة ، كلما " اغتصبت " من الآلهة قدراً من المعرفة زادت تمرداً عليها بما صار في يدها من سلطان !

دعك من ذلك كله لحظة .. ولننظر ماذا " عَلم " الإنسان حين يتنكر للخالق المنعم الوهاب !

يقول ماريت ستانلي كونجدن – وهو عالم أمريكي معاصر – في مقال له بعنوان " درس من شجيرة الورد " : " إن العلوم حقائق مختبرة ؛ ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته ، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ . وهي تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات كذلك .. وليس باليقين .. ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ؛ ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف ، وليست نهائية " [52] .

هذه قولة " عالم " .. وليست قولة رجل من " رجال الدين " !

العلم البشري كله احتمالات .. لا يقين فيه . مهما أوتي من دقة التجربة ودقة الآلات !

وما ميدان العلم ؟

لقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في " كنه " الأشياء . لأنه " عَلم " ألا سبيل له إلى المعرفة هذا الكنه المغيب عن الحواس ! واكتفى بدراسة " ظواهرها " .. وهذه الدراسة في

---

[52] عن كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

الظواهر هي التي يقول عنها ذلك " العالم " إنها ليست يقينية . وإنها تبدأ بالاحتمالات وتنتهي بالاحتمالات !

فما هذا العلم من " مجموع " العلم الحقيقي ؟! وأين مكانه في النفخة الكاذبة التي أصابت الإنسان ؟!

ثم .. ما هذا العلم بالنسبة لما " يشتهي " الإنسان ذاته أن يعلم ؟!

أين منه علم الغيب ؟ الذي تطلعت البشرية منذ مولدها إلى استشفافه ، ولا يزال موقفها منه اللحظة كموقفها منه منذ ألوف وألوف من السنين ؟

كم يعلم الإنسان من الغيب ؟ لا الغيب البعيد في المكان والزمان .. بل غيب اللحظة القريبة القادمة .. بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب ، وبينه وبينها ألف ستر وألف حجاب ؟!

ذلك مبلغهم من العلم ... !

أما القوة .. فقد زادت قوة الإنسان حقا حتى سيطر على " البيئة " وعلى " قوى الطبيعة " . وفجر الذرة وأطلق الصاروخ .. واندفع يحاول الوصول إلى الكواكب في يوم قريب أو بعيد ..

ولكن ..

أين ذلك مما " يشتهي " الإنسان من القوة ؟

أين هو من الرغبة في دفع الموت ، والقدرة على الحياة الأبدية ؟ تلك الرغبة التي استزل بها الشيطان آدم .. ولا يزال بنوه يتشهونها إلى يوم الدين !

" وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ " .. " فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ... " [53] .

---

[53] سورة الأعراف [20] ، [22] .

بل أين هو من دفع المرض .. وجرثومة لا ترى حتى بالمجهر تسبب له أفتك الأمـــراض التي لا يجد علاجها حتى اليوم ؟!

لقد كان الجهل والعجز هما السبب في عبادة الله .. كذلك يقـــول جوليـــان هكـــسلي فـــي الجاهلية التي ترين على قلبه في القرن العشرين .

فليكن كذلك .. فما الذي حدث – في باب العلم والقوة ، أو في باب الجهل والعجز – يبرر خروج الإنسان عن عبادة الله !!

ثم نعود إلى تلك الجاهلية المقلوبة الأوضاع .. أفإن وهب الله البشر القدرة علـــى الـــتعلم والقدرة على تسخير بعض قوى الكون ، يكون رد البشر على ذلـــك هـــو التـــبجح والغـــرور والخروج عن طاعة الله ؟

إنها اللعنة التي صبتها في الفكر الأوروبي أسطورة بروميثيوس سارق النار .

ونعود إلى ذلك " الإنسان " حين تبجح وقال : أنا أستغني عن الله !

ماذا صنع في حياته من آثام ؟!

قال : أنا أشرع لنفسي . لقد شب الإنسان عن الطوق !

وقال : أنا أصنع بنفسي عقائدي وتقاليدي .

وقال : أنا أصوغ بنفسي الحاضر والمستقبل بعيداً عن وصاية الله .

وكان .. !

وتلقفه الشيطان !

وإلا .. فماذا يكون هذا الصنيع إن لم يكن صنيع الشيطان ؟ ماذا يكون هذا الشر الضارب أطنابه في كل الأرض ؟ ماذا يكون الظلم المستشري في كل مكان ؟ ماذا تكون العبودية المستذلة

في الشرق وفي الغرب ؟ عبودية لرأس المال مرة . وللدولة مرة . وللفــرد المقــدس مــرة . وللشهوات المدمرة مرة . وفي كل مرة هي عبودية ومذلة وهوان ؟

وماذا يكون الفجور المستشري في كل مكان ؟ الذي حوّل وجه الأرض إلى ماخور يغفر فاه لكل فتى وفتاة ؟

وماذا يكون الجنون الحقيقي الذي يملأ المستشفيات بمرضاه في الأمم " المتمدينة " فتضيق بنزلائها ، والجنون الآخر الذي لا يحسب " رسميا " في عداد الجنون ، ولكنه مــرض وشــذوذ واختلال لا يقل في حقيقته عن الجنون : جنون " المــودات " ، وجنــون الــسينما ، وجنــون التليفزيون ، وجنون " التقاليع " .. وما أشبه ذلك من انحرافات لا تنبغي لهــذا " الإلــه " الــذي يستكبر عن عبادة الله !

كلا ! ما أبأس هذا الإنسان حين زعم لنفسه أنه إله ، وأنه شب عن الطوق واستغنى عــن وصاية الله !

* * *

وأخيراً تلك الآلهة المزعومة التي ولدها " الفكر اليهودي " في أواخر القرن التاسع عــشر وتسممت بها أفكار " الأميين " منذ ذلك الحين .. آلهة " الحتميات " الاقتــصادية والاجتماعيــة والتاريخية ، التي يحويها جميعها التفسير المادي للتاريخ .

ما هذه الحتميات المدعاة ؟

يقول التفسير المادي للتاريخ أولاً : إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! وتلك هي الحتمية الاقتصادية الأولى في التاريخ ..

وفي أثناء البحث عن الطعام احتاج إلى اختراع الأدوات .. وهذه الأدوات هي التي نقلت حياته من طور إلى طور عبر التاريخ ..

ففي المبدأ كانت الشيوعية الأولى ، حيث لا ملكية فردية لأحد .. ثم اكتشفت الزراعة ، فنشأت الملكية : ملكية الأرض وملكية أدوات الإنتاج . ونشأ الرق من إغارة قوة على قوم آخرين ليأخذوا منهم أرضهم ، ثم استرقاقهم وتشغيلهم في الأرض . ونشأ الإقطاع . كنتيجة حتمية . ثم اخترعت الآلة . فنشأت الرأسمالية . كنتيجة حتمية . وانهار الإقطاع . كنتيجة حتمية . ثم قام الصراع بين رأس المال والعمال . كنتيجة حتمية . واشتد الصراع على ملكية الآلة وملكية الإنتاج . كنتيجة حتمية . ثم كانت – وفي طريقها أن تكون – الشيوعية الثانية – والأخيرة – حيث لا ملكية فردية لأحد ..

ذلك ملخص التاريخ البشري الذي ترسمه الحتميات ..

ولا يمكن أن نتصور الأمر على هذا النحو إلا الجاهليات !

هذا التفسير الذي أغفل " الله " وتدبيره للكون والحياة والإنسان .. ما الذي وصل إليه ؟

وصل إلى تفسير مبتسر لا يمكن أن يتقبله في ضميره إنسان " متنور " " عاقل " يهتدي حتى بالعلم " الجاهلي " الذي يتعبده الجاهليون ..

فعلى فرض أن ذلك التفسير كله صحيح في رسم أطوار البشرية [وهو – كما سنرى بعد لحظة – غير صحيح] فكيف يكون – كما قال ماركس – مستقلا عن إرادة الإنسان وعن كيان الإنسان ؟

أليس " الإنسان " هو الذي امتلك الأرض وأدوات الإنتاج بعد إذ لم يكن يملك من قبل ؟ هل الأرض هي التي فرضت عليه ملك نفسها ؟! هي التي أمسكته من خناقه وهزته وقالت له : لا بد أن تملكني ؟! أم " هو " الذي امتلكها ؟ برغبته في الامتلاك ؟

ومن الذي اخترع الآلة ؟ أليس هو " الإنسان " ؟

ولماذا اخترعها ؟ بإرادته ؟ أم فرضت هي نفسها عليه فرضاً وأمسكته من خناقه وهزته ، وقالت له : اخترعني ؟!

أو ليست رغبته " هو " في تحسين إنتاجه – الرغبة الفطرية الكامنة فيه – هي التي جعلته يتعلم ويبحث وينقب حتى اخترع الآلة ؟!

فعلى فرض أن هذه الآلة هي التي تكتب تاريخ البشرية .. أليس فيها " إرادة الإنــسان " ؟ فكيف تكون الأطوار إذن خارجة عن إرادة الإنسان ومستقلة عنها ؟

ثم .. حين توجد الرأسمالية .. أليست تستند إلى رغبة " الإنسان " في أن يملك ، ويستزيد مما يملك ، واستعداده الفطري لأن يطغى حين ينحرف عن السبيل ؟

ثم .. حين تقوم الشيوعية – إن قامت – أليس لظن " الإنسان " أن هذا هو الحق والعدل .. الذي سخر منه فردريك إنجلز ، وقال إنه لا يصرّف أمراً من أمور الأرض ؟!

هذه واحدة .. الواحدة القريبة إلى النظر في الحكم على هذه الحتميات ..

والأخرى .. وهي أقرب منها في الحقيقة لمن يتدبر الأمر : هذه " الحتميات " على فرض صحتها .. حتميات من ؟!

من الذي فرض هذه الحتميات على خط سير البشرية ؟

أهي الصورة الوحيدة الممكنة للحياة ؟

أو لم يكن من الممكن أن يظل الإنسان في طور الشيوعية الأولى أبداً ؟

أو لم يكن من الممكن أن يظل في الرق أبداً ؟ وفي الإقطاع أبداً ؟ وفي الرأسمالية أبداً ؟

اختراع الآلة ينقّل خطو الإنسان خلال التاريخ ..

نعم ! مؤقتاً ! .. فهل اختراع الآلة " حتم " على البشرية ؟ ومن الذي حتّمه ؟

وما هذه العماية عن ذكر " الله " ؟!

أو ليس الله طرفاً في هذا الأمر على الأقل ! سبحانه وتعالى عما يصفون ؟!!

أو ليس هو الذي خلق الإنسان ووهب له القدرة على اختراع الآلات ؟!

وهل كان حتماً أن توهب للإنسان هذه القدرة ؟ حتم من ؟ من الذي حتّمه ؟

بل هل كان حتماً وجود الإنسان ذاته على الأرض ؟

بل هل كان حتماً وجود الأرض في الكون ؟

بل هل كان حتماً وجود الكون ذاته ؟ حتم من ؟ من الذي حتّمه ؟

ما هذه العماية عن ذكر الله ؟!

أو ليس الأولى أن يفتح الإنسان بصيرته على الحق ؟!

أو ليس الله هو الذي خلق الكون ؟ ولم يكن مضطراً أن يخلقه .. سبحانه .

أو ليس هو الذي خلق الأرض .. وخلق الإنسان .. وكان من الممكن ألا يخلقهما ، أو يخلق الظروف الملائمة للحياة وظهور الإنسان ؟

ثم .. إذا كان هذا قَدَر الله . الذي خلق .. فكيف نقف في مرحلة معينة ونقول لهذا القدر : لا ! لست أنت ! وإنما هي الحتمية التاريخية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية الاجتماعية أو غيرها من الآلهة المدعاة ؟!

* * *

وفوق ذلك فإن هذه الآلهة المدعاة ، التي ولدها الفكر الأوروبي في " ذروة " جاهليته ، آلهة جاسية صارمة قاسية ، لا تدع مجالاً لإرادة الإنسان ، ولا تستجيب له في ليل أو نهار ..

إنها – في " حتميتها " – الحمقاء – لا تبالي هذا الإنسان .. مشاعره أو أفكاره أو أعماله .. لا تقيم له وزناً إن فسد أو استقام .. إن هبط أو ارتفع .. إن جاهد أو استحذى .. إن آمن أو لم يؤمن .. إنها تعامله على أنه كم مهمل ، كل مهمته أن يسير صاغراً في " حتميتها " القاهرة .. أو تعامله على أنه بهيمة سادرة في الأرض .. تساق . ولا تعرف الطريق . ولا يساوي شيئاً أن تعرف الطريق !

إنه إهدار شنيع لكرامة الإنسان وكيانه .. وأي إهدار أكبر من إضاعة " القيمة " المترتبة على شعوره وفكره وأعماله ؟ " القيمة " التي هي حقيقة " الإنسان " ؟!

وتلك هي " العزة " التي أرادها الإنسان لنفسه بعيداً عن وصاية الله ! أن أصبح عبداً لمن لا يرحم ولا يصيخ لصراخ الإنسان !

ألا ما أبأسه هذا الإنسان .. في جاهلية القرن العشرين !

* * *

ولم يقف " الإنسان " في جاهليته عند هذا الحد ، وما كان من الممكن أن يقف . **فهذا** الانحراف في تصور الحقيقة الإلهية لا بد أن يتبعه حتماً ضلال في كل تصورات الإنسان وسلوكه .. ما دام المتَّجه منذ أول لحظة لا يقوم على أساس سليم ..

لقد انحرف الناس في الجاهلية الأوروبية الحديثة في تصورهم للكون ، وعلاقته بخالقه ، وعلاقته بالإنسان ..

ضلوا ضلالات شتى ..

فمرة يؤمنون " بحتمية " قوانين الطبيعة لينكروا قدرة الله على المعجزات !

ومرة يقولون : إن الوجود كله نشأ نشوءاً ذاتياً ! بما في ذلك الحياة ! لينكروا وجود إله هو الذي خلق الكون والحياة !

ومرة يقولون : إن الظروف كلها كانت معاكسة لنشأة الحياة ، وإنها نشأت في هذا الكون " مصادفة " ! ثم أدت هذه المصادفة في النهاية إلى ظهور الإنسان !

ومرة يقولون : إن هذا الكون موجود بلا غاية ! وكذلك الإنسان !

ضلالات من كل نوع .. تلقي ضلالها على مشاعر الإنسان وسلوكه ، وهي في الأصل ناشئة عن الانحراف في تصور حقيقة الله .

*   *   *

لقد تحدثنا عن الحتميات من قبل ..

ولا تختلف هذه الحتمية " العلمية " التي تسمى قوانين الطبيعة عن غيرها من الحتميات . كلها تضل عن الحتمية الحقيقية الوحيدة في هذا الكون ، وهي مشيئة الله .

وهذه المشيئة الطليقة لا يمكن أن تكون مقيدة .. حتى بمشيئتها ! فكل قيد مفروض على إرادة الله فهو باطل .. فمن الذي يملك أن يفرض إرادته على الله ؟ سبحانه الخالق المنشئ المريد ..

وإنما جاءت الفتنة من " ثبات " السنة الإلهية التي جعلها الله لهذا الكون ، ودوامها مدى الزمان ..

ولكن هذا الثبات – الذي أوجدته المشيئة الإلهية مختارة غير مقيدة – وكان رحمة بالكون ورحمة بالإنسان .. أنه لا يقيد إرادة الله – بداهة – ولا يعجزه – سبحانه – عن التصرف في أمر الكون !

كيف يعجز .. وهو الخالق المنشئ المريد ؟!

لقد قضت مشيئته – الطليقة – سبحانه – أن يجري الكون على سنة ثابتة ، هي التي سمتها الجاهلية الحديثة " قوانين الطبيعة " نفوراً من أن تسميها باسمها الحقيقي .. " سنة الله " .

ولكنه حين يريد – سبحانه – أن يخالف هذه السنة – الثابتة بأمره – فمن ذا الذي يملك أن يقول له : لا ! إن قوانين الطبيعة لا تسمح بالتغيير ؟!

ومن ثم تقع المعجزة ، مخالفة للسنة الظاهرة الثابتة ، وتكون جزءًا من سنة الله كذلك ، التي هي الحتمية الوحيدة في هذا الكون ..

والإيمان بالمعجزة لن يمنع – كما فهم الجاهليون – من قيام العلم ، بقوانينه الثابتة ، ولا من قيام العلم في ظل العقيدة ، وتقدمه في كل ميدان . فلا تعارض على الإطلاق بين هذا وذاك .

لقد قام العالم الإسلامي كله – وهو تراث ضخم يشهد للمسلمين بالبروز والتمكن – ذلك العلم الذي تولدت عنه كل النهضة العلمية الحديثة في أوروبا ، وخاصة المنهج التجريبي الذي تقوم عليه كل العلوم الحديثة .. قام هذا العلم في ظلال العقيدة ؛ في ظلال الإيمان بالمعجزة ؛ بلا تعارض في قلوب المسلمين وتفكيرهم بين الإيمان بحدوث المعجزة والإيمان بثبوت سنة الله في الكون – التي يترتب عليها إمكان قيام البحث العلمي وتتبع نتائج المشاهدات – لأن هذه حقيقة وهذه حقيقة . والحق لا يتعارض بعضه مع بعض إلا في العقول الضيقة التي تعجز عن الشمول .

إن " المشكلة " الكبرى في الذهن الأوروبي الضيق ، هي أنه لو حدثت المعجزة حقا في أي وقت لاضطرب نظام الكون كله ، لأنه كله مترابط بقانون ثابت .. إذا حدث كذا ترتب عليه حتماً نتيجة معينة !

من الذي رتبها ؟ أليس هو خالقها ؟ فكيف يعجز الخالق – حين يريد – أن يرتب عليها نتيجة غيرها في لحظة معينة ، لغاية عليا يريد تحقيقها .. ثم تسير في سنتها " المعتادة " بعد انقضاء هذه الغاية المرادة ؟

ومع ذلك " فالعلم " كله – بما في ذلك قوانين الطبيعة " الحتمية " – كله فروض ، وكله احتمالات ! [54] .

يقول سير " جيمس جينز " العالم الإنجليزي في الطبيعة والرياضيات ، الذي بدأ حياته ملحداً شاكًّا ، ثم انتهى بأنه لا بد لحل مشكلات العلم من التسليم بوجود الله :

---

[54] راجع شهادة العالم الأمريكي " ماريت ستانلي كونجدن " في هذا الفصل ص 78 .

" لقد كان العلم القديم يقـــرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع أن تـــسلك إلا طريقـــاً واحداً : وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفـــي تسلـــسل مستمر بين علة ومعلول ، وأنه لا مناص من أن الحالة " أ " تتبعها الحالة " ب " . أمـــا العلـــم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن : هو أن الحالة " أ " يحتمل أن تتبعها الحالـــة " ب " أو " جـــ " أو " د " أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة " ب " أكثر احتمالاً من حدوث الحالة " جـــ " وإن الحالة " جـــــ " أكثر احتمالاً من الحالة " د " .. وهكذا بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة مـــن الحالات " ب " و " جـــ " و " د " بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما ما يجـــب أن يحـــدث فـــأمره موكول إلى الأقدار .. مهما تكن حقيقة هذه الأقدار ! " .

* * *

أما قصة النشوء الذاتي ، فقد كانت ضلالة عجيبة من ضلالات الجاهلية الحديثة في القرن التاسع عشر وبداية العشرين !

حين أُحرج دارون ، وهو يتتبع مراحل الخلق – إلى الوراء – مرحلة مرحلة إلى نـــشأة الحياة الأولى على ظهر الأرض من الموت ، أُحصر .. ولم يشأ التسليم بالمنطق البديهي الـــذي لا سبيل غيره .. لأنه كان في حرب مع الكنيسة لا يريد أن يعترف بإلهها ! لأنها تحاربه باســـم هذا الإله !

لم يشأ أن يلجأ إلى البديهية التي لا يوجد سواها : أن الله هو الخالق !

وظهرت مـــن ثم هذه الأسطورة الجاهلية ، أسطورة النشوء الذاتي ! التـــي لا تـــستأهل النقاش !

إن علماء القرن العشرين أنفسهم قد بدأوا يشعرون بسماحة هذه الأسطورة السخيفة فأقلعوا عنها !

يقول " رسل تشارلز إرنست " أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

" لقد وُضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات . فـذهب بعـض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيـروس ، أو مـن تجمـع بعـض الجزئيات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء ، وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميـع الجهود الذي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعـين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلـع ، علـى أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يـؤدي إلـى ظهـور الحيـاة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ! فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك إنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

" إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمهـا وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شـاهدة تقـوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيماناً راسخاً " [55]

* * *

أما قصة " المصادفة " ! فلعل الفقرة السابقة المقتطفة من كـلام ذلـك " العـالم " تكفـي لدحضها وبيان سخافتها ! ومع ذلك فنظرة واحدة – بعين مبصرة وقلب متفتح – دون حاجة إلى علم العلماء وتجاربهم ، تكفي لإدراك أن هذا النظام الدقيق المتمثل في دورة الأفلاك – كمثل من أمثلة التنظيم الدقيق الذي يشمل كل شيء في الكون – لا يمكن أن يحدث مصادفة بلا تدبير !

---

[55] مقال " الخلايا الحية تؤدي رسالتها " في كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " .

وفضلاً عن أن " المصادفة " تعبير – في ذاته – غير علمي ، فإنه لا يمكن أن تُحْدِث المصادفة كل هذه الدقة التي لا تختل في دروتها ثانية ولا ثالثة في قياس الزمن ، ولا قيد شبر في حساب المكان ! في بلايين البلايين من السنين التي لا يدركها حصر الإنسان !

* * *

ومن ضلالة " المصادفة " نشأت الضلالة الأخرى التي تقول إن الكون قد وجد بلا غاية ، وكذلك الإنسان !

إنها ضلالة متصلة بالضلالة الكبرى .. ضلالة الانقطاع عن الله !

فما يمكن لقلب موصول بالقدرة الإلهية الخالقة المنشئة المريدة ، أن يلوك في حسه هذه الضلالة العمياء !

إن هذه الدقة المعجزة ذاتها في بناء الكون ، لا يمكن أن تكون عبثاً ! إنها وحدها تشهد بالقصد والتدبير . وتشهد بوجود غاية للوجود .

وقد لا يدرك الإنسان – من تلقاء ذاته – هذه الغاية ، لأنه ، وهو جزء واحد من بنية الكون ، قد يعجز عن الإحاطة بالكل الشامل ، ويعجز عن إدراك دلالاته . ولكن حسبه – حتى في هذا العجز – أن يفتح بصيرته ، فيحس أن هناك بالضرورة غاية وقصداً من وراء هذه الدقة المعجزة التي لا يحيط بكل دقائقها عقل الإنسان .

وقد كانت هذه الضلالة التي تظن أن الوجود بلا غاية ، هي التي أدت إلى الانحراف في تصور الحياة وأهدافها وارتباطاتها .

إن الحياة التي نشأت مصادفة (!) بلا تدبير من خالق مدبر ولا حكمة ، والتي أدت مصادفة إلى خلق الإنسان .. لا يمكن أن يكون لها ارتباطات ولا أهداف ..

يقول دارون : إن الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها ! .. بما في ذلك نشأة الإنسان ، وتطور الإنسان !

ومن ثم تلقي هذ الضلالة ظلها على تصور الإنسان لغاية وجوده وأهداف حياته .

إنها الضياع !

إنها الشقاء الأليم الذي لا يقف عند حد !

إنها المرارة والحسرة .. أو التكالب الذي لا حد له على المتاع !

إنها الصراع اليائس ، الذي لا ينتظر تأييداً من قوة عليا ، ولا سنداً من رب عطوف .. ومن ثم ينقلب إلى صراع وحشي .. صراع مجنون ..

وسنتكلم في الفصل القادم عن الآثار التي تركها هذا التصور المدمر في كيان الإنسان وسلوكه الواقعي ، فرداً وجماعة وجنسين ، وشعوباً وقبائل . ولكنا هنا نتحدث عنه من حيث هو فساد في التصور فحسب .

فحين انقطع الإنسان عن الله ، وانبتت العلائق بينه وبين خالقه ، شرد في الأرض بغير هاد .

شرد .. فلم يستطع أن يدرك غاية وجوده ، ولا مكانه الكريم عند الله ، ولا دوره البارز في هذا الكون .. حتى وهو يتبجح إزاء خالقه فيقول : إنه هو – الإنسان – سيد هذا الكون ومدبر أمره ! إنه يقول هذه الكلمة الفارغة منتفشاً في تبجح إزاء خالقه فحسب . ولكنه ما إن يخرج – في وهم نفسه – من دائرة نفوذ الله ووصايته ، حتى تتلقفه الشياطين ! تتلقفه الآلهة المزعومة – تلك الحتميات ! – تمرغه في الوحل ، وتستذل كبرياءه وتمحق وجوده ، وهو صاغر مستسلم ذليل !

لم يستطع أن يدرك حقيقة نفسه ولا غاية وجوده :

" فالإنسان (في رأي دارون) حيوان كغيره . ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا الإنسانية ، لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديراً أكثر من الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات

الحية الموجودة متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية (!) ومن المسلم بـــه أن الإنسان في والقت الحاضر سيد المخلوقات . ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر " !! [56] .

ومن ثم راح يتخبط في تصوره الحيواني لذات نفسه ، وغاية وجوده .. فهبط بالفعل إلـــى مستوى النملة والفأر !!

ثم لم يدرك أن الحياة لا يمكن أن تنتهي بانتهاء هذه الفترة المحدودة على ظهر الأرض !

إن الصورة لا يمكن أن تكتمل حين نتتهي عند هــذا الحــد .. فالحيــاة – بــصراعاتها ونقائضها ، ومظالمها التي لا تعد – عبث باطل إذا كانت هـــي الأولـــى والأخيــرة ، والبــدء والانتهاء ! عبث لا يتبين فيه الحق من الباطل . عبث يتنزه عنه الإنسان المفكر ذاته ، فــضلاً عن أن يصدر عن إله !

وحين انقطعت قلوبهم عن الله .. حين اقتطعوا الصورة قبل اكتمالها .. حين نظروا فـــي هذا الحيز الصغير المحدود الذي يعيشونه في هذه الدنيا ، بدت لهــم الــصورة – ولا شـــك – مشوهة قائمة ، لا معنى لها ولا دلالة .. فانطلقوا يعوون صارخين : إن الحياة كلها باطل وعبث وفوضى واضطراب ! وانطلقوا يتكالبون في صراع وحشي على المتاع .. فهي فرصة واحــدة زائلة .. من لم يهتبلها اللحظة .. فلا رجوع !

وشردوا كالسائمة .. يصطرعون ويتخبطون .. بلا هــدف ولا غايــة ولا دليــل .. ولا طمأنينة ولا سعادة ولا راحة في هذا الخضم المجنون ...

* * *

والضلالة " الواسعة " الناشئة في أصلها من ضلالة الانقطاع عــن الله ، هـــي تــصور الجاهلية الحديثة للنفس البشرية ، وعلاقة الإنسان بالإنسان . فــرداً ، وجماعــة ، وجنــسين .. وشعوباً وقبائل .

---

[56] جوليان هكسلي في كتاب " الإنسان في العالم الحديث " ص 2 من الترجمة العربية .

لقد ظل الإنسان – على ضلالته كلها وجهالاته كلها – يظن في نفسه أنه إنسان ! .. حتى جاءه دارون يقول له في توكيد " علمي " إنه حيوان !

لقد بعث الله رسله للبشرية منذ مولد الإنسان حتى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .. يؤكدون " إنسانية " الإنسان ، ويجاهدون ليرفعوا الإنسان إلى أقصى ما ترتفع إليه طاقاته ، بموجب هذه " الإنسانية " التي جاءوا يؤكدونها ، وينيرون لها السبيل لتهتدي بهدى الله ، فترتفع وتشف .. وتأتي بما يشبه المعجزات .

ولكن رسول " العلم " في القرن التاسع عشر ، جاء يؤكد حيوانية الإنسان !

بريئاً .. أو غير بريء .. هل كان إلا رسول الشيطان ؟!

إن هذا العلم المزيف الذي " اهتدى " إليه دارون [سنبين زيفه بعد لحظة] قد فعل بالبشرية في جاهليتها الحديثة ما لم تصنعه شياطين الإنس والجن في ألوف من السنين !

حيوان .. ماذا تنتظر من الحيوان ؟!

لقد سرت إيحاءات الداروينية المسمومة في كل مجالات الفكر الغربي .. في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والأخلاق والفن .. لم تترك مجالاً واحداً لم تلحقه بالتشويه !

فما دام الإنسان قد صار في نظر نفسه حيواناً ، فلا بد أن تتبع ذلك نتائج " حتمية " !

والنتائج الحتمية لهذا التصور الجاهل المنحرف ، هي أن تهبط مفاهيم الإنسان وأخلاقه ، ومشاعره وارتباطاته ، حتى تصير في مستوى " الحيوان " الذي صار إليه بفكره ، على هدى التفسير الحيواني للإنسان !

لقد ضلل دارون التركيب التشريحي للإنسان ، القريب الشبه بتركيب الحيوان . ومن ثم سارع – بلا روية – يؤكد حيوانية الإنسان ..

وبريئاً .. أو غير بريء .. لم يكن دارون تحدث عن حقيقة علمية !

لقد كان ينقصه العلم الحق ، الذي تبين طرف منه بعد دارون ، على يد الداروينية الحديثة ذاتها Neo Darwinism التي تؤمن مثله بالتطور ، ويتولى عرضها عالم ملحد صريح الإلحاد مثل جوليان هكسلي ، ومع ذلك فهو يؤكد " تفرد الإنسان " .. لا حيوانية الإنسان !

" وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً . ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جدا . **وفي حالات كثيرة لا مثيل له** . ولا يزال تحليل **تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية** غير تام " [57] .

وإذن فالإنسان متفرد في كيانه البيولوجي ذاته .. الذي ظن فيه دارون المشابهة الكاملة للحيوان ، وبنى عليه تفسير الحيواني للإنسان !

ويسرد هكسلي ألواناً من هذا التفرد البيولوجي ، من بينها أنه في الحيوانات كلها ترتبط العضلات بالمخ بنوعين من الأعصاب ، أحدها يتصل بالعضلات القابضة والثاني يتصل بالعضلات الباسطة . ولا يصدر مخ الحيوان إلا نوعاً واحداً من الإشارات في اللحظة الواحدة ، فإما إشارة للعضلات القابضة وإما إشارة للعضلات الباسطة ، فالكلب إما أن يهرش وإما أن يجري في اللحظة الواحدة ، ولا يستطيع أن يهرش ويجري معاً في ذات الوقت . أما الإنسان ، فهو – وحده في هذه الخلائق كلها – الذي يستطيع أن يقوم بأعمال متعارضة في آن واحد ، لأن مخه يستطيع أن ينسق بين الأعمال المتعارضة ! [58] .

ويتحدث هكسلي عن " خواص " الإنسان البيولوجية فيقول :

" وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً ، قدرته على التفكير التصويري ، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية ، فقل : استخدامه الكلام الواضح ..

" ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ..

---

[57] جوليان هكسلي – الإنسان في العالم الحديث – ص 3 من الترجمة العربية .

[58] المصدر السابق ص 27 – 29 .

" ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت – من أهم مظاهره الحقيقية مـــا يقـــوم بـــه الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ..

" وإن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية . وهذه **السيادة البيولوجية** في الوقت الحاضر خاصية أخرى من **خواص الإنسان الفذة** . ولم يتكاثر الإنسان فحسب ، بل تطور ، ومد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله في الحياة .

" وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان " .

" ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى ، **التي لا مثيـــل لها بين المخلوقات الأخرى** ، ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتـــى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً ، **لأن الجنس البشري – كنوع – فريد في صفاته البيولوجية الخالصة** . ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق ، سواء من وجهة نظر علم الحيوان ، أو من وجهة نظر علم الاجتماع .

" ... وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره " [59] .

وهكذا تعلن الداروينية الحديثة تفرد الإنسان – لا عن إيمان بالله ، فهكسلي ملحد متـــبجح بإلحاده – وإنما عن مشاهدة " علمية " " تجريبية " " معملية " " حسية " **!** .

ولكن دارون تعجل – بلا سند علمي – فأعلن حيوانية الإنسان **!** لأن العلم الناقص الـــذي كان بين يديه أوحى له بالتفسير الحيواني للإنسان . وكان أحرى به أن يصبر ، حتى يتكشف له الأمر **كما تكشف للداروينية الحديثة** ، ليعلن إنسانية الإنسان .

وحين انطلق هذا التفسير الحيواني للإنسان ، كالشيطان المارد يجـــوس خـــلال الأفكـــار والتصورات .. فسدت كلها فساداً لم تصل إليه أية جاهلية من جاهليات التاريخ .

---

[59] المصدر السابق مقتطفات من ص 3 – ص 6 .

لقد مسخت حياة الإنسان مسخاً ، فردته أدنأ من الحيوان ، وأضل من الحيوان .

التفسير المادي للتاريخ ..

التفسير الجنسي للسلوك ..

التفسير الجثماني للمشاعر ..

وكل تفسير إلا التفسير " الإنساني " للإنسان !

التفسير المادي للتاريخ ، وبطله ماركس – وقد مر بنا طرف منه – يفسر الحياة الإنسانية كلها من خلال حيوانية الإنسان . تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ! أي أن الضرورة القاهرة هي المسيطرة على حياة الإنسان .

الإنتاج المادي هو الذي يعين للناس وجودهم ومشاعرهم ! اي أن القيم المعنوية عرض زائل – لا جوهر – والجوهر الأوحد هو الكيان المادي للحياة والإنسان .

وفضلاً عن ذلك فقد أخذ هذا التفسير عن الداروينية فكرة التطور ، فحولها إلى لوثة تصيب كل القيم وكل الاعتبارات ..

فالقيم المعنوية لأنها عَرَض للقيم المادية ، فهي " متطورة " لا تثبت على حال . ليس هناك حق أزلي ولا عدل أزلي . إنما هناك قيم متغيرة على الدوام . ما يبدو اليوم فضية – لأنه انعكاس طور اقتصادي ومادي وإنتاجي معين – قد يبدو رذيلة غداً حين يتغير الطور الاقتصادي والمادي والإنتاجي . وليس هذا مجرد فرض . وإنما هو " حقيقة " !!

فالتدين فضيلة في الطور الإقطاعي . وفي الطور الصناعي يصبح التدين تأخراً وجموداً ورجعية ! والإلحاد هو الفضيلة ! والعفة الجنسية فضيلة في المجتمع الإقطاعي . وفي المجتمع الصناعي " المتطور " تصبح العفة الجنسية أضحوكة وسخرية ، لأن المرأة استقلت اقتصاديا !! ولم يعد الرجل هو الذي ينفق عليها فيستذلها بطلب النظافة في الشعور والسلوك !! والرجل بدوره " تحرر " من القيود ولم يعد ملزماً أن يتطهر في شعوره وسلوكه .. لأن الإله الجديد –

سواء كان رأس المال في الغرب أو " الدولة " في الشرق – لا يطالب أحداً ، ولا يعنيه ، أن يتطهر الناس أو يفسقوا بل يعنيه الأمر الأخير !

إنه تفسير يأخذ الإنسان من جانبه المادي الحيواني ، ويتحاشى أن يذكر " روحه " . بل يصر إصراراً على السخرية من هذه الروح .. لأن الجاهلية الحديثة لا تؤمن بالله . ولا تؤمن بالنفخة العلوية في كيان الإنسان من روح الله .

* * *

والتفسير الجنسي ، وبطله فرويد .. ضلالة أبشع .

إنه لا يكتفي بتصوير الإنسان حيواناً ، وإنما يصوره حيواناً ممسوخاً مشوهاً ، ينبع كله من طاقة واحدة من طاقاته .. هي الطاقة الجنسية .

الحيوان يأكل بلذة الأكل . ويشرب بلذة الشرب ، ويجري بلذة الجري . ويمارس النشاط الجنسي بلذة الجنس .

ولكن إنسان فرويد – او حيوانه المشوه الممسوخ – يرضع بلذة الجنس . ويمص إبهامه بلذة الجنس . ويتبول ويتبرز بلذة الجنس . ويحرك عضلاته بلذة الجنس . ويعشق أمه بلذة الجنس .. ثم لا يكتفي بهذا الحد ، وإنما يكون كيانه " المعنوي " كله من دين وأخلاق وتقاليد ، نابعاً كذلك من حمأة الجنس المسعور !

* * *

والتفسير الجثماني للمشاعر ، وبطله " التجريبيون " [60] .. يفسر الحياة كلها من خلال الجسم ... كالحيوان !

فالمشاعر والأفكار نشاط كهربي وغُدِّي وكيماوي ..

غدة الجنس تصنع مشاعر الجنس .

---

[60] كان " وليم جيمس " رائد المدرسة التجريبية في علم النفس .

وغدة الأمومة تصنع مشاعر الأمومة .

وغدة الكظر [فوق الكلى] تصنع الشجاعة [أو الجبن] .

والغدة الدرقية تصنع المزاج العصبي أو المزاج المعتدل .. أو المزاج البارد ..

الجسد هو الذي يتحرك دائماً في مبدأ الأمر .. ثم ينتج عن ذلك مشاعر وأفكار .

يقول وليم جيمس في كتابه " نظرية العاطفة theorie de L′emotion ص 60 .

" إن الفكرة التي نتخذها عن العواطف عادة ، هي أن الإدراك العقلي لشيء ما ، يستثير الحالة الوجدانية التي نسميها العاطفة ، وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التي يتولد عنها التعبير الجسدي . ولكن نظريتي ، على العكس من ذلك هي أن التغيرات الجسمية تأتي لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر ، وأن الإحساس الذي نشعر به نتيجة لهذه التغيرات [الجسمية] هو العاطفة " !

من الجسد إذن تنبع النفس .. وليست " النفس " أصلاً جوهريا في كيان الإنسان !

* * *

ولقد ناقشت هذه التفسيرات – وأمثالها – كثيراً من قبل ، في أكثر من كتاب . [61] ولا ضرورة بنا للنقاش المفصل لبيان زيفها ، وضآلة الجانب الذي تفسره من حياة الإنسان . ولكننا نكتفي بإشارات عابرة تنوّر الطريق :

إن هذه التفسيرات جميعها ترتكب ضلالة مشتركة .. إنها تفسر الإنسان من جانب واحد من كيانه : هو أضأل الجوانب في ذلك الكيان ! تفسره من جانب الجسد وضروراته ، متأثرة في ذلك بالتفسير الحيواني للإنسان .

---

[61] الإنسان بين المادية والإسلام . معركة التقاليد . دراسات في النفس الإنسانية . التطور والثبات في حياة البشرية .

وفضلاً عن أن أية نظرة جزئية للإنسان ، هي نظرة خاطئة لأنها تهمل بقية كيانه ، ومن ثم تعطي عنه صورة مزيفة لا وجود لها في الواقع .. ويزيد الأمر سوءًا حين تفسر الحياة البشرية كلها من خلال هذا الجزء وحده ، ومن خلال تلك الصورة المزيفة ..

فضلاً عن ذلك ، فإن الجانب الذي أهملته هذه التفسيرات كلها هو بالذات الجانب الذي أعطى الإنسان إنسانيته ، وفرّقه عن الحيوان !

إنها جميعاً تهمل جانب الروح أو تلغيه !

فالتفسير المادي للتاريخ ، الذي يجعل البحث عن الطعام هو رائد تفكير الإنسان ..

والتفسير الجنسي للسلوك ، الذي يجعل الجنس هو رائد حياة البشرية ..

والتفسير الجثماني للمشاعر ، الذي يجعل الجسد هو منبع النفس ..

كلها – وأمثالها – لا تدع مكاناً للروح في كيان الإنسان أو في واقعه الحي على ظهر الأرض . وتصوره جميعاً في نطاق الحيوان .. ثم لا تفسر : لماذا إذن اختلف واقعه في الأرض عن واقع الحيوان ؟!

إن الحيوان يبحث عن الطعام .

والحيوان يمارس كذلك نشاطه الجنسي .

وتصرفات الحيوان وسلوكه نابعة كلها من كيانه الجسمي .

فلماذا اختلفت صورة الإنسان عن الحيوان ، ولماذا اختلف طريقهما في الحياة ؟

* * *

لقد عميت هذه التفسيرات كلها عن " الواقع " البشري المشهود .

أم لعلها قصدت قصداً – تدفعها دوافع شيطانية خبيثة – إلى تصوير الإنسان في صـــورة الحيوان ؟! [62] .

أيًّا كان الأمر ، فقد كانت هذه التصورات الزائفة عاجزة عن تفسير " الإنسان " .

إنها لا تستطيع أن تفسر : لماذا يبدأ الإنسان من أي لون من ألوان نشاطه : من البحــث عن الطعام ، أو البحث عن الجنس ، أو البحث عن السكن ، أو البحث عن الملبس .. فإذا هو – من أي طريق بدأ – يصل إلى " تنظيمات " اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وإلـــى " قـــيم " و " عقائد " و " أفكار " " ؟

لماذا لا يستطيع أن يقوم بعمل من أعماله منفصلاً عن " القيمة " المرتبطة بهذه الأعمال ؟

لماذا لا يأكل " بمعدته " وحدها . وإنما عن طريق تنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي – فاسد أو غير فاسد ، هذه قضية أخرى – يعطيه قسطه من الطعام ، ويرتب على هذا القــسط ، وعلى طريقة تناوله نتائجه " الحتمية " في نظام الحكم ونظام المجتمع وعلاقات الناس بعــضهم ببعض ؟

لماذا لا يمارس الجنس بكيانه الجنسي وحده . وإنما عن طريق تنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي – فاسد أو غير فاسد – يعطيه قسطه من الجنس ، ويبين له طريقة تناولـــه ، ويرتـــب على ذلك نتائجه الحتمية ؟

وهكذا .. كل نشاط يصدر عن الإنسان ، فإنه – رغب الإنسان أم لم يرغـــب – ينتهـــي بتنظيمات وقيم وأفكار وعقائد – فاسدة أو غير فاسدة – ولكنها موجودة على أي حال .. وهـــي النتيجة " الحتمية " لامتزاج الروح بالجسم في كيان الإنسان .. امتزاجاً لا " يتفكك " أو ينفــصل كما تصوره تلك التفسيرات [63] ..

* * *

---

[62] انظر فصل " اليهود الثلاثة " في كتاب " التطور والثبات " .

[63] " دراسات في النفس الإنسانية " فصل " طبيعة مزدوجة " .

إنها – كلها – تفسيرات زائفة زائغة مهزولة ..

وكلها جاهليات .. تنشأ من الجاهلية الكبرى المنقطعة عن هدى الله ، والتي تتعمد تعمداً أن تفسر الحياة بعيداً عن الله ، فتقع في هذه التفاهات وهذه الجهالات ..

ومع ذلك فلم يكن هذا هو الانحراف الوحيد الذي انحرفته الجاهلية الحديثة في فهمها للنفس البشرية ..

لقد كان الانحراف – حتى الآن – ماثلاً في تفكيك الإنسان المكون من جسم وروح ، وخنق روحه – لأنها تتعلق مباشرة " بالله " الذي تفر منه الجاهلية وتنسلخ من آياته – وإبراز جانبه الجسدي وحده ، وتفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال هذا الجانب المفرد ، الذي لا وجود له في حقيقة الواقع في صورته المجزأة المفكوكة !

ولكن الانحراف لم يقف عند هذا الحد ..

فحين انقطعت الجاهلية عن منهج الله ، فقدت حاسة " التوازن " في كل تصوراتها ، تلك الحاسة التي يكتسبها الحس الإنساني حين يتصل بمنهج الله ، ويفسر الكون والحياة والإنسان على هداه .

ومن فقدانها التوازن اختلت موازينها وهي ترى ظاهرة الفردية والجماعية في كيان الإنسان !

فبعض الجاهليين ركز على حقيقة الفرد .. وبعضهم ركز على حقيقة المجموع . كل منهما ينفي الجانب الآخر ، أو يصغر من قيمته إلى أقصى حد !

إما أن تكون حقيقة الإنسان هي الفردية .. فالمجتمع إذن قوة طاغية ظالمة تحاول أن تضغط كيان الفرد وتحطم وجوده !

وإما أن تكون حقيقته هي الجماعية .. فالفرد إذن ظالم متبجح دنس يحاول أن يخرج على المجموع ليحقق بأنانيته الظالمة كسباً حراماً على حساب المجموع !

ولا يجتمع الجانبان قط على توازن واعتدال في تصور الجاهلية الحديثة .

ثم تنشأ على كل من هذين التصورين المنحرفين نظم في السياسة والاقتصاد والاجتماع (64)

لماذا ؟!

لماذا لا ترى الجاهلية حقيقة الواقع ؟ أن الإنسان مركب من الجانبين معاً على توازن واعتدال ؟ فهو فرد مستقل ، وعضو في المجتمع في ذات الوقت . فرد يحب أن يشعر بذاتيته ويحققها . وعضو في المجتمع ، يحب الاجتماع بالآخرين ، ويهفو إلى صحبتهم ، ويأنس إلى الوجود بينهم ؟

حقيقةً إنه كثيراً ما يقوم الصراع بين الجانبين .. ولكن هذا لا ينفي (أولاً) أنهما موجودان معاً في الواقع الخارجي وفي داخل النفس . ولا ينفي (ثانياً) أن الصراع بينهما يمكن أن تخف حدته إلى أقصى حد ، حين يستقيم منهج الحياة .

* * *

ولكن الجاهليات قد أبت أن تصيخ للمنهج الحق .. منهج الله ..

ونشأ عن ذلك ألوان لا حصر لها من الفساد في التصور والسلوك .. ولكننا هنا – في هذا الفصل – مشغولون فقط بفساد التصور ، نتتبعه في كل مجال ..

لقد نشأ من انحراف الجاهلية في تصور النفس البشرية .. الناشئ في الأصل من انحرافها عن عبادة الله .. أن فسدت تصوراتها للعلاقة القائمة بين الإنسان والإنسان ، فرداً وجماعة وجنسين ، وشعوباً وقبائل ..

فأما الفرد – فيما بينه وبين نفسه – فقد صُوِّر على أنه مجموعة من الصراعات التي لا تهدأ ، ولا يمكن ان تهدأ ! بل زادت الجاهلية فباركت هذا الصراع أحياناً على أنه الوسيلة المثلى

---

(64) سنناقشها كلها في الفصل القادم .

للتقدم والرقي والنشاط الإيجابي في الأرض ، وأن الطمأنينة النفسية والسكينة سلبية مريضة ينبغي أن يترفع عنها الإنسان ! وورد في تعبيراتهم أن " القلق المقدس " هو الذي يدفع بالحياة إلى الأمام .. ! ولقد ظل هذا القلق المقدس (!) يدفعهم حقا .. ولكن إلى الحيرة والاضطراب والجنون وضغط الدم والاختلالات العصبية والنفسية .. حتى ضاقت بهم مستشفيات الأمراض العقلية والعيادات النفسية . واعتبر الجنون من " أمراض المدنية ! " والاختلال من سمات " الحضارة " !

كلا ! إنها الجاهلية .. فالنشاط الحيوي الدافق شيء ، والقلق شيء آخر !

ولقد كان المسلمون الأوائل في صدر الإسلام أنشط جماعة بشرية عرفها التاريخ ! الفتح الذي شمل الأرض من المحيط إلى المحيط في أقل من نصف قرن .. الحركة العلمية الفائقة .. التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. المذاهب الفكرية في تفسير كتاب الله وتطبيقه في واقع الجماعة ، التي نشأت عنها مدارس الفقه المختلفة الغنية بالأصالة والحركة والنشاط .. كل ذلك وغيره تم في فترة لا مثيل لها في القصر . وكان الناس أحياء متحركين ، ولكن في طمأنينة نفسية وسكينة . لأنهم كانوا يتوجهون بعملهم كله ونشاطهم كله إلى الله ، فتطمئن قلوبهم بذكر الله .

وأما الفرد – فيما بينه وبين المجتمع – فقد صُوِّرت علاقته على أنها الصراع الدائم والتطاحن الذي لا يهدأ ولا يمكن أن يهدأ ! وأنشئت على ذلك " تفسيرات ! " للحياة وللإنسان ، أبرزها وأشدها جاهلية التفسير المادي للتاريخ ، الذي يجعل الصراع " حتمية " لا سبيل إلى الفكاك منها أو تلطيف آثارها ..

وهو ليس صراعاً بين " الحق " و " الباطل " .. كما ينبغي أن يكون الحال في عالم " الإنسان " الذي كرمه ربه وعلاه ..

كلا ! إن الجاهلية لا تعرف " الحق والباطل " .. فهي تسخر أيما سخرية من الحق والعدل الأزليين ! وإنما ترى الأمر صراعاً دائماً بين مصلحة طبقة ومصلحة طبقة أخرى ، لا تقوّم

بالميزان الأخلاقي ، ولا يقال لها حق وباطل . و لا يقال فيها إن هذه الطبقة أو الطائفة أو الفرد قد طغت لأنها تجاوزت " الحق " أو اعتدت على حدود الله التي بينها للناس .. وإنما كل طبقة على حق بالنسبة لذات نفسها ! وينشأ الصراع " الحتمي " من تناقض المصالح الذي لا بد أن ينشأ " حتماً " فيهدم النظام الذي بطلت منفعته (لمن ؟) لا للبشرية ولا للحق والعدل الأزليين ، ولكن للطبقة التي أبرزها التحول الاقتصادي الجديد !

وحقا إن هذا هو الذي يحدث بالفعل .. في الجاهلية ! تتصارع المصالح ، والغلبة لصاحب السلطان ! ثم تتم الغلبة – في تصور الجاهلية الماركسية – لطبقة " البروليتاريا " في آخر الأمر ، فتمحق جميع الطبقات ! وتكون هذه هي نهاية العالم !

وأما علاقات الجنسين فإن الفساد الذي أصابها كان أشنع فساد !

الجنس عملية " بيولوجية " لا علاقة لها بالأخلاق !

الجنس لا علاقة له بالأسرة !

الجنس هو التحقيق – الأكبر – لكيان الإنسان !

الجنس هو الموضوع – الأكبر – للفن !

الجنس هو " التحرر " !

الجنس مزاج شخصي لا يوصف بالشذوذ والاستواء . فمن أعجبه الوضع السوي فهو وشأنه ، ومن أعجبه الشذوذ فهو وذاك !

إلى عشرات من أمثال هذه الجاهليات ، التي تعمى كلها عن حقيقة الجنس ، ودوره الطبيعي " المتوازن " في حياة الإنسان . ثم تؤدي إلى الفوضى الجنسية على أوسع نطاق شهده تاريخ الإنسان !

* * *

وأما الشعوب والقبائل ، المنحرفة عن منهج الله ، فقد تصورت علاقاتها في إطار الغلبة والسيطرة على طريقة الحيوان . لا التقاء بينها إلا على الصراع .. وحين تلتقي ففي حدود الأرض " القومية " كما تلتقي البهائم على حظائها ، أو في حدود الجنس أو العنصر .. أو " المصلحة " المشتركة . ولا تلتقي قط – كما خلقها الله – على حقيقة " الإنسان " والمبادئ التي تليق بالإنسان !

* * *

تلك ألوان من التصور الجاهلي لعلاقات الإنسان ..

ولعل من الخير أن نختم الحديث عن الجهالية بالنفس البشرية – حقيقتها وعلاقتها – بفقرات من كتاب ألكسيس كاريل " الإنسان .. ذلك المجهول " ، وهو العالم المعاصر ، الذي يكتب من وحي " العلم " لا من وحي " الدين " :

" وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه .. ولكن بالرغم من أننا نملك كثيراً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء ، وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمنة ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . **إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ..**

" **وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة .**

" **فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب " .**

ثم يعود فيشرح أثر هذا الجهل المطبق بحقيقة الإنسان على الحياة البشرية ، الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والفكرية .. الخ ، فيقول :

" وإن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهودات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ..

" وهؤلاء النظريون بينوا حضارات – بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان – إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوشة للإنسان .

" يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية .. إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا وعقلياً .. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها .. ! " [65]

* * *

هذه خلاصة الفساد الذي أحدثته الجاهلية الحديثة في تصورات الإنسان .

إنها لم تترك مجالاً من مجالات التصور بلا فساد .. وقد نشأت كلها من الانحراف الأعظم .. الانحراف عن عبادة الله .

وقد ظنت الجاهلية الحديثة – أكثر من أي جاهلية مضت – أن الدين مزاج شخصي لا علاقة له بواقع الحياة ، لأنه علاقة بين العبد والرب . وكان هذا – في ذاته – انحرافاً جاهليا في

---

[65] تعريب شفيق أسعد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت . ص 43 – 44 .

التصور . ولكن الواقع الذي شهدته أوروبا ، وشهده العالم الذي غلبت أوروبا عليه ، أن فـــساد العقيدة ، والانحراف عن عبادة الله ، لم يقبع في داخل الضمير الفردي كما ظنـــت الجاهليـــة ، وإنما ألقى ظله على كل مناحي الحياة البشرية ، فلم يبق منها شيء لم يصبه الانحراف الفاســد بالفساد .

إن انحراف العقيدة لا بد أن يفسد الحياة . لأن العقيدة ليست صلة بين العبد والرب منقطعة عن حقيقة الواقع . وإنما هي المشير الذي يوجه الحياة .. فحين يوجهها منذ البدء فـــي طريـــق فاسد ، فلا بد أن يصيبها الفساد كلها ، وتذهب كلها شاردة في التيه ..

ولقد رأينا كيف أفسد انحراف العقيدة تصورات البشرية .. ولكنه لـــم يكـــن فـــساداً فـــي التصور وحده ! إنما هو – بصورة حتمية – فساد في التصور .. وفساد في السلوك .

وفساد في السلوك

حين انحرفت الجاهلية الحديثة في عبادتها لله ، فلعلها لم تكن تتصور أن انحراف العقيدة سيؤثر حتماً في تصوراتها للكون والحياة والإنسان ! بل إنها – منذ البدء – لم تكن ترى في عملها ذلك انحرافاً عن الصواب !

" إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ " [66] .

ولكنا رأينا في الفصل السابق كيف تسرب هذا الانحراف في العقيدة إلى كل تصورات الجاهلية ، فصارت كلها تصورات فاسدة لا تستقيم على منطق ، ولا تهتدي إلى حق ، وإنما تسيرها الأهواء ، حتى في ذات " العلم " التجريبي ، الذي يظن كثير من الناس – بوحي الجاهلية – أنه بعيد كل البعد عن الأهواء ، وأنه المحك الصادق الذي يرجع إليه في المور كلها ، فيبين الحق من الباطل .. بلا تحير ، ولا ارتياب !

ولقد رأينا شهادات من " العلماء " أنفسهم تبين ما في هذا الاعتقاد من زيف ، وتبين أن العلم لا يقطع – ولم يقطع قط – بحقيقة يقينية ! وأنه مجرد احتمالات ! وأنه يخضع لأهواء البشر وتصوراتهم ! وذلك كله فوق أنه لا يدرس إلا " ظواهر " الأشياء !

ولكن قوماً حسبوا – بتأثير الجاهلية كذلك – أن " التصورات " قد تنحرف ثم يستقيم " السلوك " .. في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والفن .. لأن " النظريات " شيء و " التطبيق " شيء آخر .

النظريات تحكمها أفكار الناس أو أهواؤهم . ولكن التطبيق العملي يحكمه " الواقع " و " التجربة " وتقوم عليه التنظيمات التي تصحح منه ما يفسد أولاً بأول . فيصلح ويستقيم !

---

[66] سورة الأعراف [30] .

" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ **أَعْمَالاً** ، الَّذِينَ ضَلَّ **سَعْيُهُمْ** فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ **يَحْسَبُونَ** أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً " (67) .

وقديماً قال القائل : " وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟! " .

* * *

إنه وهم آخر من أهام الجاهلية !

وهمٌ يغري به ما يقع في هذه الجاهلية من خير ظاهري ، وعدالة جزئية تصيب بعض الناس في بعض الأمور ! فيظنون أن الأمور كلها على ما يرام !

ولقد أبرزنا من قبل كيف أن الجاهلية – أي جاهلية – لا يمكن أن تخلو من نفع يخدع الناس فيحسبون أنه خير ! وهو خير زائف لأنه لا يستمد من معين الخير الحقيقي ، ولا يسير على الطريق الواصل ! وابرزنا كذلك أن فتنة هذه الجاهلية الحديثة هي الضخامة في الحصيلة العلمية ، والضخامة في تيسيرات الحياة التي تخدع الناس بصورة الخير الظاهري ، حتى ليخيل إليهم أن الخير هو الغالب ، وأن الأمور على ما يرام !

ذلك أنهم – بوسائل شيطانية ضخمة كذلك – قد ضُللوا عن حقيقة الشر الذي يعيشون فيه !

ولو أدركوا ضخامة هذا الشر ، ومقدار الفساد الذي يحدثه في واقع حياتهم ، لأدركوا أن كل " الخير " الذي تطنطن به الجاهلية الحديثة لتواري سوآتها .. لا يزيد على فتات ! وأنه خير ضائع في خضم الشر الذي تمور به الأرض .. بل لأدركوا أن الحياة البشرية ذاتها – حياتهم – مهددة بالدمار من ضخامة هذا الشر وعنفوانه ، وضخامة تمكنه من الحياة الواقعية للناس !

إن هذا الشر ليس في شيء دون شيء !

---

(67) سورة الكهف [103 – 104] .

إنه ليس في " الفساد الخلقي " وحده ، كما يظن الذين يدافعون عن الجاهليـة الحديثـة ، ويحاولون أن يهوّنوا من شرورها ، بأنها محصورة في " شيء " من التحلل الخلقـي ، ولكـن الحياة في بقية الميادين سليمة ، بل رفيعة ، بل رائعة ! .. بل هي القمة التي لا مطمع لطـامع بعدها في مزيد !

كلا ! إنه شر شامل .. يشمل كل مناحي الحياة !

وسنبين بالتفصيل في هذا الفصل كيف امتد الفساد وكيف فعل : في السياسة . والاقتصاد . والاجتماع . والأخلاق . وعلاقات الجنسين . والفن . في كل شيء على الإطلاق .

ولكنا قبل هذا التفصيل نذكر حقيقة بديهية – أو ينبغي أن تكون كذلك : أنه لم يكـن فـي الإمكان أن تفسد التصورات كلها على هذا النحو .. ثم يستقيم السلوك .

كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

إن الجاهلية الحديثة – بوسائل إعلامها الضخمة التي تتزايد – عن عمد – كـل يـوم – حاولت أن تصرف الناس عن انحرافات التصور ، بأن تصور لهم السلوك الواقعي الذي يعيشونه على أنه قمة الصواب !

فإذا ساور الناس شك في بعض الأمر .. أن هذا يخالف ما قال به " الله " . أو ما يقـضي به " الحق والعدل " . أو ما تقتضيه " الأخلاق " . سارعت الجاهلية بالجواب الجـاهز ، تذيعـه بكل ما تملك من وسائل الإعلام ..

إنه التطور ... !

ألا تعلم ذلك ؟! هل أنت غافل عن التطور ؟ هل أنت لا تعيش في القرن العشرين ، بعقلية القرن العشرين ؟! أم ماذا ؟! أم أنت رجعي ؟! يا للداهية السوداء ! كل شـيء إلا الرجعيـة !! اوع !! إن كل شيء في الوجود محتمل ، إلا أن تكون رجعيا في القرن العشرين !!

* * *

بهذه الوسائل – الضخمة – التي تملكها الجاهلية الحديثة .. بوسائل الإعلام ، من صحافة ، وإذاعة وسينما وتليفزيون .. تحطم الجاهلية كل محاولة لبيان ما في هذه الجاهلية من شر ضخم متكتل يخنق أرواح الناس !

يكفي أن تطلق هذه القذيفة في وجه كل إنسان يريد أن يرد الناس إلى الحق ، ويوقظهم إلى انحراف واقعهم :

الرجعية ... !

ويكفي أن تضع هذا السلاح في يد كل مقاتل يعمل لقتل الحق والخير والعدالة :

التطور ... !

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد " البسيط " رغم خطورته .. إنما تقوم الجاهلية بتعقيد الأمر حتى يختلط الحق بالباطل ، ويختلط الأمر على المظلومين أنفسهم فيحسبون أنهم يعيشون في عدالة ! والمضللين أنفسهم فيحسبون أنهم مهتدون ! والواقع بهم الشر فيحسبون أنهم في خير عميم !

إن هذه الجاهلية أوعر وأخبث وأعنف جاهلية مرت بالبشرية في التاريخ !

* * *

ولكن الأمر – مع ذلك – لا يستعصي على البيان !

إن الواقع له ثقله . والحق له ثقله ..

إنه لا يمكن لأية جاهلية – مهما أوتيت من سلطان – أن تحجب الحق إلى الأبد عن الناس .

ولقد بدأت البشرية فعلاً تفيق من هذه الجاهلية كما سنتبين في أثناء الحديث .

بدأ قوم – متفرقون – يحسون بعظم الشر الذي تحدثه الجاهلية في حياة الناس .

ولن تكون المهمة سهلة .. ولن تكون سريعة المفعول . فعلى قـدر ضـخامة الجاهليـة وضراوتها ستكون معركة الحق مع الباطل ، ويكون الجهد المطلوب .

ولكن شيئاً معيناً ينبغي أن نعرفه ونؤمن به : إن ضخامة الباطل لا تقلبه حقا ! وضخامة الشر لن تحوله إلى خير !

وفـي اطمئنان لهذه الحقيقة نمضي في بيان الفساد الذي أحدثته الجاهليـة الحديثـة فـي السلوك ، كما بينا من قبل الفساد الذي أحدثته في التصورات .

ولئن كان فساد التصور قد شمل تصور الإنسان للحقيقة الإلهية ، وتصوره للكون والحياة والإنسان ، وارتباطاتها كلها بعضها ببعض ، فالفساد في السلوك قد شمل مناحي الحياة كلهـا ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن .. ولكل من هذه بيان .

في السياسة ..

هذا العصر هو عصر " التحرر " .. ومع ذلك فقد شهد أبشع دكتاتوريات التاريخ !

في وقت من الأوقات كان الإقطاع هو السائد في أوروبا .. وكان يستعبد الناس للأرض عبودية حقيقية . بمعنى أن الإنسان لا يحق له أن يغادر الأرض إلى أرض أخرى ، وإلا اعتبر آبقاً . ورده " القانون " بالقوة إلى الأرض التي أبق منها ، موسوماً مكويا بالنار ، لأنه تجرأ فخرج على " الإله " الصغير صاحب الإقطاعية الذي يستعبده لنفسه ويربطه كذلك بالعبودية للأرض . وكان صاحب الإقطاع هذا هو الذي يحدد للعبد الذي يزرع الأرض المقدار الذي " يحوزه " من الأرض ليعيش عليه . ولكنها حيازة غير كاملة . فهي أشبه بالأرض المحددة للبهيمة ترعى فيها الحشائش لتعيش ، وتدر اللبن والسمن ، وليس لها أن تتجاوزها ، لأنها مربوطة فيها بالقيد .

" ونظام الإقطاع عبارة عن أسلوب من الإنتاج الصفة المميزة له هي التبعية الدائمة Serfdom . ويعرفونه بأنه نظام في ظله يلتزم المنتج المباشر نحو سيده أو مولاه بأداء مطالب اقتصادية معينة ، سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها ، أم على شكل مدفوعات (أو استحقاقات) يؤديها نقداً أو عيناً .

" ولتوضيح ذلك نقول إن المجتمع الإقطاعي كان ينقسم إلى طبقتين :

" الأولى وتشمل ملاك الأبعاديات الإقطاعية " .

والثانية وتتكون من المزارعين على اختلاف مراتبهم . فمنهم الفلاحون والعمال والزراعيون والعبيد ، وإن كان عدد الآخرين ظل يتناقص باطراد وسرعة . فهؤلاء الفلاحون ، أي المنتجون المباشرون ، لهم الحق في حيازة مساحة من الأرض يعتمدون عليها بوسائلهم في

كسب معاشهم وإنتاج ما يلزمهم من أسباب العيش ، كما يمارسون في بيوتهم الصناعات البسيطة التي تتصل بالزراعة . ولكنهم مقابل ذلك يلزمون بأمور عدة مثل الخدمة الأسبوعية في أرض الشريف مع آلاتهم وماشيتهم ، والخدمة الإضافية في المواسم الزراعية ، وتقديم الهدايا في الأعياد والمناسبات الخاصة ، وعليهم كذلك أن يطحنوا غلالهم في المطاحن التي يقيمها الشريف وأن يعصروا كرومهم في معصرته .

" وكان الشريف يمارس أمور الحكم والقضاء . **أي أنه يشرف على تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية بالنسبة لأهل منطقته .**

" ... غير أن هذا المنتج المباشر في ظل النظام الإقطاعي لم يكن حرا بالمعنى الذي نعرفه فيما بعد ، فهو لا يملك الأرض ملكية كاملة ، ولا يستطيع التصرف فيها بالبيع والتوريث والهبة . وكان يؤدي أعمال السخرة في أرض الشريف الخاصة رغماً عنه وضد مصلحته . وعليه أن يؤدي ضريبة – غير مدودة المقدار – اعترافاً بعلاقة التبعية ، وهو ينتقل مع الأرض إذا ما انتقلت هذه من يد إلى أخرى . وليست له الحرية المطلقة في مغادرة مكان العمل أو الالتحاق بخدمة سيد آخر . فهو إذن يمثل حلقة متوسطة بين العبد في العصور القديمة والمزارع الحر في العصر الحديث " [68] .

تلك هي الصورة البشعة التي كانت تعيشها أوروبا في جاهلية العصور الوسطى ، بحراسة الكنيسة الأوروبية لهذه الأوضاع ! وهي الصورة التي لم يعرفها العالم الإسلامي – قط – وهو مسلم ! رغم كل ما أصابه من انحراف جزئي في سياية الحكم والمال ! فقد كانت شريعة الله النافذة – ولو جزئيا ! – في واقع الأرض ، تحول دون هذا الظلم الكافر الذي لا يحكم بما أنزل الله ، وإنما يحكم " بعدالة " القانون الروماني الشهير .. !

وجاء الوقت الذي آذن فيه الإقطاع بالإنهيار . لا لأن ضمير أوروبا أوجعها ! فضمير الجاهلية لا يوجعها قط ! ولكن – حسب التفسير المادي للتاريخ – وهو صادق أشد الصدق في

---

[68] عن كتاب " النظام الاشتراكي " تأليف راشد البراوي .

تفسير جاهلية البشر عبر التاريخ – انهار الإقطاع لأن " طوراً " اقتصاديا جديداً نشأ على مولد الآلة .

الطبقة الصاعدة – بحكم التحول المادي – تهدم الطبقة التي أدت دورها – بحكم الظروف المادية – وأصبحت " واجبة " التحطيم ، ومن ثم " حتمية " الانهيار !

وهذا التحول **المادي – الطبقي** ، لا مكان فيه للحق والباطل في رأي زبانية التفسير المادي للتاريخ !

إن الإقطاع لا ينهار – أو لا ينبغي أن ينهار – لأنه ظالم ، وإنما لأنه أدى دوره المادي – الطبقي . والنظام الجديد – أي نظام جديد – لا يقوم – أو ينبغي أن يقوم – لأنه يمحو الظلم الماثل ، ولكن لأن دوره المادي – الطبقي قد حل . أي أنه حلت " حتميته التاريخية " !

ولا تفرق المادية التاريخية بين " الطور " الاقتصادي الناشئ من تعديل أساليب الإنتاج ، وبين " الطبقة " التي تحكمه ، وتستغله ، وتكون هي سيدته . لأنه في الجاهلية – الواقعية والتفسيرية معاً – لا يحكم الناس بما أنزل الله ، وإنما يحكمون بأهوائهم ، ومن ثم تكون " الطبقة " المالكة هي الحاكمة المسيطرة المستغلة . ويتبادل الناس الظلم على مدار " الأطوار " !

ولا تستطيع الجاهلية – الواقعية أو التفسيرية – أن تتصور حالة ينتقل فيها الاقتصاد من طور إلى طور – انتقالاً طبيعيا بحكم ما يطرأ على أساليب الإنتاج من تغير علمي – دون أن يكون فيه استغلال من طبقة لطبقة . لأنهم – في جاهليتهم الطويلة المستمرة – لم يذوقوا قط كيف يكون الحكم بما أنزل الله ، وكيف يصرّف هذا الحكم الأمور بالحق والعدل ، بصرف النظر عن الطور الاقتصادي ، لأنه ليس مقصوراً على طور دون طور ، وليس مفصلاً على قد حالة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية معينة . وإنما هو مفصل على قد " الإنسان " . أيّاً كان طور " النمو " الذي يصل إليه الإنسان .

* * *

أيّاً كان الأمر . فقد انهار الإقطاع الأوروبي على مولد الآلة . وبدأ تحـول جديـد فـي المجتمع .

احتاجت المصانع إلى عمال . ولا مورد لهم إلا من الريف . فلزم إذن تحطـيم الإقطـاع الذي يربط الفلاحين بالأرض ، ليتمكنوا من " التحرر " من ربقة الأرض ، والانتقال من الريف إلى المدينة حيث العمل الجديد [69]

وتحرر الناس فعلاً مـن عبودية الأرض ، وانتقلوا من عبودية الريـف إلـى " حريـة " المدينة .

هكذا خيل إليهم في بادئ الأمر !

خيل إليهم أنهم قد حطّموا القيود كلها التي كانت تكتفهم ، وأنهم اليوم طلقاء ، يصنعون ما يشاءون ! ذلك أنهم – وهم ينتقلون من طور جاهلي إلى طور جاهلي آخر – لم يكونوا بعد قـد رأوا قيود العبودية الجديدة التي تتربص بهم ، وتنتظرهم حتى يصلوا – بأرجلهم – إليها !

يقول التفسير المادي للتاريخ إن " الطبقة " الجديدة التي خلقتها الآلـة ، وانتقـال عمليـة الإنتاج من صورته الإقطاعية إلى صورته الرأسمالية ، هما اللذان أحدثا العبودية الجديدة التـي أخذت تضيق حلقاتها رويداً رويداً حتى أطبقت على أنفاس الناس .

ولكن الأمر أعمق من هذا الوجه الظاهر الذي يقرؤه التفسير المادي للتاريخ ، ويزعم أنه قد وصل به إلى اللباب . وأنه وصل به إلى الإعجاز في التفسير !

إن حقيقة الأمر أن الجاهلية الجديدة – التي لا تحكم بما أنزل الله في ظل الرأسمالية – هي مجرد امتداد للجاهلية القديمة التي لم تكن تحكم بما أنزل الله في ظل الإقطاع .

---

[69] هكذا يقول التفسير المادي للتاريخ . ويغفل أن الفلاحين قد بدأوا يثورون في أوروبا في القرن الثالث عشر على هذه العبودية الظالمة بحكم " الفطرة " التي قد تصبر طويلاً على الظلم ولكنها تلفظه ذات يوم بالضرورة ، ولو لم يكن هناك أي تحول في أساليب الإنتاج . فعندما بدأت حركة " فرار الفلاحين " في القرن الثالث عشر لم يكن " الطور " المادي الجديد قد ولد بعد .

إنها شهوة واحدة " متطورة " وهوى واحد يتتبع المنفعة على حساب " الكادحين " .

إنه الطاغوت الذي يوجد في كل جاهلية . ويتحكم في الناس بهــواه . مــا دام النـــاس لا يحكمون بما أنزل الله !

ولقد وجد هذا الطاغوت في العالم الإسلامي ولا شك .. بمقدار ما انحرف النـــاس عــن منهج الله . ولكنه لم يستطع ، والناس يحكمون بشرع الله – ولو على فساد ! – أن يستشري كم استشرى في أوروبا حتى يقلب حياة الناس إلى جحيم .

لم يحدث في الإسلام الإقطاع الذي حدث بصورته البشعة في أوروبا . وكان الإسلام حريّاً كذلك أن يحد من طاغوت الرأسمالية كما حد من طاغوت الإقطاع من قبــل ، مــا دام النـــاس يحكمون بشرع الله ، ولو على فساد جزئي ! [70]

ولكن .. فلنعد إلى أوروبا . إلى الجاهلية المتصلة الحلقات .

لم يكن الذي حدث " تطوراً اقتصاديا حتميا " – كما تتصوره الجاهلية الماركسية . وإنمــا كان الطاغوت ينقّل خطاه عبر التاريخ ، فيستتغل التطور الجديد في أساليب الإنتـــاج ليواصـــل طغيانه ، واستعباده للناس .

ولم يكن ذلك حتماً .. إنما كان فقط نتيجة طبيعية للظروف القائمة .. أو أنه كان حتماً من وجهة واحدة : فما دام الناس لا يحكمون بما أنزل الله ، فالبـــديل الوحيــد هـــــو أن يحكمهـــم الطاغوت ، ويذيقهم العبودية والهوان .

وليس يمنع أن الطبقة الرأسمالية الصاعدة قد تصارعت مع الطبقة الإقطاعيـــة المنحـــدرة لتأخذ منها السلطان .. ليس يمنع ذلك أن يكون الطاغوت هو الحاكم في الحـــالين ! فالطـــاغوت ليس شخصاً معيناً بذاته ، أو طبقة معينة . إنما الطاغوت سلطان غاشم ، يتلقفه من يتلقفه مـــن الناس فيستعبدون به سائر الناس .. وقد يصطرعون فيما بينهم عليه حتى يخلص في يـــد الفئـــة

---

[70] راجع في كتاب " الشبهات " فصل " الإسلام والرأسمالية " .

التي تخدمها الظروف الاقتصادية . كما اصطدمت قريش مع غيرها من القبائل – الضالة مثلها – في الجزيرة حتى خلص لها وحدها سلطان الطاغوت ، وصارت – بظروفها الاقتصادية – هي التي تملك وتحكم ، وتستعبد الناس بشتى فنون الاستعباد !

والتفسير المادي للتاريخ لا يفسر إلا ظروف انتقال السلطة من الطاغوت إلى الطاغوت ! ولكنه لا يتعمق في التفسير ليعلم أسباب وجود الطاغوت ذاته ، ويعلم أنه ليس حتمي الوجود في الأرض .. إذا أراد الناس !

إنه تفسير جاهلي .. يفسر الجاهليات !

* * *

لم تكن العبودية الجديدة واضحة السمات في مبدإ الأمر .. إنما كان الوجه الظاهر هو التحرر .

تحرر العمال من ربقة الأرض ..

وتحرر الشعب من ربقة الإقطاع ..

وحدثت تحولات سياسية واجتماعية تتسم بطابع التحرر .. تحولات اسمها : الديمقراطية !

والواقع أن الجاهلية الجديدة قد أتاحت قدراً من التحرر النسبي ، وقدراً من الخير النسبي ، ضلّل الناس كثيراً عن العبودية الحائقة بهم بالفعل ، التي كانت تستعبدهم – رويداً رويداً – للطاغوت الجديد .

حين تأخذ شخصاً لم يكن يملك أن يغادر أرضه بصورة قانونية ، وتشده القيود المادية والمعنوية إلى الأرض .. وحين تأخذ شخصاً يفرض عليه المجتمع الذي يعيش فيه قيوداً أخلاقية معينة (سواء كانت صالحة أو فاسدة) لا يملك أن يخرج عليها وإلا قوبل بالاستنكار من الجميع (ولو كانوا لا يؤمنون في دخيلة أنفسهم بقيمة هذه القيود !) .. وحين تأخذ شخصاً يركبه

سلطان الكنيسة المطبق فلا يملك الخروج عليه وإلا عد مارقاً من الدين ، وحقت عليه لعنة اللاعنين ..

حين تأخذ هذا الشخص وتقذف به إلى المدينة ، يتجول حرا في طرقاتها بلا رقيب .. ويعيث فيها فساداً خلقيا – أو تحرراً – دون رقيب .. وينخلع من سلطان الكنيسة دون أن يحفل الاتهام بالمروق ..

حينئذ لا بد أن يشعر أنه تحرر !

على أن الأمر كان يشتمل على حريات حقيقية لم يكن لها وجود من قبل .

حرية التنقل . حرية العمل . حرية الاجتماع . حرية الكلام . حرية الصحافة .. وضمانات لم يكن لها وجود من قبل ..

ضمانات الاتهام . وضمانات التحقيق . وضمانات القضاء .

حريات وضمانات حقيقية .. لا بد أن يشعر معها المرء أنه تحرر !

ثم .. البرلمان ..

انتخابات " حرة " .. تمثيل شعبي .. حكومة تمثل " الشعب " .. وتحكم بإرادة الشعب !

لا بد أن " الإنسان " كله قد تحرر !

* * *

كانت تلك هي " الأوهام " المعسولة التي عاشت فيها الجاهلية الجديدة في عصر الرأسمالية !

ظاهرها كله جميل .. جميل إلى حد لا يوصف !

ويجيء العلم والتقدم المادي فيكمل الصورة .. إن " الإنسان " لم يتحرر من عبودية الأرض فحسب . ولا من قيود الأخلاق فحسب . ولا من سلطة الكنيسة فحسب . ولا أصبح له

سلطان نيابي وتشريعي فحسب .. وإنما هو يتحرر كذلك من " الجهد " .. فالعلم والتقدم المـادي يطلقان الطاقة البشرية المكبلة بالعمل ، ويحمّلان الآلة كثيراً مـن الجهد الذي كـان يقـوم بـه الإنسان .. لينطلق هذا الأخير خفيفاً ، ناشطاً ، متطلعاً بطاقته المذخورة إلى الحياة !

ولسنا هنا نتكلم عن أيٍّ من الانحرافات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الفكريـة التي صاحبت هذه الجاهلية الجديدة ، إنما نحن الآن نتحدث عن " السياسة " وحدها (وإن كانت الحياة في واقع الأمر متشابكة مترابطة ، لا توجد فيها السياسة منفصلة عن الاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتفكير .. الخ ، لأن النفس البشرية والحياة البشرية لا تتجزأ ولا تنفصل .. ولكننـا نقوم بهذا الفصل لضرورة البحث فقط .. من أجل التوضيح) .

في السياسة لم تصخ الجاهلية الجديدة – المنفلتة من سلطان الكنيسة (وسلطان الله) – إلى أنها وهي تحكم " بإرادة الشعب ! " إنما تحكم بوهم لا وجود له في الواقع ! وأنهـا – وهـي لا تحكم " بما أنزل الله " – فليس أمامها إلا طريق واحد .. هو أن تحكم بإرادة الطاغوت !

" إرادة الشعب " كانت الوجه الظاهر المزيف للجاهلية الجديدة ..

و " إرادة الطاغوت " كانت الوجه الحقيقي لهذه الجاهلية النكراء !

وصدق التفسير الجاهلي للتاريخ ، وهو يفسر تاريخ الجاهليات : الطبقة التي تملـك هـي التي تحكم . وهي تحكم لصالحها على حساب بقية " الطبقات " !

فمن وراء هذه التشكيلات كلها .. الانتخاب والبرلمان والحكومة البرلمانية والدسـتور .. إلخ ، كان يحكم الطاغوت !

ولم تكن الأمور واضحة في مبدأ الأمر كل الوضوح ..

كان " الطيبون " المخدوعون في الجاهلية الجديدة يحسبون أنهم يبنون الحياة على نـسق فاضل ، صاعد ، رفيع .. جدير بكرامة " الإنسان " !

وكانت " المظاهر " تملى لهم في هذا الظن ..

أو ليسوا هم – الشعب – هم الذين ينتخبون ممثليهم ؛ وممثلوهم هؤلاء لا بد أن يـــشرعوا بإرادتهم ، ولصالحهم ؟

ولكن الحقيقة أن الذي كان يحكم هو طاغوت رأس المال ..

ولقد أصبحت القضية اليوم معروفة بصورة لا تحتاج إلى كثير بيان .. فقــد قيــل عــن الرأسمالية في السنوات الأخيرة في كل بقاع الأرض – وبجميع وسائل الإعلام – ما يكفي لبيان شرورها وطغيانها وفسادها . وبيان مدى استغلالها لسلطان الحكم في تنفيذ مآربها الخاصـــة ، وامتصاص دماء " الكادحين " .. وتحولها في نهاية الأمر إلى الإرهاب السافر .. ضد المطالبين بالحرية الحقيقية ، والعدالة الحقيقية ، وانتزاع السلطان من الطاغوت ..

وتلك أمثلة " خفيفة " .. تكفي !

" وإنا لذاكرون ما حدث في الإضراب العام بانجلترا عام 1926 إذ سيرت الحكومة كــل قواها لقمعه . وأعلن قانون الرأسماليين أن الإضراب غير دستوري ، وزحفت فصائل الشرطة وكتائب الجيش لقمعه ، تحميها الدبابات وسخرت شتى وسائل النقل لكسر الإضراب ، ودعـــى الشبان من طلبة الجامعات لقيادة مركبات النقل العامة ، واستخدمت الإذاعة والصحف ، وجعلت الحكومة من نفسها خادماً لأصحاب الأعمال ، وتهددت النقابات باستــصفاء أموالهـــا وســـجن زعمائها .. " .

ذلك في إنجلترا .. أم الديمقراطية .. والكلام على لسان رجل إنجليزي .. لا رجــل مــن أعداء الإنجليز [71] .

أما في أمريكا فالأمر أبشع .. فهناك عصابات من " البلطجية " المحترفين تعمل في خدمة " الديمقراطية " لتأديب الخارجين على سلطان رأس المال ، وسجنهم وتعذيبهم ، وقتلهم أحياناً إذا لزم الأمر :

---

[71] هنري نوبل برايلز فورد . ترجمة عصام الدين حفني ناصف .

يقول هارولد لاسكي في كتاب " تأملات في ثورات العصر " :

" ومن الضروري أن يقرأ المرء تفاصيل وثيقة مثل تقرير لجنة " لافلوت " التي عينها مجلس الشيوخ الأمريكي لبحث موضوع التدخل في الحريات المدنية ليصل إلى وجهة نظر صحيحة عن مدى ما بلغه هذا التدخل .

" وإن الرشوة والجاسوسية والتهديد و " البلطجة " وسوء الاستغلال المتعمد للقضاء في أعلى مراتبه ، وفي المحاكم الاتحادية الثانوية .. هذه كلها ليست سوى أشكال وفئات من التصرفات التي تعودها زعماء رجال الأعمال في أمريكا .

" وإن أكثر الاتحادات الصناعية الكبرى هناك ، لتملك جيوشها الخاصة المسلحة بالبنادق السريعة الطلقات ، وقنابل الغازات المسيلة للدموع ، لتمنع النقابيين من غزو مصانعها !

" وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مناطق في الولايات المتحدة مثل " لويزيانا " في عهد سناتور " لونج " ومثل " جيرسي " في عهد العمدة " هاج " ومثل الوادي الإمبراطوري في " كاليفورنيا " .. كل هذه البقاع – وهذه أمثلة منها – لم يكن فيها لإعلان الحقوق الأمريكي سلطة إزاء إصرار رجال الأعمال على جمع كل الامتيازات في أيديهم بواسطة حيازتهم المطلقة لقوى الاقتصاد .

" وفي اعتقادي أننا لا نغالي في حكمنا إذا قلنا إنه حتى سنة 1940 كانت الفكرة الفاشية قد توغلت عميقاً في أذهان رجال الأعمال الأمريكيين تحت ستار قبولهم الظاهري للمبادئ الديمقراطية .. " [72] .

على أن الأمر – في أمريكا – لا يحتاج إلى شهادة الكتاب والمؤلفين .. فقد وصلت روح " البلطجة " بالرأسمالية الأمريكية إلى حد أن ترتكب جرائمها عياناً في وضح النهار ، في أغرب قضية اغتيال في التاريخ : حيث قتل الرئيس الأمريكي كنيدي إرضاء للرأسمالية الوالغة في الدماء – التي كانت تخشى أن يؤدي اتجاه كنيدي السلمي إلى تخفيف حدة التوتر العالمي ،

---

[72] تأملات في ثورات العصر – هارولد لاسكي – ترجمة عبد الكريم أحمد ص 184 .

وبالتالي إلى تحويل الصناعة عن الإنتاج الحربي إلى الإنتاج المدني ، الذي لا يحقق الأرباح البشعة التي يحققها الرأسماليون من صناعة الحرب ! – ومن ثم قتلت كنيدي في وضح النهار ، ثم عبثت بقضية اغتياله عبثاً شائناً لا يحدث في أمة بدائية ! وعملت بكل الوسائل على تلهية الناس عن القضية والتحقيق !!

وهذا كله غير جرائم الرأسمالية الأخرى ، في إفساد الأخلاق ، وفي التحكم في أرزاق الناس ، وفي التوسع الاستعماري لاستعباد شعوب الأرض و . و ..

إنها حقيقة واحدة بارزة . هي أن " الديمقراطية " المزعومة قد تحولت إلى " دكتاتورية " رأس المال . تحولت إلى طاغوت يستعبد الناس ويذل له الرقاب !

* * *

ولا تصدق الجاهلية أن هذا وقع بسبب الانحراف عن منهج الله ! فهي من الأصل لا تعرف منهج الله ولا تعترف به ، وتعيش حياتها منقطعة عن الله ووحيه ، ولا ترى الأمور إلا في نطاقها الضيق المحصور في صراع الأرض ، وصراع المصالح ، وصراع الطبقات ..

لا تصدق الجاهلية أن الله – سبحانه وتعالى – حين حرم – في منهجه الرباني – الربا والاحتكار .. كان يعلم من أمور الناس ما لا يعلم الناس . وكان يريد لهم من الخير ملا يعرفون هم أنه الخير .. وكان يضع لهم المنهج الذي تتوازن فيه المصالح ، ويقوم فيه العدل ، ويمتنع الطغيان .

وهنا – في باب السياسة – لا نتحدث عن الربا بالتفصيل ، فمكان ذلك هو الحديث عن الاقتصاد . ولكنا نقول فقط : إن دكتاتورية رأس المال الطاغية ، التي أذاقت البشرية ويلاتها ، لم تكن لتقوم أصلاً لولا الربا والاحتكار ، عمادا الرأسمالية وسنادتاها ، وهما هما المحرمان في منهج الله ! فالحكم بما أنزل الله إذن كان هو السبيل إلى الحيلولة بين الطاغوت ورقاب الناس ، في عالم السياسة والاقتصاد سواء .

* * *

ثم نمضي خطوات أخرى مع التاريخ ..

فحين اشتد طغيان رأس المال . فزع الناس .. وقاموا يصارعون .

ولكنهم – وهم يصارعون – كانوا ما يزالون في الجاهلية ، بعيداً عن منهج الله . ومن ثم فإنهم وهم يتفلتون من قبضة الطاغوت في عسر شديد وحرج بالغ ، لم يفيئوا إلى الظلال الندية والظلة المريحة بعد طول العذاب .. وإنما تلقفهم – على مقربة منهم – طاغوت آخر ، لا يخفي وجهه بالديمقراطية هذه المرة ، وإنما يسفر عن وجهه واضحاً ، فيسمي نفسه منذ البدء " دكتاتورية " البروليتاريا .

من دكتاتورية رأس المال ، إلى دكتاتورية البروليتاريا !

من الطاغوت .. إلى الطاغوت ! بعيداً عن منهج الله !

والتفسير الجاهلي للتاريخ يدور دورة واسعة مع الأسباب والنتائج ، وصراع المتناقضات الحتمي ، ليصل إلى تفسير الشيوعية وحتميتها التاريخية في هذه اللحظة .. ثم يحلم – وهو التفسير " الواقعي ! " – على دخان لا يفترق كثيراً عن دخان الحشيش والأفيون – باليوتوبيا المقبلة في ظل " دكتاتورية البروليتاريا " ، وبالنعيم الأرضي الموعود ، بعد تذبيح جميع الطبقات ليخلو الجو " لطبقة " البروليتاريا !

* * *

يحدث صراع حتمي بين العمال ورأس المال ..

لا باسم الحق والعدل لأزليين – اللذين يسخر منهما فردريك إنجلز – ولكن باسم حتمية صراع المتناقضات !

وتحاول الرأسمالية أن تسحق طبقة العمال بكل وسائل السحق ، التشريعية والقضائية والتنفيذية .. ولكن الحتمية لا بد أن تقع في النهاية ، ويتغلب العمال ، ويستولوا على السلطة ،

ويقيموا دكتاتورية البروليتاريا ، التي تلغي الملكية الفردية لأدوات الإنتاج ، وتحل محلها الملكية الجماعية ، وتمحق الطبقات التي – كانت – مستغلة ، وتقيم حكمها لصالح البروليتاريا (لا لأن ذلك هو الحق والعدل ! ولكن لأنها أصبحت هي الطبقة الحاكمة !!) فتأخذ من كل بقدر طاقتــه وتعطي كلا بقدر حاجته .. ثم .. في النهاية تذوب الدولة ذاتها وتصبح غيــر ذات موضــوع ، ويتحقق عندئذ النعيم الموعود .. على دخان الحشيش والأفيون !

وبصرف النظر عن مجموعة " الأساطير " التي يحملها التفسير الجاهلي للتاريخ في هــذا الموضوع .. إذ تنبأ ماركس بقيام الشيوعية في انجلترا أول ما تقوم لأنها كانت – في نظــره – أعلى دولة مصنعة في أوروبا ، حيث " يتحتم " في نظره أن يقوم الصراع الذي يؤدي إلى تسلم العمال السلطة وسحق الرأسمالية ، بينما قامت الشيوعية في الواقع في أكثر مناطق العالم تأخراً من الناحية الصناعية – روسيا ثم الصين ! – وبقيت انجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة في القرن العشرين بعد تنبؤات ماركس بثمانين سنة ! بالإضافة إلى " تخريفات " التنبؤ بالمستقبل البعيــد الذي تمحى فيه الدولة وينعدم السلطان ، وينقلب الناس إلى ملائكة مطهرين لا يثور في قلــوبهم غل ولا مطامع ولا شهوات !! وبالإضافة إلى أن التجربة العملية في الشيوعية قد ارتدت فـــي أربعين عاماً فقط من حكمها عن كثير من مبادئ اللينينية الاستالينية ، إذ أباحت قسطاً من الملكية الفردية – في حدود – وأباحت التفاوت في الأجور ، وصارت تندد بضعف الإنتاج في المزارع الجماعية مما يوحي بعزمها على إرجاع الملكية الفردية للأرض .

بصرف النظر عن هذه الأساطير كلها ، فإننا هنا نتحدث عن الجانب السياسي وحده مــن الموضوع . نتحدث عن " دكتاتورية " البروليتاريا .

لا نحتاج نحن أن نتكلم !

يقول خروشوف في تقرير اللجنة المركزية أمام المــؤتمر الثــاني والعــشرين للحــزب الشيوعي :

" فيما مضى ، في عهد الفرد [أي في عهد ستالين] انتشرت سمات فاسدة في قيادة الحزب والدوالة والاقتصاد . هي القيام بإصدار الأوامر ، وطمس النقائض ، والعمل بحذر ، والخوف من الجديد وفي تلك الظروف ظهر عدد قليل من المتملقين والمهللين والمموهين " .

وليس ببعيد عن ذاكرة الناس ما وصفت به الصحف الروسية ستالين – بعد أن مات ! – من أنه – سفاح . قاتل . مجرم . خائن للمبادئ الاشتراكية .. الخ .

إن الدكتاتورية – في دكتاتورية البروليتاريا – تصل في عنفها وقساوتها ووحشيتها إلى أقصى ما يصل إليه خيال الإنسان ..

الاعتقال – إلى غير مدى محدد – والتعذيب الوحشي الذي تنفر مشاعر " الإنسان " حتى من تصوره . والمحاكمات الصورية التي تنتهي بالإعدام أو السجن مدى الحياة .. كلها إجراءات " عادية " تمارس على نطاق واسع مع كل من تحدثه نفسه بالخروج على " الزعيم المقدس " وسلطانه الذي يجري بلا حدود .

والحكم البوليسي ، الذي يقوم على الجاسوسية والإرهاب ، هو الوسيلة " العادية " لحكم الدولة .

والرعب الدائم ، المذل لكرامة الإنسان ، هو الوضع " العادي " للفرد .

وذلك كله ، تحت ستار مظهري ، من " الانتخابات " والمجالس النيابية ، والتمثيل الشعبي ، ومجالس السوفييتات .. وما لا أول له ولا آخر من العنوانات !

والصحافة – الحرة ! – تقوم بتمجيد الزعيم " الأوحد " – في حياته ! – ثم تقوم بلعنه والبصق على وجهه – بعد موته ! – بأمر الزعيم الأوحد الجديد .

تلك صورة الحياة – السياسية – في ظل دكتاتورية البروليتاريا .. تنتقل بحذافيرها إلى كل منطقة تسود فيها ، لأنها الصورة " العادية " لهذا النوع من الحكم ، الذي لا يمكن أن توجد له صورة سواها في أي مكان !

* * *

والطيبون .. أو السذاج البسطاء .. الذين يأخذون الأمور من سطوحها ، والذين هم – قبل ذلك – يعيشون في جاهلية فكرية تمنعهم من رؤية الحقيقة ورؤية العلاج ..

هؤلاء يظنون .. ويتمنون على الله (!) .. أنّ في الإمكان إصلاح هذه الأنظمة الفاسدة من الحكم ، سواء دكتاتورية رأس المال أو دكتاتورية البروليتاريا ، – بـ " رشّ " قليل من " الحرية " و " الديمقراطية " فوق كل منهما ، فإذا هي غاية المرام ونوال المأمول !

أولئك يعيشون في الجاهلية الفكرية – بعيداً عن منهج الله وهداه – فلا يرون آثار الجاهلية المفسدة في هذه الأنظمة كلها ؛ وأنها لا بد أن تقوم على الطاغوت ، لأنها لا تقوم على منهج الله ، ولا تحكم بما أنزل الله .

إن المشكلة في هذه الطواغيت ليست مشكلة سطحية قابلة للعلاج برشّ قليل من الحرية والديمقراطية عليها ! إنها أعمق من ذلك كثيراً في بنية النظام ذاته ..

إن الرأسمالية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية .. والشيوعية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية ! وكل حكم غير حكم الله لا بد أن يكون طاغوتاً .. ليس هناك وسيلة – ما – لمزج الحرية والديمقراطية بأيٍّ منها بحيث تُبقى على " فضائلها " وتقضي على مفاسدها !

الفساد في بنية النظام ذاته .. في أعماقه .. لا في الأداة المنفذة له ولا في وسائل التنفيذ .

والعلاج " الأوحد " ليس في مزجه بالحرية والديمقراطية – وهو أمر في ذاته غير ممكن – وإنما هو تغييره من أساسه وبالرجوع إلى منهج الله دون سواه ، والحكم بما أنزل الله .

* * *

تقول كلتا الدكتاتوريتين إنها تلجأ إلى خنق الحرية والتضييق على الناس .. لأنها في حرب " مقدسة " !!

فأما دكتاتورية رأس المال فإنها لا تعترف بأنها دكتاتورية ! وتزعم أنها " ديمقراطية " مائة في المائة ! وأنها خلاصة إرادة الشعب ورغباته ! ولكنها حين تسأل عن قبائحها في إرهاب العمال ، أفراداً ونقابات ، وفي إقصاء كل من يشتم منه الدفاع عن الحريات الحقيقية – التي تمس مصالحهم الخاصة – إقصائه عن الحكم ، أو عن مراكز التوجيه ، أو إقصائه عن الحياة ذاتها بالاغتيال (!) .. حين تسأل عن ذلك كله تقول : إنها مضطرة إلى ذلك اضطرارً ، لأنها تحارب " المبداىء الهدامة " .. أي مبادئ الشيوعية !

وأما دكتاتورية البروليتاريا ، فتزعم بطبيعة الحال أنه " ديمقراطية " ! وإن كان الاسم " المذهبي " " العلمي " لها يصمها بالدكتاتورية .. ولكنها حين تسأل عن قبائحها في إرهاب مجموع الشعب ، والفتك بالمعارضين وإزالتهم من الوجود .. تعتذر بأنها مضطرة إلى ذلك اضطراراً ، لأنها تحارب " الرجعية " .. أي الرأسمالية !

وهكذا يحتج كل من المعسكرين بأنه في حرب " مقدسة " ضد المعسكر الآخر . وأن " الأعداء " يتربصون بالنظام ويتمنون تقويضه ، ويعملون على ذلك إن استطاعوا فلا بد من أخذهم بالشدة والعنف ، محافظة – أي والله – على مصالح الجماهير ! ومكاسب الجماهير ! ووجود الجماهير !

وهي حجة واهية زائفة لا تثبت للتمحيص .. !

فليست هذ أول مرة في التاريخ يواجه فيها النظام القائم أعداء من الداخل أو الخارج ، يتربصون به ، ويعملون على تقويضه ، ويتصلون بالمعسكرات المعادية لتمدهم بالعون وتساعدهم على التقويض !

ولكن الموقف يختلف فيما بين الجاهلية ومنهج الله ..

لقد واجه الإسلام – منذ مولده – حرباً عنيفة لا تكف لحظة واحدة عن العدوان ..

حرب في العقيدة . حرب في الكيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي . حرب في الأخلاق . حرب في الفكار ." طابور خامس " في وسط الصفوف لخلخلة الصفوف . فتنة بالتعذيب والتجويع وبالعزل السياسي والاقتصادي والاجتماعي عن بقية المجتمع ..

ذلك كله في منشأ العقيدة ..

ثم لما صارت دولة – في المدينة – صارت الحرب أوضح وأعنف ..

إمداد " المنافقين " بالأموال والرجال والعتاد .. إثارة الفتن والاضطرابات .. الحرب الاقتصادية .. مصادرة الأقوات ..

فلما صارت الدولة هي الجزيرة العربية كلها ، وتمكن الإسلام في موطنه الأصلي ، وفاتت الفرص الأولى لخنق الدعوة الجديدة ، عنفت الحرب أكثر ، وأصبحت أكثر ضراوة !

الإمبراطورية الرومانية تكيد للإسلام وتتحفز للهجوم .. والإمبراطورية الفارسية تقف بالمرصاد .

ثم يقع الاصطدام بالفعل . وتقع الحرب أشد ما تكون الحرب . ويدخل الإسلام المعركة المقدسة – المقدسة حقيقة لأنها في سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله – فكيف يكون سلوك الحكومة في داخل العالم الإسلامي ؟

عمر .. ؟ الذي وقعت في حياته معظم هذه الحروب الضارية مع الإمبراطوريتين الشامختين ، اللتين تكيدان كل كيدهما الظاهر والخفي لتحطيم الإسلام .. ؟

كيف كان عمر في حكومته للمسلمين ؟

أليس هو عمر هذا الذي قام على المنبر يقول : اسمعوا وأطيعوا ، فينتبذ له رجل من المسلمين – سلمان الفارسي – **الفارسي لا العربي !** يقول له : لا سمع لك علينا ولا طاعة ..

حتى تبين لنا لم فعلت كذا وكذا [73] ! فلا يغضب عمر ولا يثور ! ولا يقول : كيـف تناقـشني وتعارضني وأنا في حرب مقدسة مع الأعداء الذين يتربصون بنا ويعملون على تحطيم الدولـة والنظام ! بل بيّن له الأمر في هدوء حتى اتضح .. فقال سلمان : الآن مر .. نسمع ونطع !

أليس هو عمر الذي قام يخطب الناس في الصلاة فوقفت امرأة تعارضه فيما يذهب إليه .. فيقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة !

أليس هو عمر الذي رأى رأياً – لصالح المسلمين – في مسألة الفيء ، وتوزيعه أو عـدم توزيعه على الفاتحين من المسلمين (وهو يرى عدم توزيعه ، محافظة على مستقبل الأجيـال) فيعارضه بلال – العبد الحبشي – معارضة عنيفة قوية ، ويجمّع المعارضين معه ، فلا يجد من سبيل أمام معارضته – وهو مقتنع بصواب رأيه الذاتي ، وبأنه يعمل مخلصاً – إلا أن يدعو ربه : اللهم اكفني بلالاً وأصحابه !!

ذلك منهج الله مطبقاً فـي واقع الأرض .. يكشف النقاب عـن حكـم الطـاغوت فـي الجاهليات !

إنها ليست الحرب " المقدسة ! " .. وما هي بحجة لفرض الدكتاتوريات !

إنما هي الحرب غير المقدسة ، ولا النظيفة ، ولا الشريفة .. حرب الطاغوت للمحافظـة على ما في يده من السلطان !

إن دكتاتورية رأس المال **لا يمكن** أن تكون غير ذلك . ودكاتورية البروليتاريا **لا يمكن** أن تكون غير ذلك ! وكل ديكتاتورية تقـوم على حاكمية الإنسان للإنسان **لا يمكن** أن تكون غيـر ذلك !

---

[73] وزعت على المسلمين أبراد (أقمشة) يمانية ، فنال عمر برد كبقية المسلمين ، ولما كان رجلاً طـوالاً لا يكفيه برد واحد ، فقد قام سلمان الفارسي يستجوبه : من أين لك البرد الذي ائتزرت به وأنت رجـل طـوال لا يكفيك البرد الذي نالك كبقية المسلمين ؟! فنادى عمر ابنه عبد الله بن عمر ، فشهد عبد الله أنه تنازل لأبيه عـن برده الخاص ليستطيع أن يجد الكسوة اللازمة له !

فما دام الناس لا يحكمون بمنهج الله .. فلا شيء غير حكم الطاغوت !

ورأس المال **لا يمكن** – ما دام هو الحاكم والمسيطر – في جاهليته التي لا تحكم بما أنزل الله – لا يمكن أن يتنازل عن سلطانه . لا يمكن أن يتيح الفرصة " للطبقة " المواجهة لـه أن تسلبه سلطانه . لا يمكن أن يدع الطبقة المواجهة لـه تتقـوى – عـن طريـق الحريـة و " الديمقراطية ! " – فتشرع تشريعات تحد عن سلطته وتتعرض " لمصالحه " ..

لا يمكن ! لأن هذه نتيجة " حتمية " لقيام سلطان رأس المال !

وهي ليست – كما يفسرها التفسير المادي للتاريخ – حتميـة لأن رأس المـال هكـذا ، بصرف النظر عن " النفوس " وعن الإنسان ! وإنما تستمد حتميتها من سنة الله التي تقول : إنه ما دام الناس لا يحكمون بما أنزل الله ، فلا بد أن يحكمهم الطاغوت ! وتفسير ذلك فـي حالـة الرأسمالية ، أن الناس – منذ البدء – أبوا أن يحكّموا منهج الله الذي يحرم الربـا والاحتكـار – دعامتي الرأسمالية وسنادتيها – ويحرم تداول المال في يد فئة قليلة من الأغنياء .. فاستـشرى الطاغوت ، وأصبح هو الذي يملك ويحكم ، وأسبح الناس مستعبدين له لا يملكون من " حتميته " الفكاك !

ولن يكف هذا الطاغوت عن استعباد الناس قط . إلا بأحد شيئين : إما أن يرجع الناس إلى منهج الله فيسقط طاغوت رأس المال .. أو يتلقف الناس طاغوت آخر تخدمه الظروف القائمـة فيملك توجيه ضربة قاسية لرأس المال ..

والذي حدث في الجاهلية الحديثة هو الأمر الآخر بكل تأكيد ! لأنها جاهلية !

قفز طاغوت آخر فتملك رقاب الناس ..

ولا يمكن لهذا الطاغوت الجديد – ما دام هو الحاكم والمسيطر في جاهلية لا تحكـم بمـا أنزل الله – لا يمكن أن يتنازل عن سلطانه . وأن يتيح الفرصة للططبقة المواجهة له أن تـسلبه

ذلك السلطان . لا يمكن أن يتيح – بالحرية والديمقراطية – فرصة لأعدائه أن يشرعوا ضـــد " مصلحته " أو يسلبوه سلطة التشريع .

كلا ! لن يحدث ذلك قط !

ومن ثم فالدكتاتورية – سواء اسمها رأس المال أو اسمها البروليتاريـــا – أو اســـمها أي عنوان آخر – ليست أمراً عارضاً يزول . ولن تمطر سماء الجاهليـــة علـــى النـــاس حريـــات وديمقراطيات ، في ظل هذا الطاغوت أو ذاك ؟

* * *

والمشكلة – بلغة التفسير الجاهلي للتاريخ – هي مشكلة " الملكية " وما يترتب عليها مـــن نتائج سياسية .

فدكتاتورية رأس المال قد أباحت الملكية الفردية بغير حد وبكل صورة .. وما دامت هكذا – بغير حد وبكل صورة – فنتائجها " الحتمية " أن يتجمع في يدها – رويداً رويداً – السلطان . ثم أن تعمل على المحافظة على هذا السلطان . وهو سلطان متزايد – بطبيعته – فالربا – الذي تقوم عليه الدكتاتورية الرأسمالية – يجعل الثروة تتضاعف " أضعافاً مضاعفة " بحساب الـــربح المركب ثم يؤدي في النهاية إلى الاحتكار [74] كما هو حادث اليوم في العالم الرأسمالي . ومـــن ثم تتركز السلطات في يد فئة قليلة من الناس ، تعلم جيداً فيما بينها وبين نفسها أنها تغتال الناس وهم أحياء .. وتعلم جداً فيما بينها وبين نفسها أنه لو خلى بينها وبين الناس لانقــضوا عليهـــا ، يستردون ما سلب منهم من أموال وجهد وعرق ودماء . فلا بد أن يحصنوا أنفـــسهم بالتـــشريع الذي يكفل صيانة مصالحهم . ولا بد لهم أن يملكوا في أيديهم القوة التنفيذية التي يقيمون بها هذه الصيانة ، عن طريق أجهزة الدولة تارة ، فإن لم تكف فعن طريق العـــصابات – لا مـــانع ! – وعن طريق تلهية الناس ببعض المنافع ، والعدالة الجزئية .. و " المسرات " !

---

[74] نتحدث عن الربا والاحتكار في الفساد الاقتصادي فيما بعد ، ولكنا هنا مضطرون للحديث عنهمـــا ســـريعاً لبيان آثارهما في السياسة فحسب .

ما أكثر المسرات في ظل الرأسمالية !

حفلات ورقص وإباحية وتحلل .. اصنع ما تشاء ! تلك " حريتك " الشخصية ! لا تحريج لأحد عليك ولا سلطان . البس كما ترغب . وتعرّ كما ترغب ! صُغْ علاقاتك الجنسية على هواك .. أنت تعيش في ظل " الحرية " !!

وبهذه الوسائل وتلك .. وبكل الوسائل .. يسيطر رأس المال ، ويقيم طاغوته على رقاب الناس !

ودكتاتورية البروليتاريا تمنع الملكية الفردية البتة ! وما دامت هكذا فنتيجتها " الحتمية " أن يتجمع السلطان كله في يد السلطة الحاكمة وينتزع من الناس ! إنه ما دام لا يوجد شخص يملك شيئاً لنفسه .. ما دامت لقمة الخبز تأتي عن طريق الدولة ، **ولا تأتي إلا عن طريقها** ، فالنتجية الحتمية أن يكون الفرد مستذلا للدلوة من أجل لقمة الخبز ! لا يملك أن يعارضها لأن قوته في يدها . ولا يملك أن يحد من سلطانها لأنه سيتعرض للجوع . ويستوي أن يكون الحاكم في ظل دكتاتورية البروليتاريا طيباً جدا وتقيا وورعاً (!!) كما تقول صحف البروليتاريا عن كل حاكم في أثناء امتلاكه للسلطة ، أو وحشاً سفاحاً مجرماً خائناً كما تقول عنه الصحف بعد أن يموت أو يزول عنه السلطان .. يستوي أن يكون هذا وذلك .. فالدكتاتورية ليست كامنة في " شخص " الحاكم . وإنما في أساس النظام ذاته . في قيام الدولة – وحدها – بحيازة الملكية كلها ، وحرمان الناس من كل طريق للقوت إلا عن طريقها .. فتستذل رقابهم بلقمة الخبز !

لقد زعمت دكتاتورية البروليتاريا – ولا شك – أنها " حررت " الناس .. القطيع .. من المذلة للإقطاع ورأس المال من أجل لقمة الخبز . نعم ! ولكنها عادت ففرضت المذلة ذاتها .. المذلة من أجل لقمة الخبز .. على ذات القطيع الذي " حررته " من الإقطاع والرأسمالية . فلم يتغير في حقيقة الأمر إلا السيد المستذِل : لم يتغير إلا شكل الطاغوت .. وبقي الناس – كما هم في الجاهلية أبداً – عبيداً للطاغوت !

ولتلهية الناس .. تقدم لهم بعض المنافع ، والعدالة الجزئية .. والمسرات !

نفس المسرات التي تقدمها دكتاتورية رأس المال !

حفلات ورقص وإباحية وتحلل .. **في ذلك** اصنع ما تشاء ! إنها " حريتك " الشخصية !

وهكذا يقع في يد الناس – في ظل هذه الدكتاتورية وتلك – شيء من النفع الحقيقي الذي لا شك فيه ، وشيء من العدالة الجزئية . وشيء من " الانبساط " !

وبهذا الفتات الذي يتساقط في أيدي الناس ، تقوم هذه الدكتاتورية وتلك بتلهية الناس عن أعنف طاغوت شهدته البشرية ! بينما أصحاب الطاغوت – الفئة القليلة التي تملك السلطان – تتمتع إلى درجة الفجور .

في طاغوت الرأسمالية يملك نفر من الناس – يعدون أحياناً على الأصابع – من المال والسلطة ومباهج الحياة وترفها – الفاجر – ما تعجز عن عده الأرقام وعن تصوره الأفهام . أولئك هم " ملوك " الصناعة . ويصل سلطانهم – الفاجر – أن يقتلوا رئيس الدولة ويعملوا على أن تمر القضية بلا ضجيج !

وفي الطاغوت الذي يقوم باسم البروليتاريا ، تتمتع الفئة القليلة التي تملك السلطان – وهي أعضاء " الحزب " الشيوعي – بأقصى نعيم متاح في الأرض .. بينما " الفقر " يوزع بالسوية على الجماهير !

ثم تقوم وسائل الإعلام – في هذه الدكتاتورية وتلك – بتسليط الأضواء التي تبهر العيون ، على الفتات المتساقط في يد القطيع .. وفي الوقت ذاته تقوم بإخفاء معالم الجريمة البشعة التي ترتكب في حق ذلك القطيع .. جريمة تحويلهم إلى سائمة مستباحة ، وحرمانهم من " حقوق الإنسان " ومن كرامة الإنسان !

ويكون هذا وذاك هو " التطور " الحتمي ، كما يقرر التفسير الجاهلي للتاريخ !

في الاقتصاد ..

في الباب السابق أشرنا إلى مسألة " الملكية " وأثرها في الوضع السياسي للمجتمع . وقلنا : إننا نتخذ في وصفها ألفاظ المنطق الجاهلي ذاته ! وما نريد أن نتابع هذا المنطق في طريقة تفكيره .. فهو يقلب السبب والنتيجة ، أو بالأحرى يأخذ حلقة واحدة من السلسلة ، ويقطعها عن تسلسلها الطبيعي في واقع الحياة البشرية . إنه يفسر الوضع السياسي بالصورة الاقتصادية . ولكنه يأبى – في جاهليته – أن يفسر الوضع الاقتصادي ذاته " بالإنسان " وما يعتقد وما يفكر .. ذلك أن الإنسان – في التفسير الجاهلي للتاريخ – تبع للوضع الاقتصادي ، وليس الوضع الاقتصادي تبعاً للإنسان :

" في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس نراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهي مستقلة عن إرادتهم .. **فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية** هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية **والمعنوية** في الحياة . **ليس شعور الناس هو الذي يعين** وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم " [كارل ماركس] .

وقد بينا من قبل ، ونحن نتحدث عن فساد التصور ، مقدار ما في هذا التصور الجاهلي من الفساد ، إذ يغفل قيمة الإنسان وإيجابيته الفاعلة ، وينكر أن هذا الإنسان – برغباته الكامنة فيه وأشواقه الدافعة له – هو الذي اخترع " الآلة " التي يعزو إليها التفسير المادي للتاريخ كل تطور اقتصادي واجتماعي وسياسي .

وكون الآلة – بعد اختراعها – تحدث تطوراً في أساليب الحياة كلها لم يكن يدور بخلد مخترعها حين أقدم على اختراعها .. حقيقة . ولكنها لا تبرر قولة التفسير المادي بأن هذا التطور مستقل عن إرادة الإنسان . فهذا التطور – الذي لم يكن منظوراً بأكمله وقت اختراع الآلة – لا يمكن أن يجري إلا وفق الطبيعة البشرية ذاتها ، بارتفاعاتها وانخفاضاتها . ولا بد أن

يسير مع دروب النفس البشرية ومنحنياتها ، ولا طريق له قط من خارجها ! لأنه لا يعمل في الهواء ! وإنما يعمل دائماً عن طريق النفس . ومن خلال النفس !

حين اخترع الإنسان الطائرة .. لم يكن هناك دافع مادي هو الذي يمسك بعقل الإنسان ويقول له : اخترع الطائرة ! إنما كان الشوق البشري القديم الموغل في القدم أن يطير في الجو كالطيور .. ذلك الشوق الذي تمثل في كثير من المحاولات البدائية حتى ظهر في صورته العلمية ، حين أصبحت معلومات الإنسان ومعارفه تمكنه من تحقيق هذا الشوق في صورة علمية . وكان إلى جانب ذلك الرغبة البشرية في سرعة الانتقال من مكان إلى مكان . وهي رغبة فطرية ، يؤديها البدائي بالجري . ثم يركب دابة . ثم يحاول اختراع أداة سريعة .. وتجره المحاولة إلى اختراع الطائرة .. ثم اختراع الصاروخ ..

وحين اخترعت الطائرة بالفعل أحدثت تطوراً هائلاً في المجتمع .. في الحرب والسلم على السواء .

ولكن كيف حدث التطور ؟! هل سلك طريقاً غير " النفس البشرية " ورغباتها وأشواقها ودروبها ومنحنياتها ؟ وأنَّى له أن يفعل ذلك ؟

لقد اختلطت الحضارات والأفكار والعقائد باختلاط الناس الذي سهلته الطائرة .. فهل ذلك أمر جديد فرضته الطائرة على الناس ؟ أم قديم موغل في القدم حاولته البشرية بأدواتها البسيطة الأولى ، ثم حاولته اليوم بصورة أكبر حين أتيحت لها الإمكانيات .. الإمكانيات التي أوجدتها بيديها !

وقد أمكن استخدام الطائرة من سيطرة بعض الحضارات على حضارات أخرى – أو إفنائها – عن طريق الحرب . فهل ذلك أمر جديد أحدثته الطائرة ؟ أم له شواهد من أعماق التاريخ ؟

حقا لقد زادت الطائرة من إمكانيات البشرية في كل مجال .. ولكن كل ما صنعته في الحقيقة هو زيادة الإمكانيات وتحقيق رغبات كامنة لأنها لا تجد السبيل إلى التنفيذ .. ولكنها لم

تنشئ شيئاً لم يكن في " الإنسان " من قبل ، بصورة كامنة أو ظاهرة .. ولم تنشئ إنساناً جديــداً كما يحلو للتفسير المادي أن يتصور الأمور !

ومن هنا نعود دائماً إلى " الإنسان " نفسر الاقتصاد من خلاله ، ولا نفسر الإنــسان مــن خلال الاقتصاد !

* * *

وقضية " الملكية " هي الموضوع الرئيسي في دنيا الاقتصاد . كيف تكون ؟ وما نتائجها ؟ فأما التفسير المادي فهو يرسم صوراً حتمية لأطوار التاريخ ، من خلال صور حتميــة لنــوع الملكية ..

وقد مر بنا في التاريخ ما يثبت زيف هذه الحتمية التاريخية والاقتصادية ..

فمرة وجدنا زيفها في ظهور الإسلام بمبادئه هذه ، في بقعته هذه ، في فترته هذه .. بغير مبرر واحد من المبررات " الحتمية " التي يضعها التفسير المادي للتاريخ !

لا الرقيق طالب بالتحرر ولا كانت ظروف اقتصادية حتمية تؤدي إلى تحريره كما حدث في أوروبا بعد الإسلام بسبعة قرون .

ولا المرأة طالبت بالتحرر ، ولا كانت ظروف اقتصادية حتمية تؤدي إلــى تحريرهــا ، وإعطائها شخصيتها المستقلة ، وحق الملك ، وحق التصرف المباشر في الملك ، وحق الــزواج وحق الطلاق .. وهي حقوق لم تمنحها أوروبا للمرأة إلا فــي القرن التاســع عــشر والقــرن العشرين ، بعد صراعات شنيعة ، وفساد مدمر في الخلاق !

ولا " الجماهير " طالبت بالتحرر .. مــن سلطان القبيلة أو سلطان الحكــم القــائم علــى الهواء ، ولا قامت ظروف اقتصادية حتمية تؤدي إلى هذا التحرر .. وإلى قيام مفهوم جديد كل الجدة في سياسة الحكم والمال لم تفئ أوروبا إلى بعض مظاهره إلا في القــرن التاســع عــشر والقرن العشرين ، بعد صراعات دامية بين المالكين وغير المالكين !

لم يكن هناك شيء واحد حتمي في كل هذه الشئون ..

ومرة أخرى وجدنا زيف هذه الحتمية في قيام الشيوعية رأساً في الدولتين الإقطاعيتين المتاخرتين أشد التأخر في الناحية الصناعية : روسيا ثم الصين ، بينما انجلترا التي كانت الحتمية تحتم قيام الشيوعية فيها لتقدمها الصناعي لا تزال رأسمالية حتى اليوم !

وإذن .. فلم يكن من الحتم أن تأخذ الملكية صورتها التي أخذتها في الجاهلية الحديثة ، سواء في دكتاتورية رأس المال أم في دكتاتورية البروليتاريا .. وإنما هي " الأهواء " !

* * *

في أوروبا قامت الرأسمالية في ظل جاهلية سمحت من قبل بقيام الإقطاع .

والرأسمالية تقوم على نفس القاعدة الجاهلية التي قام عليها الإقطاع من قبل وهي حرية التملك بغير حد .. وبكل سبيل .

وسماح الجاهلية الأوروبية بذلك **لم يكن حتماً** .. وإنما كل ما يمكن أن يقال فقط ، هو أن هذا هو الذي حدث بالفعل . فله قوة الأمر الواقع . ولكن ليست له حجّية تبرره ..

فلا شيء يمكن أن يبرر الطغيان !

وكل ما حدث من " تطور " في الجاهلية الرأسمالية ، هو تطور " الصورة " التي يمسك بها الطاغوت برقاب الناس . كان يستعبدهم من قبل للأرض ، فصار يستعبدهم للمصنع ورأس المال . ولكن طبيعة الطغيان واحدة من حيث الجوهر ، وكذلك طبيعة العبودية من جانب المستذلين والمستعبدين .

و " طبيعة " رأس المال تختلف عن طبيعة الأرض في الصورة الاقتصادية ، ولكنها لا تختلف عنها في رغبة الحيازة والتملك والسلطان .

* * *

حين ولدت الآلة احتاجت إلى المال لإدارتها ..

ولم يكن من السهل – في بادئ الأمر – أن يتحول ملاك الأرض إلى رأسماليين صناعيين . لأن الإلف والعادة لهما حكمهما على النفس البشرية . ولقد كان أصحاب الإقطاع مطمئنين إلى الطريقة التي يحوزون بها المال والسلطان ، ولهم في ذلك خبرة قرون متوالية ، و " تقاليد " صنعها طاغوت الإقطاع وطبقها مئات السنين ، فصارت عرفاً سارياً ، لا بحتمية ذاتية ، ولكن بانصياع الناس له .. بعيداً عن منهج الله !

وكان لا بد من الحصول على المال من طريق آخر غير طريق ملاك الأرض ..

وهنا تقدم المرابون – اليهود – لإقراض العمليات الرأسمالية الناشئة . ولم يكن قيام المرابين بالإقراض عملية جديدة أنشأتها الرأسمالية . فاليهود هذه صناعتهم منذ فجر التاريخ ! والربا يجري في عروقهم مجرى الدم . وقد نهاهم الله عن ذلك في التوراة فلم ينتهوا . وانتشروا في الأرض ينشرون معهم الجاهلية الربوية في كل مكان !

قالت لهم التوراة : " لأخيك لا تبع بربا " [75] فقالوا لأنفسهم – أو قالت لهم شهواتهم – " لأخيك " يعني لليهودي .. لا تبع بربا . أما " الأميون " غير اليهود فلا جناح عليك أن تمتص دماءهم بكل سبيل :

" ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ " [76] !

وكان لا بد للمرابي اليهودي المقرض أن يضمن دينه ورباه .. كما كان لا بد للمقترض أن يضمن الربح الذي يكفل ردّ الدين والربا ، وبقاء قسط من الربح الشخصي بعد ذلك . ومن هنا اتسمت الرأسمالية منذ البدء برغبة الحصول على الربح الفاحش .. ومن أهون سبيل .

ولم يكن ذلك حتمية تاريخية ولا اقتصادية !

---

[75] لاويين ؛ إصحاح 25 آية 36 .

[76] سورة آل عمران [75] .

فلم يكن هناك أي مانع على الإطلاق يمنع من قيام الرأسمالية على تعاون الممولين ، وكان التجار يومئذ في المجتمع الأوروبي يملكون المال السائل الذي يدير الصناعة .. لو شاء الناس ! لاهتدوا بمنهج الله الذي يحرم الربا ويفتح الطريق للتعاون النظيف .. !

فهي ليست الحتمية .. وإنما الانحراف ! انحراف الجاهلية التي لا تعبد الله .

* * *

أباحت الجاهلية استخدام الربا في عمليات الاقتصاد .. وكان ذلك بدء الكارثة " الحتمية " كما سنبين بعد قليل . ولكنا نريد قبل ذلك أن نبين أن شئون الاقتصاد ليست – كما يفسرها التفسير الجاهلي للتاريخ – منفصلة في منبعها عن أخلاق الناس ومعنوياتهم ..

فالجاهلية التي سمحت بالربا ، مخالفة لمنهج الله ، سمحت – قبل ذلك – بالغش والغصب والسلب والنهب في ظل الإقطاع .. ثم عادت فسمحت به في ظل الرأسمالية .. مجرد امتداد !

والجاهلية التي سمحت بتشغيل الفلاح في الأرض حتى يستنفد جهده كله ، مقابل لقمة الكفاف ، هي ذاتها التي سمحت بتشغيل العامل في المصنع حتى يستنفذ جهده .. مقابل الكفاف .

كلا ! لم تستحدث الرأسمالية " خلقاً " واحداً لم يكن موجوداً من قبل في الجاهلية الأوروبية .. إنما هي مجرد امتداد .

كل ما في الأمر أن الربا – هكذا طبيعته – يصير إلى الأضعاف المضاعفة بصورة أسرع من أرباح الأرض ، ومن ثم تزايدت كل " أخلاقيات " الجاهلية الإقطاعية على يد الرأسمالية .. تزايدت في الشناعة والهبوط !

ومضت الرأسمالية في طريقها من " نصر " إلى " نصر " .. أي من طغيان لطغيان . وساعد العلم إمكانياتها فزادت ضراوتها ، وقدرتها على سحق كل معارضة في الطريق .

ولم يكن ذلك حتمية تاريخية ولا اقتصادية !

فدول الشمال في أوروبا تقوم – رغم جاهليتها وانحرافها في أمور كثيرة أخرى – على الرأسمالية التعاونية ، لأن الناس هناك **أرادوا** ذلك ونفذوه .. فلم يجدوا حائلا " حتميا " في طبيعة رأس المال يحول بينهم وبين التعاون ، أو يفرض عليهم أن يكون رأس المال في أيديهم غولاً بشعاً سفاك دماء .

ليست الحتمية .. وإنما الانحراف !

وأدى تضخم الرأسمالية المتزايد ، والتقدم العلمي المتزايد ، إلى أن رءوس الأموال الكبيرة صارت أقدر على الربح – بإمكانياتها العلمية – من رءوس الأموال الصغيرة فأكلتها ! أو اضطرتها إلى الدخول معها في اتحادات ، أدت في النهاية إلى احتكارات !

فحين تتداخل كل رءوس الأموال العامة في صناعة ما ، وتكوّن اتحاداً واحداً ، يصبح هذا الاتحاد بالضرورة محتكراً لهذه الصناعة وحده ، ولا يجرؤ رأس مال آخر على منافسته في الميدان الذي تخصص فيه وتهيأ لاحتكاره .

ولم تكن هذه حتمية تاريخية ولا اقتصادية ! فكما أن التعاون قد أمكن بالفعل – في دول الشمال في أوروبا – بين الأفراد ، فقد أمكن كذلك هناك بين المؤسسات المتشابهة ، فتعاونت – برءوس أموالها التعاونية – لا للاحتكار والتحكم في الأسعار بالنسبة للمستهلك ، وإنما لتحقيق الأرباح لجميع المساهمين وهم بذاتهم هم المستهلكون .. فلا مصلحة إذن في رفع الأسعار ، أو لا ضرر من رفع الأسعار ، فالنتيجة واحدة ما دام المساهمون هم بذاتهم المستهلكين !

وزادت الصناعات وتكدس الإنتاج .. وأصبح لا بد من تصريف فائض الإنتاج . ومن هنا سعت الدول الرأسمالية إلى الاستعمار والتوسع " الإمبريالي " لكي تضمن الأسواق لفائض الإنتاج .

ويقول التفسير المادي للتاريخ إن هذه حتمية تاريخية واقتصادية ..

وكذب التفسير المادي للتاريخ !

فالاستعمار لم ينشأ من الرأسمالية وفائض الإنتاج .. وإلا فما تفسير الاستعمار الروماني الشهير في التاريخ ؟ إنما الاستعمار شهوة منحرفة للمجتمع الجاهلي – كل مجتمع جاهلي يجد في يده القوة والسلطان .

وفائض الإنتاج من جهة أخرى .. ليس الطريق الوحيد " الحتمي " لتصريفه هو الاستعمار .

فالتجارة – الطبيعية – كفيلة بتصريفه . والكف عن إنتاجه أصلاً كفيل بعدم وجود الفائض الذي " يلجئ " إلى التصريف !

وإنما كل هذه كانت حتميات **في ظل الرأسمالية** .. أو بالأحرى في ظل الجاهلية التي سمحت بالرأسمالية ، وسمحت بعد ذلك بكل نتائجها ، التي أصبحت حتمية لأنه لا شيء يقوّمها ويمنعها من المزيد في الطغيان .

وخطوة خطوة كان من الممكن أن يقوّم هذا الانحراف ، ولا يؤدي إلى نتائجه " الحتمية " لو أراد الناس غير ما أرادوا ، واتبعوا منهج الله .

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " [77] .

ثم اختلت الجاهلية اختلالتها الأخرى .. فنزعت الملكية من الجميع .

لقد خيل إليها – في جهالتها – أن الملكية الفردية هي سبب الفساد في الأرض . ولم تدرك – لجهالتها – أن الذي كان قد فسد هو " الإنسان " . وأن الذي ينبغي إصلاحه هو " الإنسان " ! .. وأن الإنسان لا يصلح حتى يستقيم أمره على منهج الله ، فيعرف حقيقة نفسه ، وحقيقة مكوناته وطاقاته ، ويعرف مركزه من الكون والحياة .

إنها – حسب تفسيرها الجاهلي للتاريخ – تظن أن الاقتصاد هو الذي " يصنع " الإنسان ! وأنه إذا أصلح الاقتصاد فقد صلح الإنسان من تلقاء نفسه ، ولم يعد الأمر في حاجة إلى "

---

[77] سورة الأعراف [96] .

التدخل " .. لأن الحتمية الآلية التي تسير الحياة بمقتضاها – حسب هذا التفسير – سترتب النتائج الحتمية بصورة آلية .. وينصلح الكون كله .. حين تنزع الملكية من الناس .

ولم يكن ذلك " علماً " ! وإنما كان حماقة جاهلية !

كان رد فعل لبشاعة الإقطاع والرأسمالية .. يحمل سمات كل " رد فعل " جاهلي ، من الاندفاع والتطرف والتهوس المجنون .. مضافاً إليه الجهل بمكونات النفس ، وطريقة تعاملها مع الحياة والكون ، وتعاملها مع الناس .

إن الاقتصاد أيّاً كانت أهميته الذاتية لا يزيد على أن يكون جزءًا واحداً من حياة الإنسان . جزءًا أصيلاً ، نعم . ومؤثراً ، نعم . ولكنه ليس الحياة كلها ، ولا هو العنصر الواحد المؤثر في الحياة .

وحين أعطته الجاهلية الحديثة هذا الاهتمام المبالغ فيه – على حساب بقية الكيان الإنساني – [سواء في الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي] فقد أحدثت في حياة الإنسان اختلالات ضخمة ، ليس أقلها ضياع " الإنسان " ذاته في النهاية ، وتحوله – على الأكثر – إلى آلة منتجة ، تقوّم بقدر ما تنتج في عالم المادة ، ولا تقوّم بمقاييس الإنسان .

وبالإضافة إلى هذا الاختلال الشامل – الذي سنتكلم عن طرف منه في الأبواب التالية [في الاجتماع ، وفي الأخلاق ، وفي علاقات الجنسين] – فإن الحل الخاص الذي " اهتدت " إليه الجاهلية الحديثة ، حين نزعت الملكية الفردية البتة ، لم يؤت ثماره االتي دارت بخلد الجاهليين وهم يظنون أنه مفتاح النعيم !

لقد قامت هذه الجاهلية المنحرفة بمقاومة الفطرة البشرية مقاومة مجنونة .. لتنزع مشاعرها تجاه التملك الفردي .. وجادلت جدالاً " علمياً ! " طويلاً لتثبت أن حب التملك ليس نزعة فطرية ، وإنما هو ميراث من المجتمع الإقطاعي والرأسمالي ، ليس أصيلاً في كيان الإنسان . بل .. لما خشيت أن يكون هذا الكلام قليل الإقناع ذهبت في نقاشها خطوة أبعد ، فنفت أصلاً أن للإنسان فطرة ! لعلها تحسم الجدل من جذوره ! وزعمت – كما قال ماركس وإنجلز

وكثيرون وغيرهم – أن الإنسان ولد بغير نزعات فطرية ، وبالذات بغير نزعة إلى التملك . وإنما " المجتمع " هو الذي بذر فيه هذه البذور – الخبيثة – التي لا بد من اقتلاعها لأنها السبب في إشقاء البشرية .

ولم يناقش هؤلاء الجاهليون هذا السؤال الذي لا بد أن يخطر في المناقشة : لماذا صنع " المجتمع " ذلك ؟ وما هو هذا " المجتمع " الذي صنع ما صنع ؟ هل هو شيء آخر غير " الإنسان " ؟ نعم قد يكون المجتمع مختلفاً عن الفرد ! وقد تكون له صفات وخصائص غير الصفات والخصائص التي يتميز بها الفرد .. ولكن هل هو شيء غير " الإنسان " ؟

ومع التسليم – جدلاً ؟ – بما يزعمه ماركس ودركايم من أن الكيان الجمعي يفرض نفسه على الفرد فرضاً ويزرع في نفسه الطيبات والخبائث دون وعي منه ولا إرادة [سنناقش هذه الأسطورة في الباب القادم] مع التسليم جدلاً بكل ذلك ، فمن الذي زعم أن " الإنسان " هو الفرد فقط ؟ والمجموع ؟ أليس مجموعاً " إنسانيا " ؟ أم هو جنس آخر غير بني الإنسان ؟!

كلا ! لم يناقش الجاهليون هذا السؤال وهم يحاولون أن يقتلعوا الملكية الفردية في نفس " الفرد " ! وإنما زعموا أن الإنسان البدائي لم يكن يعرف الملكية الفردية . وإنما كانت أدوات الإنتاج – التي لا وجود لها ! – مشاعة بين الجميع ، والإنتاج كله مشاعاً بين الجميع كذلك . وإنما عرفت الملكية فقط حين اكتشفت الزراعة ، فسعى الناس إلى ملكية الأرض ، وملكية أدوات الإنتاج .. وملكية الناس الذين ينتجون ، في مرحلة الرق ، ثم مرحلة الإقطاع ، ثم مرحلة الرأسمالية !

وقليل من " المنطق " كان يكفي لرد هؤلاء الجاهليين إلى الصواب !

أي شيء كان قابلاً للامتلاك في العهد البدائي الأول ؟

قطعة الحجر السمنونة على هيئة سكين ؟ ما نفعها لمن يملكها ؟ إنها تستخدم – على الأكثر – لقطع قطعة من اللحم النيئ إذا لم تفلح فيه الأظافر والأسنان ! وهذا اللحم ذاته – أو

السمك – كيف يُملك ؟ إنه إذا فاض عن حاجة القوم فإنه ينتن ويفسد ، ولا يعود صالحاً للأكل . فلماذا يُحجز وكيف يحفظ ؟

إن عملية الملك هنا باطلة من أساسها لأنه ليس هناك ما يُملك .. لا لأن الإنسان خال من نوازع الملك .. وإلا .. فهل تبث لهؤلاء الجاهليين أن النزاع لم يكن يقوم قط في هذا المجتمع البدائي على ملكية شيء على الإطلاق ؟

ألم يكون يثور بينهم النزاع الوحشي على ملكية " امرأة " بعينها ، يراها صاحبها أجمل وأوقع ، فيحتجزها لنفسه .. وليكن هو شيخ القبيلة أو فتىً فارهاً يُدِلّ بقوته على الآخرين ؟

ألم يكن شيخ القبيلة " يميز " نفسه ، ولو بريشة واحدة في رأسه " يمتلكها " دون الآخرين ، ويحرم على غيره أن يلبسها ؟

لقد كانت ملكيات تافهة ، نعم .. ولكنها " ملكية " .. وملكية " فردية " على قدر مستويات الناس في ذلك العهد البدائي .. وعلى قدر ما هو في مكنتهم أن يتملكوه .

فلما ارتقوا .. فصاروا أكثر نضوجاً من الناحية " النفسية " ، وصارت إمكانياتهم " المادية " أكبر ، وقدرتهم " العلمية " أوسع مدى .. " تملكوا " على نطاق أوسع .. تملكوا الأرض وأدوات الإنتاج ..

ثم انحرفوا ..

لم يكن انحرافهم لأنهم تملكوا .. فقد كانوا يتملكون من قبل في حدود مستوياتهم النفسية والمادية والعلمية ..

ثم لم يكن بدء انحرافهم حين عرفوا ملكية الأرض وأدوات الإنتاج !

إنما الانحراف قديم قدم البشرية ..

فحين كانوا يتنازعون على ملكية امرأة .. ويتنازعون على رئاسة القبيلة .. وعلى أيهم هو الذي يملك " الريشة " التي يزين بها رأسه ويتميز على الآخرين .. ثم يحسمون هذا كله بقوة

الجسد ؛ من غلب فله السلطان .. كان ذلك انحرافاً ! كان " شهوة " تتملك الناس فتملك عليهم أنفسهم .. و " الشهوة " منذ بدء البشرية هي الانحراف !

ولم يكن الانحراف في أي وقت قوة حتمية .. ولا كان هو الصورة الواحدة للبشرية ..

إنما الانحراف – في أي وقت – " احتمال " بشري ، يقع ، كما يقع الاعتدال سواء بسواء .

ومرجع هذا وذاك إلى الفطرة البشرية ذاتها ، التي تحمل في طياتها استعداد الهدى واستعداد الضلال ، وتتقبل الانحراف كما تتقبل الاعتدال .. حسب " التوجيه " الذي تناله ، و " الاتجاه " الذي تقصد إليه ! [78]

وإذن فالأسطورة التي زعمها التفسير الجاهلي للتاريخ ، والتي تقول إن الملكية الفردية بدأت – فقط – باكتشاف الزراعة ، وإن " هذه " الملكية هي سبب الانحراف .. هي أسطورة جاهلية جاهلة لا تعرف طبيعة " الإنسان " !

وقد وجدت الملكية الفردية خلال التاريخ كله ، ولم تكن – في ذاتها – طريقاً إلى الضلال .. إنما كانت وضعاً محايداً ، يوجه في طريق الخير فيكون عنصر بناء ونشاط وتقدم ، ويوجه في طريق الشر فيكون عنصر هدم وتعويق وتدمير ..

ولم تكن الملكية الفردية مؤدية – حتماً – إلى الإقطاع والرأسمالية [كما بينا من قبل في هذا الفصل] وإنما الذي أدى إلى ذلك هو " الشهوة " .. الشهوة التي تتخذ الملكية طريقاً إلى استعباد الناس والتطاول عليهم . وهنا .. يكمن انحراف البشرية منذ أقدم الأزمان !

فلما قامت الجاهلية الماركسية تنزع الملكية الفردية البتة – ظنا منها بأن الفساد كامن فيها ، وليس في " الإنسان " الذي كان يعيش في أوروبا الجاهلية – فماذا كانت النتيجة العملية لهذه التجربة في نصف قرن من الزمان ؟

---

[78] انظر " دراسات في النفس الإنسانية " .

" شهوة " السلطان هل قضت عليها الجاهلية الماركسية حين نزعت الملكية الفردية ؟!

لا ينبغي لنا نحن أن نتكلم ! فقد تكلم خروشوف ! تكلم عن " زعيمه " السابق – بعد أن مات ! – فقال إنه كان مجرماً سفاحاً يمثل أبشع دكتاتورية في التاريخ !

لقد أزيلت الملكية الفردية وبقي الانحراف الكامن في ذلك " الإنسان " الجاهلي الذي لا يهتدي بمنهج الله !

وكان من نتائج هذا الانحراف تلك الدكتاتورية البشعة التي تحدثنا عنها في الباب السابق [في السياسة] سواء دكتاتورية الزعيم المقدس – الوحش المجرم السفاح – أو دكتاتورية النظام ذاته ، التي سلبت الناس كيانهم واستذلتهم – بلقمة الخبز – للسلطان الجائر المتمثل في " الدولة " وما يتركز في أيديها من سلطات !

* * *

إنه اختلال مزدوج في هذه الجاهلية ..

اختلال في تغليبها العنصر الاقتصادي على كيان الإنسان كله ، وإهمالها لحقيقة الإنسان" الشاملة " الأصيلة ، التي لا تشمل الاقتصاد وحده ، وإنما تشمل كل نشاط يقوم به الإنسان – نشاط الجسد ونشاط العقل ونشاط الروح .. أصيلاً كله عميق الأصالة ..

واختلال في طريقة التملك ذاتها .. سواء بإباحتها بغير حد وفي أي صورة كما تصنع الرأسمالية الغربية ، أو بإلغائها البتة كما صنعت الشيوعية [من حيث المبدأ على الأقل ، وإن كانت قد اضطرت تحت ضغط الواقع ، وواقع الفطرة البشرية ، أن تتراجع خطوات أساسية حاسمة عن الماركسية اللينينية ، فأباحت بعض الملكية الفردية وأباحت تفاوت الأجور ولعلها غداً ستلغي الملكية الجماعية للمزارع بعد أن ثبت فشلها كما يقول خروشوف !] .

والعلاج – حين تريد هذه البشرية الضالة أن تهتدي – لا بد أن يكون لهذين الاختلالين معاً ، وليس لأيهما دون الآخر .. ولا يصحح هذان الاختلالان إلا بتصحيح القاعدة التي انبثقا منها .

العلاج ينبغي أن يعدّل طريقة التملك .. فلا تنزع البتة كما تقضي حماقة الشيوعية ، ولا تباح بغير حد وفي أي صورة كما تصنع الرأسمالية الحمقاء .

وينبغي كذلك أن يعدّل – في عالم الواقع – مكان الاقتصاد في حياة البشرية ، فلا ينظر للحياة كلها من خلال القيم المادية والاقتصادية ، وإنما يوضع الاقتصاد في مكانه الصحيح – بلا تضخم – ويوضع إلى جانبه ، بل مهيمناً عليه وموجهاً لتنظيماته ، الكيان الروحي للإنسان ، كيانه الأصيل الذي حذفته الجاهلية الداروينية من حسابها ، فكان ما كان من هبوط الإنسان إلى عالم الحيوان ..

ينبغي – ببساطة – أن يعود الناس إلى منهج الله !

في الاجتماع ..

العلاقة بين الفرد والمجتمع هي الموضوع الرئيسي الذي يدرسه علم الاجتماع ..

وكما اختلت الجاهلية الحديثة في السياسة والاقتصاد ، فكذلك اختلت في نظرتها للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وفي تطبيق هذه النظرة في عالم الواقع ؛ ذلك أن السياسة والاقتصاد والاجتماع في الحقيقة ترتبط بعضها ببعض أوثق ارتباط ..

وقد رأينا من قبل التفاعل الكامل بين الاقتصاد والسياسة ، وسنرى الآن تفاعلهما مع الاجتماع .. لا على الأساس الذي تراه الجاهلية المادية ، من أن الاقتصاد هو الذي يرسم صورة المجتمع من ناحية ، والسياسة من ناحية أخرى . ولكن على أساس أنها كلها مظاهر للوجود الإنساني ، مترابطة لأنها تصدر عن كيان مترابط موحد .. هو " الإنسان " [79] .

* * *

وفي إشارة سابقة ألمحنا إلى اختلال الجاهلية الحديثة في تصور العلاقة بين الفرد والمجتمع ، الناشئة من اختلال تصورها للنفس البشرية .. والنابعة في الأصل من فقدان حاسة التوازن ، بسبب الانحراف عن منهج الله .

إما الفرد وإما المجتمع في تصور الجاهلية ..

فالنظم الاجتماعية التي تقوم على الفرد ، تبرز كيانه وتبالغ في إبرازه حتى تجعل ذاته مقدسة لا يمسها مساس ! يصنع ما يحلو له .. يملك كما يشاء بغير حد وفي أية صورة . ويصوغ أفكاره وعقائده وأخلاقه وتقاليده كما يشاء ، ليس للمجتمع أن يخرج عليه . ليس له أن يقول له : هذا خطأ وهذا صواب ، فما المجتمع ؟ وبأي حق تكون له الوصاية على الفرد ؟

---

[79] انظر " دراسات في النفس الإنسانية " فصل " طبيعة مزدوجة " .

إن الفرد هو " الإله " ! ومن ثم فكل إله يصنع ما يحلو له .. والحرية الشخـصية مجـال مفتوح للآلهة أجمعين !

والنظم التي تقوم على المجتمع ، تبرز هي الأخرى كيانه ، وتبالغ في إبرازه حتى تجعله هو الكيان المقدس ؛ والفرد لا قداسة له ولا كيان .. لا يحق له أن يملك . لا يحق له أن يصوغ أفكاره وعقائده وأخلاقه وتقاليده . لا يحق له أن يعترض على عمل المجتمع ، أو يـصفه بأنـه خطأ أو صواب . فما الفرد ؟ وبأي حق تكون له الوصاية على المجتمع ؟

إن المجتمع هو " الإله " ! ومـن ثم يصنع ما يحلو له .. والفرد هـو العبـد الخاضـع للسلطان !

* * *

ويزعم كل من النظامين أنه يقوم على أسس " علمية " !!

وليس أدل على فساد هذا الزعم ، أو فساد " العلم " الذي يقوم عليه هذا الزعم ، من أنهما وضعان متقابلان تماماً ، لا يقوم بينهما صلح ولا تفاهم ولا التقاء .. فكيف يكونـان فـي ذات الوقت صحيحين ؟ إن أحدهما أو كليهما لا بد أن يكونا خاطئين .. وهذه هي الحقيقة !

قامت أسطورة الفرد المقدس من " التطور " الذي أصاب أوروبا منذ عصر النهضة .

لقد كانت أوروبا – في جاهلية القرون الوسطى – تقع تحت ضغط بشع يضغط كل كيان الإنسان .

الكنيسة ورجال الدين يفرضان سلطاناً مذلا على كاهل الناس . " فالإنسان " لا يملـك أن يتصل بخالقه اتصالاً مباشراً .. وإنما ينبغي أن يكون ذلك عن طريـق الكـاهن أو القـسيس ! والمغفرة لا ينالها الإنسان من الله مباشرة وإنما ينبغي أن " تسلم " إليه على يد كاهن أو قسيس ! والاعتراف – لله – بالخطيئة لا يتم ، ولا يؤتي مفعوله إلا حين يتولاه كاهن أو قسيس ! وهكذا يحال بين الإنسان وحقه في أن يلتقي بكيانه الفردي المباشر مع الله .

والأشراف حمل آخر على كاهل الناس ..

فهم وحدهم في المجتمع الذين لهم وزن وثقل .. والثقل يقع على هذه " الأحجار " الآدمية التي يتكون منها مجموع الشعب .. الشعب الذي لا حقوق له ، وعليه في الوقت ذاته جميع الواجبات .

و " الفرد " من هذا الشعب ليس له كيان . لا يملك شيئاً ملكاً حقيقياً ، فالإقطاعي هو المالك الوحيد . والفرد لا يتعامل بكيانه المباشر مع شيء على الإطلاق ! لا يتعامل مع الدولة . فالدولة لا تعرفه إلا عن طريق الإقطاعي الذي يملك أن يقدمه وأن يؤخره ، وأن يجعل له وجوداً أو يلغي ذلك الوجود . ومن ثم يقوم الإقطاعي بين الفرد وعلاقته المباشرة مع الدولة ، كما يقوم الكاهن والقسيس بين الفرد وعلاقته المباشرة مع الله .

والحقوق السياسية لا وجود لها . ولا ضمانات العيش ولا ضمانات القضاء . ولا أي ضمانات .

وفوق ذلك فالنظام الإقطاعي ذاته – بصورته الجاهلية التي قامت في أوربا – لا يرتكز على شخصية الفرد – فيما عدا الفرد الإقطاعي صاحب السيادة – وإنما يرتكز على جموع من الأفراد ليس لها كيان فردي مستقل متميز ، وإنما لها صورة مطبوعة بخاتم قلما يتغير .. فالحياة راكدة آسنة في الريف لم تتغير منذ مئات السنين .. فرد يذهب وفرد يجيء ، وكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجيء ! ومن ثم لا يحس الفرد بوجوده ، وهو يمارس هذه السلبية الكاملة إزاء العرف والتقاليد ، التي يخضع لها لا إيماناً واعياً بها – فتكون له شخصيته المتميزة في أدائها – ولكن خضوعاً آليا كالثور المعلق في الطاحون .

* * *

ومن هذا الركود الآسن انبعث النشاط في أوروبا ، بعد احتكاكها بالعالم الإسلامي ، في الحروب الصليبية تارة ، وفي الجامعات الإسلامية في المغرب والأندلس تارة أخرى .. فدبت الحياة في الموات .

وكان على الناس أن يزيحوا عن كاهلهم ما يرزحون تحته من أثقال .

أول ثقل بدأوا يزحزحونه هو الكنيسة .. ورجال الدين .

وهنا دخلت " عبادة الطبيعة " مهرباً من الكنيسة وإلهها المتجبر الذي تحكم باسمه الناس ، ومحاولةً لإقامة " عبادة " جديدة يلتقي فيها العابد والمعبود مباشرة بلا وسيط !

ونحن هنا بطبيعة الحال نتتبع التاريخ دون أن نبرر التاريخ ! فليس هناك – كما أشرنا من قبل – مبرر " منطقي " ولا " علمي " لهذا التحول من إله الكنيسة إلى عبادة الطبيعة .. وإنما هو مهرب وجداني منحرف لا يحمل الدليل .. وقد كان على الناس حين أخذوا يزيحون سلطان الكنيسة المزيف أن يعودوا إلى عبادة الله الحق ، لا أن يخلقوا آلهة جديدة مزيفة يعبدونها من دون الله .

ثم أخذوا يزيحون ثقل الإقطاع بما يشمله من طبقة الأشراف ..

وكانت الثورة الفرنسية جماع هذه الثورة التي أطاحت بالملكية ورجال الإقطاع على الطريقة الأوروبية ! أو على الطريقة الفرنسية ! المقصلة وقطع الرقاب !

وبدأ " الفرد " يحس بكيانه ..

ولكنه – في هذه الجاهلية التي لا تعرف الله – لم يكن يُتوقع له أن يحس بكيانه على اهتداء .

إنه – مثلاً – لم يسع إلى الاتصال المباشر بخالقه بغير وساطة الكاهن . وإنما أدار ظهره للكنيسة بكل ما تحمله من كهنة وقسيسين .. و" إله " !

ولم يحاول أن يفرز التقاليد السارية في مجتمعه ، فيرى ما كان منها ذا قيمة باقية ، فيقوم بأدائه عن إيمان – فتكون له الشخصية المتميزة في هذا الأداء – وإنما أدار ظهره لمجموعة الأخلاق والتقاليد في عصره على أنها شيء بائد .. لا بد أن يبيد .

وهكذا لم يتعقل في ثورته المجنونة .. لقد كان – في هياجه – يلقى كل شيء لينطلق خفيفاً من الأثقال .

* * *

ثم كان الانقلاب الصناعي الذي أتى على بقية ما كان من بنيان ..

لقد أحدث هذا الانقلاب تغيراً كاملاً في صورة المجتمع .. في كل شيء فيه ..

وكان عاملاً من أهم العوامل في التركيز على " فردية " الإنسان ..

لقد جاء العمال من الريف فرادى .. غير متعارفين ولا مترابطين . وسكنوا في المدينة كذلك فرادى .. لا يلتقون إلا في زمالة العمل وحده . ولكن لا تقوم بينهم الروابط التي كانت تقوم بين الفلاح وأخيه في الريف ، حيث الناس متعارفون ، متعاونون ، تربطهم القرابة والمصاهرة والجوار ودوام الاتصال .. والتقاليد المشتركة التي توحد كيانهم من الداخل فيلتقون متعارفين بالمشاعر والأفكار .

بل إنهم جاءوا كذلك فرادى بلا أسر .. فقد كان الجيل الأول من العمال النازحين من الريف يتحسسون الطريق في المدينة ، فلا يحضرون معهم أسرهم حتى يطمئنوا أولاً إلى الجو الذي يعيشون فيه . وكان معظمهم من الشبان العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج ..

وهكذا أحس كل إنسان في المدينة بفرديته المتميزة أكثر مما أحس بالرباط الجمعي ..

ثم عملت المرأة ..

وأحست كذلك بفرديتها ..

لقد كانت من قبل هملاً لا وجود له ولا كيان ولا استقلال . مجرد تابع للرجل . تعيش عن طريقه اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا وفكريا .. وكل شيء .. فهي لا تفكر في أمورها بفكرها ، وإنما بفكر أبيها أو أخيها أو زوجها . ولا تفكر في شئون المجتمع – ما لها هي وما له ؟ – وإن فكرت فعن طريق الرجل الذي ينقل إليها الأمور جاهزة مبلورة منتهية ، لا تشارك هي في

معاناتها أو تمثلها . ثم إنها لا تملك ملكاً مباشراً ولا تتصرف بنفسها في هذا الملك – هكذا كانت في جاهلية العصور الوسطى في أوروبا ! – وإنما الرجل هو الذي يملك ويتصرف .. وهي تعيش في تقاليد معينة ، تضيّق عليها أكثر مما تضيق على الرجل ، أو تضيّق عليها وحدها دون الرجل في كثير من الأمور . وهي تتشرب هذه التقاليد بلا وعي ، وتعيشها راضية أو ساخطة على أنها قدر مقدور ..

فلما اشتغلت حدث في نفسها انقلاب !

صار في يدها مال تملكه ملكاً حقيقيا ، مباشراً ، كاملاً ، تستطيع أن تتصرف فيه كما تشاء .

وتعاملت – بشخصها مباشرة – مع المجتمع . في المصنع والمتجر والطريق ..

وتعاملت مع الرجل – أو بدأت – إن لم يكن على أنها ندٌّ له ، فعلى الأقل على أنها لم تعد ذلك التابع الذي لا كيان له ، وإنما صارت كائناً " يحاول " أن يصل إلى مستوى الرجل وينازعه السلطان ..

وفي كل ذلك برزت " فرديتها " التي لم يكن لها وجود من قبل ..

واشتغل الأطفال كذلك !

وبرزت – رويداً رويداً – لهؤلاء الصغار " فردية " متميزة ، يكتسبونها من عرك العمل لهم منذ طفولتهم ، ومن العملة القليلة التي تتحصل في أيديهم ..

وصار الجميع " أفراداً " متميزي الفردية !

* * *

لقد كان في هذه الفردية انحراف هائل خطير ..

ولم يكن ذلك حتماً بطبيعة الحال .. فليس حتماً أن تكون الفردية في ذاتها منحرفة .. فهي جزء أصيل من كيان الإنسان السليم . ولكنها انحرفت لأنها ولدت في ظل الجاهلية المنحرفة عن

منهج الله . ولأنها كذلك رد فعل عنيف غير متوازن لانعدام الكيان الفردي الذي أنشأه الإقطاع عدة قرون ..

لقد ذاق هؤلاء جميعاً فرديتهم المستقلة " المتحررة " من غير طريقها السوي ، الذي كان يضمن لهم – مع الإحساس بالذاتية المتميزة – توازناً في الإحساس بالحقوق والتبعات ، والحرية والالتزام .

فسكان المدينة الجدد كانوا – رويداً رويداً – قوماً يتحللون من الدين والأخلاق والتقاليد ، بتأثير الانتقال من الكبت العنيف في الريف إلى " حرية " المدينة وبحبحتها ؛ وبتأثير الانسلاخ التدريجي الدائم من الدين ؛ وبتأثير التفسير الحيواني للإنسان الذي بثته الداروينية في النفوس ؛ وبتأثير التفسير الجنسي للسلوك الذي بثه فرويد ؛ وبتأثير وجود الشباب الفاره القوة – في سن الشباب – بلا أسر تعصمه من الخطيئة ، فيلجأ إلى الحل الرخيص الذي تقدمه المدينة في صورة بغاء ..

والمرأة – وهي تحس رويداً رويداً بفرديتها – كانت تستقي هذه الفردية على انحراف . فهي خارجة من حالة انعدام الكيان .. في كل شيء . فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيد .. لازماً أو غير لازم .. وأخذت بالذات تسعى إلى تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد لأنها استُخدمت ضدها في معركة " التحرر " .. استخدمها الرجل ليصدها عن منافسته ، بينما كان هو في واقع حياته متحللاً من الدين والأخلاق والتقاليد ! ثم إنها بعد أن نكل الرجل – الجاهلي – عن إعالتها ، واضطرت – راضية أو كارهة – أن تعمل ، وجدت – في كثير من الأحوال – أن أخلاقها قيد يمنعها من التكسب . فالرجل – الجاهلي – الحيوان الذي تعمل عنده ، لا يتيح لها فرصة العمل إلا أن تتيح له من نفسها ما يطلبه الرجل الحيوان . وفوق كذلك فقد كانت تطالب " بالمساواة " مع الرجل ! المساواة في الأجر في أول الأمر .. ثم المساواة في كل شيء .. ومن بين ذلك المساواة في التحلل والإباحية والانطلاق !

ووراء الرجل والمرأة معاً كان التوجيه اليهودي الماكرالذي يريد أن يدمر " الأميـين " . توجيه ماركس وفرويد ودركايم : أن الأخلاق قيد لا معنى له . والجنس هو الوجود البـشري . والاختلاط هو السبيل .. [80] .

وحدث انحلال مدمر شنيع ..

لقد تحطمت روابط المجتمع ، وروابط الأسرة ، بل روابط الجنس ذاته ! فلم يعد الجنس – بصرف النظر حتى عن الأخلاق ! – رباطاً يربط بين رجل وامرأة بالعواطف الممتدة الطويلـة الأمد ، والمشاعر المشتركة .. وإنما أصبح لحظة جسد منهومة ، تنقطع بإشباع شهوة الحيوان ، وتتجدد على دواعي الجسد الشهوان . واعتبرت " العواطف " و " المشاعر " حتى بصرف النظر عن الأخلاق ، " رومانتيكية " مريضة متهوسة لا تعيش في " الواقع " . وإنما الواقع هـو هـذا الحيوان ، وهذا الجسد الشهوان .. كذلك أوحت لهم الجاهلية الداروينية ، وامتـدادها علـى يـد فرويد ، وغيره من " تلاميذه " و " حوارييه " في كل ميدان !

وفسد كيان الرجل والمرأة كليهما .. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله !

فأما الرجل – وقد فقد روابطه الاجتماعية وضعفت في نفسه روابـط الأسـرة وروابـط الجنس ذاته ! – فقد أصبح " شيئاً " أقرب إلى الآلة منه إلى الإنسان .. آلة منتجة ، ولكنهـا لا تكاد تفكر أو تحس .. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة ، بلا هدف شامل ولا وعي " بإنـسانية " الإنسان ! ثم إذا فرغ من الإنتاج المادي الذي يكبت كيانه الحي ويطمس إشعاعة الروح فيـه – بسبب " الأسلوب " الآلي الذي يؤدى بـه العمل – انطلق فـي حيوانية هابطـة يـشبع دوافـع الحيوان .. وتتحول الحياة في نظره إلى هذين الهدفين القريبين : إنتـاج كالآلـة .. وانطـلاق كالحيوان .

وأما المرأة فقد فسدت فطرتها من الداخل كذلك .

---

[80] انظر كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

كتبت الدكتورة بنت الشاطئ في جريدة الأهرام بعنوان " جنس ثالث في طريقه إلى الظهور " .

" .. شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي " فينا " – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبي حين فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة ، وفي يدها " بطاطس " تقشرها . ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

" ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتني قائلة :

" ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ يوم الأحد !

" قلت ضاحكة : أما العمل يوم الأحد فربما فهمته وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .

" فردت : لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالي في المطبخ ، فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي . إذ هو نوع من العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

" ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض ، وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات

أن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر ، مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته في ميدان عمله .

" واستند علماء الأحياء في هذا الغرض – نظريا – إلى قانون طبيعي معروف ، وهو أن " الوظيفة تخلق العضو " . ومعناه فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه " عالم الرجل " .

" ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً ، وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور " جنس ثالث " تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

" وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ، ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

" وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل .

" ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة ، تحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ،

وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فكـرة المـساواة علـى أعصاب المرأة ، وقوة رسوخها في ضميرها .

" وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيـان الأنثـى ، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن ، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة " .

* * *

أما الأطفال الذين أحسوا بفرديتهم في هذا الطوفان المنحل .. فقد أحسوا بها كذلك علـى انحراف .

فالأسرة المحطمة ، التي يعمل فيها الرجل والمرأة في المصنع والمتجر ، قد فقدت رباطها العاطفي والوجداني الذي كان يمسك بالأطفال في ترابط ، ويبذر فـي قلـوبهم " الحـب " و " المودة " ، وينشئهم متوازنين في الشعور والتفكير ، ويعلمهم آداب الجنس وينشِّئهم على احترام العلاقة التي يجيء عن طريقها النسل ، فلا تصبح شهوة جسد مرتكسة ، وإنما تـصبح روابـط على مستوى الإنسان .

فقدت الأسرة رباط الأم .. رباط الوجدان . وصار البيت أشبه بالفندق الذي يعـيش فيـه رجل وامرأة كأنما هما في علاقتهما " موظفان " يؤديان وظيفة الأبوة والأمومة " من الظـاهر " كما يؤدي الموظف عمله بلا حماسة ولا يسره أن يداوم عليه .. لولا " الروتين " الـذي يـسيِّر الحياة .

ومن ثم انحرف الأولاد .. سواء كانوا يتربون في الأسرة المفككة على يد " الخـادم " أو في المحاضن مع غيرهم من الأطفال " المشردين " عن الأمهات والآباء !

يقول " ألكسس كاريل " :

" ولقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاما . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما . وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل . إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم عنهم أموراً كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة ، لا تنمو نموا مكتملاً كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمضي في إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي للقوالب الموجودة في محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال في مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة في المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكي يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة " [81] .

ويقول ول ديورانت الفيلسوف الأمريكي :

" ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجاً بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط المساخر ... " [82] .

* * *

وفي هذه الأثناء كلها كانت " البرجوازية " الناشئة تسعى إلى مزيد من حرية " الفرد " .

---

[81] " الإنسان ذلك المجهول " ص 318 – 319 .

[82] " مباهج الفلسفة " ص 225 .

لقد كانت السلطة كلها – فيما سبق – في يد الإقطاعيين يسحقون بها مجمـوع الـشعب ، وتؤازرهم الكنيسة كهيئة إقطاعية ، وكهيئة ذات مصلحة ذاتية في إخضاع النـاس لـسلطانها " الروحي " ليعيش " رجال الدين " في مكان السيطرة الآمرة ، وفي نعيم مترف مقيم .

فلما أخذت " المدينة " في النمو ، وجدت الطبقة الجديدة من الموظفين وأصحاب الأعمـال وصغار الرأسماليين .. وجدت نفسها بلا حقوق ! فالبرلمان محتكر لرجال الإقطـاع . وحريـة القول والاجتماع والتعبير عن الرأي " الشخصي " ليس لها وجود .. وبـدأ الـصراع العنيـف لاستخلاص هذه الحقوق رويداً رويداً من رجال الإقطاع .

وكان في كل يوم نصر جديد " للديمقراطية " يتمثل في مزيد من التحرر " للفرد " .

إن التفسير الماركسي يصور الصراع على أنه صراع طبقي .. " الطبقـة " البرجوازيـة الناشئة تصارع " الطبقة " الإقطاعية العجوز .. ولكن هذا – إن كان صـحيحاً – لا ينفـي أن هؤلاء " البرجوازيين " [أي سكان المدينة] كانوا يحسون أنها معكرة فردية لكل منهم . معركة كل فرد منهم ليعبر عـن كيانه الفردي المتميز ؛ ليثبت وجوده الذاتي ؛ ليحس أنه إنسان قـائم بذاته ، وليس تبعاً لهذا وذاك .

وكل نصر جديد .. أي كل حرية تنتزع من الإقطاع ، كان معناها أن كـل " فـرد " قـد امتدت حريته إلى مجال جديد .. أي أنه صار يستطيع أن يصنع ما يحلو له هو شخـصيا فـي نطاق جديد .

ولم يكن هذا " التحرر " في ميدان السياسة وحده ، وإنما كان كذلك تحرراً – أو تحلـلاً – من الدين والأخلاق والتقاليد ، تحوطه ضمانات " التشريع " والتنفيذ والقضاء .. بوصفه مـن " الحرية الشخصية " ..

وهكذا اتكأت البرجوازية – في معركتها السياسية لانتزاع السلطان من الإقطاع – علـى الكيان الفردي المنطلق " المتحرر " الساعي إلى مزيد من التحرر ومزيد من السلطان .

وفي تلك الأثناء اتخذ الإنسان من نفسه إلهاً ، وعبد نفسه من دون الله !

* * *

وفي ظل ذلك كانت الرأسمالية النامية تجتاح الميدان .

تجتاحه على أساس فردي .. فهي تقوم على حرية كل " فرد " في أن يملك بكل وسائل الملك ، ويستغل ماله فيما يشاء من استغلال . وكذلك يستغل الطاقة الآدمية المتمثلة في العمال .

ودافع الرأسماليون دفاعاً عنيفاً عن حرية " الفرد " .. وقالوا – بطبيعة الحال – كلاماً " جميلاً " في حقوق الإنسان الفرد . والحريات التي ينبغي أن تكفل له . و " القداسة " التي ينبغي أن يتمتع بها في الحياة . وحقه في ألا يتعرض " المجتمع " لأعماله ، ولا أن يضع في سبيله القيود !

وكان شعارهم الذي رفعوه : " دعه يعمل . دعه يمر ! " – Laissez Faire Laissez Passer ممثلاً لذلك الاتجاه كله . فقد كان معناه : دع " الفرد " يعمل ما يشاء بلا حواجز .. دعه يمر بلا عوائق !

كانت دعوة للانطلاق من القيود !

ولكن هذا الكلام " الجميل " كله الذي قيل عن حرية الفرد ، وقداسة الفرد ، وحقوق الفرد .. لم يكن لوجه الله ! وإنما لوجه الشيطان ! لوجه الطاغوت المتمثل في الرأسمالية ! فالرأسمالية لا تستطيع أن تعمل – ما تشاء – ولا أن تمر – بلا حواجز – إلا في ظل هذه الحرية الفردية المطلقة من جميع القيود .

ولا مانع لدى هذه الرأسمالية الطاغية – في سبيل تحقيق سلطانها الطغياني – أن تنفخ في دعوة " الحرية " هذه حتى ينحل المجتمع كله . دينه وأخلاقه وتقاليده .. ورجاله ونساؤه وأطفاله وأسره وطوائفه . لأن الذي يهمها كله هو استخلاص أكبر قدر من الربح ، عن طريق أن تعمل

– ما تشاء – وتمر – بلا حواجز ! بل لعل انحلال المجتمع أكثر ربحاً لها ، لأنه يتيح استغلال المال في إثارة الشهوات ، والحصول على الأرباح مضاعفات !

وهكذا أنشأت الرأسمالية الطاغية فلسفة كاملة ، ذات مدارس وأساتذة ومؤلفين وصحفيين وكتاب وفنانين ... الخ ، تدعو إلى التحرر " الفردي " المطلق وتحطيم كل قيد يعوق هذا التحرر المجنون !

وفي ظل هذه الفلسفة المنحرفة صُوِّر المجتمع على أنه الغول البشع الذي يسعى لتحطيم كيان الفرد ، والذي ينبغي في ذات الوقت أن يقوم الفرد بدكِّه وتحطيمه ، جزاءً وفاقاً على ما يحمله في طياته من نوايا العدوان !

ولم يقف هؤلاء الفلاسفة والمفكرون ، والأدباء و الصحفيون ، والكتاب والفنانون .. الخ ، لم يقفوا ليسألوا أنفسهم : ما هذا المجتمع الذي ينبغي تحطيمه ليتحرر " الإنسان .. الفرد " ؟ ما هو ؟ أليس مجتمعاً " إنسانيا " في النهاية ؟ أليس " الإنسان " شاملاً للفرد وللمجتمع في ذات الوقت ؟ أليس المجتمع ناشئاً من ضمير الفرد : من رغبته في الاجتماع بالآخرين ، والأنس بهم ، والحاجة إليهم ؟! وحين يتحطم هذا المجتمع .. فكيف يعيش الفرد ؟ " أين " يعيش ؟ ما الإطار الذي يعيش فيه ؟!

ثم غفل هؤلاء الفلاسفة والمفكرون ، والأدباء والصحفيون ، والكتاب والفنانون .. لأنهم في جاهلية عمياء لا تهتدي بمنهج الله ولا نور الله .. غفلوا عن أن طاغوت الرأسمالية المدمر ، وهو ينفخ فيهم ليقرروا هذه الآراء المنحرفة ، لا يسعى – بعد حل روابط المجتمع كله – إلا لشيء واحد ، ناله بالفعل وحصل عليه ، هو استعباد هذا الشتيت المتنافر من " الأفراد " الذين لا يجمع بينهم رابط إنساني ، ولا مودة ولا قربى .. استعباده لطاغوت رأس المال ومصالح رأس المال ، وهو راغم صاغر ، ومستغفل مضلَّل ، يسوقه الطاغوت من خطامه .. عن طريق الشهوات !

*   *   *

وحين كانت " الفردية " تجنح جنوحها ذلك المدمر .. كان " رد الفعل " ينشأ على الجانب الآخر . جانب " الجماعية " ..

كانت هناك نظريات تقول إن الفرد لا وجود له ولا معنى له بمفرده ! إنما يستمد كيانه من المجتمع الذي يعيش فيه ، وليس من حقه ، بل ليس في إمكانه أن يحول المجتمع عن طريقه .. الحتمي !

كان دركايم يدلي بالتفسير " الجمعي " للحياة البشرية .. وماركس يدلي بالتفسير المادي للتاريخ ، القائم على قاعدة أن الأساس الاقتصادي هو الذي يكيف المجتمع ، والمجتمع هو الذي ينشئ الفرد ..

يقول دركايم :

" ... ولكن الحالات النفسية التي تمر بشعور الجماعة تختلف في طبيعتها عن الحالات التي تمر بشعور الفرد ، وهي تصورات من جنس آخر ، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد ، ولها قوانينها الخاصة بها " (83) .

" ... إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعية أشياء حقيقية **توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم** " (84) .

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] **يتم خارج شعور كل فرد منا** ، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية (85) ، فإنه يؤدي

---

(83) " قواعد المنهج في علم الاجتماع " ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي – مقدمة الطبعة الثانية ص 15 .

(84) ص 22 من المصدر السابق .

(85) من العجيب أن دركايم يقر هنا **بأن الظاهرة الاجتماعية تنشأ من عدد كبير من الضمائر الفردية** ولكنه سرعان ما ينسى هذه الحقيقة التي يقررها ، لشهوة مذهبية مستولية عليه في إنكار كيان الفرد !

بالضرورة إلى تثبيت وتقرير الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، **وهي تلك الضروب التي توجد خارجة عنا ، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا** " [86] .

" ... ... فلما كانت الخاصة الجوهرية التي تمتاز بها هـذه الظـواهر [الاجتماعيـة] تنحصر في **القيام بضغط خارجي على ضمائر الأفراد** ، كان ذلك دليلاً على أنها ليست وليدة هذه الضمائر " [87] .

" ... ... وسيرى المرء حينئذ كيف **تقتحم** الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلي للأفراد " [88] .

أما ماركس وإنجلز ، والتفسير المادي للتاريخ ، فهو يذهب خطوة أبعد ، وأسـوأ ، فـي تفسير الإنسان :

" فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة " [ماركس] .

" الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي " [إنجلز] .

" فالإنسان " كله ليس له وجود ذاتي في رأي ماركس وإنجلز ؛ لا شعوره ولا أفكاره ولا بواعثه الذاتية ، وإنما هو مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي الذي يوجد خارج كيان الإنسان **!**

" في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنـى لهـم عنها ، **وهي مستقلة عن إرادتهم** .. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم " [ماركس] .

---

[86] ص 25 .

[87] ص 166 .

[88] ص 66 .

" إن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات السياسية **لا يجوز البحث عنها في عقول الناس ، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين** ، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [إنجلز] .

ولكن المهم – هنا – أن التفسير المادي للتاريخ حين يتحدث عن " الإنسان " لا يتحدث عنه فرداً . فهو مشغول دائماً " بالعمليات الاجتماعية " .. ولا يتصور للفرد وجوداً إلا من خلال العمليات الاجتماعية .

الفرد لا وجود له في رأي ماركس وإنجلز .. فهو لا بد أن يتمثل في " طبقة " ! ولا بد أن يتشرب ويتكيف بمصالح الطبقة التي ينتمي إليها . وانتماؤه إليها هو الذي يحدد له مشاعره وأفكاره ، وأخلاقه وتقاليده ، وموقفه من الحياة .. أما أن يفكر في الحياة فرداً مستقلاً ذا كيان متميز ، ويكون له – على هذا الوضع – أفكار ذاتية أو مواقف ذاتية ، فمسألة مستحيلة في عرف التفسير المادي للتاريخ ! والفرد المتميز الذي تحكي عنه وقائع التاريخ هو أسطورة صنعها الناس (لماذا ؟!) . وحقيقة الأمر ، التي تبينها الدراسة " العلمية " أنه لم يوجد قط فرد من هذا النوع ، إنما كان الفرد دائماً متمثلاً في طبقة خلال التاريخ كله . ثم كان الفرد " المتميز " دائماً مجرد إنسان أبعد نظراً أو أكثر استشفافاً للاتجاه الطبقي المقبل ، الحتمي ، الذي تفرضه التطورات الاقتصادية والمادية ، فقام يبشر بالاتجاه " الحتمي " المقبل !

وإذن فالإنسان كله في مقام التبعية للتطورات الاقتصادية والمادية الحتمية ، والفرد – من هذا الإنسان – في مقام التبعية الدائمة للمجتمع ، التابع بدوره لهذه التطورات !

وفي تلك الفترة تحول الإنسان من عبادة نفسه ، إلى عبادة الآلهة الجديدة ... آلهة الحتميات !

* * *

انحراف جاهلي آخر لا يقل تطرفاً عن الانحراف الجاهلي السابق ، الذي أبرز الفرد على حساب المجموع !

كلاهما رد فعل لحركة سابقة .. وكلاهما يتسم بالتطرف المعيب !

إن الذي لا تطيق الجاهلية أن تتصوره في كل مرة ، أن الفرد ليس منفصلاً عن المجموع ! كلاهما أصيل ، لأنه حقيقة !

من أين يأتي المجتمع إن لم يأت من مجموع الأفراد ؟!

إن نقطة الضلال الأكبر في التفسير الجمعي للحياة البشرية ، أنه يرى جانباً واحداً من هذه الحياة : جانب خضوع الفرد لأشياء يفرضها المجتمع عليه ، على غير هواه !

وتلك ولا شك حقيقة .. ولكن ما دلالتها ؟

لقد أقر دركايم – وإن كان قد سحب اعترافه في نفس اللحظة ! – بأن الظاهرة الاجتماعية تحدث نتيجة عدد كبير من الضمائر الفردية .. أي .. ماذا ؟ أي أن الفرد – بطريقة ما – ممثل في هذا المجتمع تمثيلاً إيجابيا له ضغطه ووزنه ودفعه للحياة . والإخضاع الذي يفرضه المجتمع على الفرد في بعض أمره – بل في كل أمره حسماً للجدل ! – ليس له إلا حالة من حالتين :

إما أنه إخضاع " صالح " .. فمعنى ذلك أن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الصالحة يفرض سلطانه على الفرد المنحرف ويقول له : مكانك ! لا تخرج على الحدود المرسومة !

وإما أنه إخضاع فاسد . فمعنى ذلك أن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الفاسدة – أي الطاغية المنحرفة – يفرض سلطانه على الفرد الصالح ويقول له : إما أن تسير معنا ، وإما أجليناك عن الطريق !

وفي كلتا الحالتين هو اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية . تزداد قوة باجتماعها . نعم . ولكن لا تخرج عن طبيعتها " الإنسانية " في النهاية . فالفرد والمجتمع – كلاهما – هما " الإنسان " ! وليس الفرد وحده ولا المجتمع وحده هو الذي ينحصر فيه وصف " الإنسان " !

والتفسير الجمعي أو التفسير المادي يخلطان المسألة خلطاً لا يتميز فيه كيان الفرد ، لأنهما – كما قلنا – يأخذان جانباً واحداً من الحياة ، هو خضوع الفرد للمجتمع في **جميع** الأحوال .

ولكنهما – في عماية جاهلية – ينكران الواقع .. الواقع الذي يسجل خروج أفـراد علـى مجتمعاتهم ، ووقوفهم منها موقف المناجزة والصراع .

وكون المجتمعات تسحقهم ، ليس هو موضع الدلالة هنا . فالمهم أنه يحـدث بالفعـل أن يحس فرد بكيانه المتميز إلى الحد الذي يقف فيه إزاء " المجتمع " يعارضه ويتحدى سلطانه .

ثم إنه ليس صحيحاً أن المجتمعات في كل مرة تسحق هؤلاء الأفراد !

لا في الخير ولا في الشر يصح هذا الزعم المذهبي المتعصب الذي ينكر الحقيقة !

ولنبدأ بمثال الشر ، لأنه أقرب إلى واقع هذا التفسير الجاهلي المتعصب !

ما القول في تاريخ ستالين ؟!

كيف يصفه خروشوف ؟

ألم يقل عنه إنه أبشع مثال للزعامة الفردية التي فرضت على " المجتمـع " عبادتهـا ؟! فكيف كان ذلك يا أيها التفسير الجاهلي للتاريخ ؟

إنه – حسبما وصفه المخلص الأمين خروشوف – لم يكن يمثل مصالح المجتمع الحقيقية . ولم يكن بالتالي يمثل مصالح " الطبقة " الحاكمة (نظريا) !) وهي طبقة البروليتاريا .. إنمـا يمثل شهـوة سلطان فردي طاغ لا يرحم .. فما تفسيره إذا ألغينا بالكليـة التفـسير الفـردي للتاريخ .. ؟!

ومن جانب الخير .. الأنبياء والقديسون والدعاة والمصلحون .. الذين يبرزون أفراداً في وسط طاغوت المجتمع ، فيقفون له وقفة الحق ، ينتصرون للخير ، وللحق والعدل الأزليـين .. وينتصرون . إما نصراً مباشراً يشهدونه في أثناء حياتهم ، وإما نصراً لأفكارهم ومبادئهم .. ما تفسيرهم إذا ألغينا بالكلية التفسير الفردي للتاريخ .. ؟!

على أنه لا ينبغي أن يفسر التاريخ البشري بالأفراد وحدهم ، ولا بالمجتمعات وحدها .. فكلاهما تفسير جاهلي منحرف عن " الواقع " التاريخي ذاته ..

إنما يفسر " بالإنسان " .. الإنسان الشامل الذي يشمل الفرد والمجتمع معاً ، متفاعلين تفاعلاً دائماً في واقع الحياة .

ولقد يبرز الفرد مرة .. ويبرز المجتمع مرة .. ولكن هناك بديهية تعمى عنها المذاهب الجاهلية ، هي حقيقة التفاعل المشترك بين شِقّي الإنسان : الفرد والمجتمع معاً ، في كل لحظة على مدار التاريخ .

الفرد يعمل عن طريق المجتمع ، والمجتمع يعمل عن طريق الأفراد .. ولا وجود لأحدهما خارج كيان الآخر ، كما يتصور التفسير الجاهلي الفردي ، أو التفسير الجاهلي الجمعي .. كلاهما سيان !

* * *

وواقع البشرية في ظل الجاهلية الحديثة هو أن تختار لها لوناً من ألوان الطغيان !

إما أن تختار طغيان الفرد .. فتنخرط في سلك الدول الفردية الرأسمالية . وإما أن تختار طغيان المجتمع ، فتنخرط في سلك الدول الجماعية .. هذا إذا كان لها حق الاختيار ! فالبشرية في ظل الجاهلية لا تملك الاختيار .. إنما يحكمها الطاغوت الذي تخدمه الظروف فيقفز إلى السلطان !

وتلك حصيلة الانحراف " المزمن " عن منهج الله !

حصيلته أن يضيع الكيان الحقيقي " للإنسان " !

فالفرد المنسلخ عن المجتمع ، ينسلخ عن جزء أصيل من كيانه . كيانه هو الفردي . ويقف موقف الصراع من ذات نفسه . وينتهي به الأمر إلى الجنون والانتحار ، وضغط الدم وفساد الأعصاب .. و " اللامعقول " !

والمجتمع الذي يسحق كيان أفراده ، يسحق في النهاية ذاته ! إن حصيلة " الأصفار " البشرية لا يمكن أن تكون كمية موجبة ! إنما هي مطية للطاغوت الحاكم ، الذي يكون هو " الزعيم الأوحد " وهو حاكم متمتع بالسلطان ، و " المجرم الوحشي " إذا مات أو انزلق عن السلطان ..

ثم تقول الجاهلية عن نفسها إنها في قمة " التطور " البشري ! وإنها قد استغنت عن وصاية الله !

في الأخلاق ..

لعل من أشد ما يفتن الناس في الجاهلية الحديثة أنها ذات " أخلاق " !

انظر إلى هذا الرجل الغربي المهذب .. إنه شخص ذو أخلاق .. إنه لا يكذب عليك ولا يغشك ولا يخادعك . إنه يحدثك في استقامة ، ويعاملك بأمانة . ثم إنه مخلص في عمله ، صادق النية في خدمة " وطنه " .. " مثال " في كل شيء ..

فأما المسألة الجنسية .. فدعك منها ! إنهم – هناك – لا يعتبرون لها صلة بالأخلاق ! وليست العبرة بهذه النقطة .. يا ليتنا يا سيدي نفسد مثلهم ، ويكون لنا أخلاق !

وسوف نتتبع هنا تاريخ الأخلاق في الجاهلية الحديثة ، لنرى إن كانت سائرة في طريق الصعود أم في طريق الانحدار .. ونرى – على ضوء الواقع الحقيقي ، بعيدا عن الهالات – كم بقي في العالم الغربي من أخلاق .

ولكننا نود قبل أن نسير مع خطوات التاريخ ، أن نؤكد المعنى الذي أشرنا إليه أكثر من مرة من قبل : إنه لا يوجد جاهلية واحدة في التاريخ خلوا من " جميع " الأخلاق . فليس في طاقة البشرية أن تفسد كلها .. وفي كل شيء ! لأن النفس البشرية لا يمكن أن تتمحض – في مجموعها – للشر . ولا بد – مهما فسدت – أن تبقى منها لمحات متناثرة من الخير هنا وهناك .. ولكن وجود هذا الخير المتناثر – في أية صورة وفي أي مجال – لا ينفي عن الجاهلية انحرافها ، ولا يعفيها من النتائج الحتمية لهذا الانحراف .

وقد كانت الجاهلية العربية حافلة بألوان من " الفضائل " .

كان فيها الشجاعة والإقدام ، وبذل النفس رخيصة في سبيل ما تؤمن به من هدف . والكرم . والأنفة وإباء الضيم ..

ولكن ذلك كله لم يعفها من كونها جاهلية . ثم لم يعفها من نتائج ضلالها . فقد كانت هذه " الفضائل " ذاتها – لبعدها عن منهج الله – تنحرف عن طريقها القويم . كانت الشجاعة والإقدام وبذل النفس تضيع في جاهلية الأخذ بالثأر ، والتناصر على ضلال . لا يهم إن كان الذي ينصرونه على الحق أو على الباطل . إنما " ينفرون " لهيجة القتال بمجرد استثارتهم ، لا لدعم حق ولا إزالة باطل .. فكان الباطل يتراكم على الدوام ! وكان الكرم ينقلب مباهاة فارغة ! فذبح الذبائح وقرى الضيف .. لكي يتحدث بذكره الركبان ! فإن لم يكن ركبان ولا حديث . إن كان إعانة للضعيف والمحروم – لوجه الله – فعند ذلك يدرك النفوس الشح وتمتنع عن العطاء ! وكانت الأنفة وإباء الضيم تنقلب استكباراً آثما عن اتباع الحق ! فليس الحق هو الأصل وإنما هو " الأنا " الطاغية " ، ولو علم صاحب " الأنا " بينه وبين نفسه أنه على ضلال !

والجاهلية الأوربية حافلة بألوان من الفضائل في مجال التعامل الفردي : الصدق والإخلاص في العمل والاستقامة والأمانة ونظافة التعامل .. ولكنها – لبعدها عن منهج الله – تنحرف عن طريقها القويم . فقد تحولت – كما سنرى بعد لحظة – إلى فضائل " نفعية " ! يتبعها من يتبعها لأنها – في مجموعها – " نافعة " في التعامل .. تجعل عجلة الحياة تسير هينة بلا احتكاك . أما حين تفقد " نفعها " فهي تفقد كذلك رصيدها عند ذلك الأوربي " الفاضل " .. وتصبح في نظره حماقة " مثالية " لا تستحق الاتباع .

* * *

ولا نتعجل الحديث .. فسنتتبع – على هينة – خطوات التاريخ .

" كانت " الأخلاق الأوربية مستمدة كلها من الدين . وليس هناك مصدر للأخلاق في الحقيقة سوى الدين ! والبشرية تنحرف في عقيدتها بعد أن تكون على الحق ، فتنحرف معها أخلاقها . ولكن انحراف الأخلاق بطيء بطيء إلى أقصى حد .. لا يتم في جيل واحد ، بل أجيال .. ومن ثم يحدث ذلك المظهر الخادع الذي خدع الجاهلية الحديثة ، وخدع معها عشاقها .. أن يوجد الانحراف عن العقيدة ظاهرا ، ولا يكون الانحراف عن الأخلاق قد اتضح

بعد وأخذ صورته الحادة .. فيظن الناس لأول وهلة أنه لا صلة بين العقيدة والأخـــلاق . وأنـــه يمكن أن ينحرف الناس عن العقيدة ما شاءوا ، ثم تظل لهم أخلاق !

وهو وهم خادع .. سببه اختلاف السرعة في الانحدار ! وسببه أن النفس تحتجز رصيدها الخلقي – بحكم العادة والتقاليد – أمدا طويلا بعد أن تكون قد فقدت " الإيمان " به كجــزء مــن العقيدة .. وقد تحتجزه فترة – على وعي – منفصلا عن العقيدة .. على أنه شيء " ينبغي " في ذاته أن يقوم .. ولكن النتيجة الحتمية واحدة في النهاية .. إنه ما دامت العقيدة قد انحرفت فلا بد أن تنحرف الأخلاق . وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة ، فلا بد أن تموت .

وهذا هو الذي حدث – في تدرج بطيء – في الأخلاق الأوربية ، التي ما زالت بقية منها تضلل الجاهلية الحديثة عن حقيقة الواقع ، فتحسب أنها ذات أخلاق .

* * *

كانت الأخلاق الأوربية ذات يوم مستمدة كلها من المعين الذي لا معين غيره للأخلاق .. معين الدين .

وكان هناك مصدران لهذا الرصيد الخلقي في أوربا : أحدهما الديانة المسيحية ، والثـــاني هو الإسلام .

فأما الديانة المسيحية – منذ أدخلها قسطنطين في أوربا – فقد صبغت الحياة الأوربية بمُثل أخلاقية معينة ، ظلت قائمة أمداً في نفوس الناس ، رغم ما دخل في هذه الديانـــة – علـــى يـــد قسطنطين ذاته – من انحراف [89] . غير أن هذه الأخلاق كانت تتسم بصورة سلبية لا تواقــع الحياة . لقد كان المسيح عليه السلام وهو يقول للناس : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر " يقصد تطهير الأرواح من الداخل ، ولم يكن قط – وهو نبي الله ورسوله – يقــصد أن يبذر الذلة والخنوع في النفوس . ولكن الصبغة العامة للأخلاق االمسيحية في العصور الوسطى كانت تتسم بهذا الطابع ، الذي لم يقصده – ولا شك – السيد المسيح ، إنما اتكأ عليــه أتباعــه

---

[89] راجع شهادة دريبر الأمريكي في فصل " صفحة من التاريخ " ص 28 من هذا الكتاب .

لظروف محلية في داخل الإمبراطورية الرومانية الجانحة إلى المادية الطاغية ، والتجبر ، والفساد .

ثم احتك العالم الصليبي بالعالم الإسلامي في الحروب الصليبية ، ودخل الصليبيون بلادا إسلامية وأقاموا فيها فترة من الوقت ، وأقاموا دويلات مؤقتة في بعض بلاد الشام .

وامتزج الصليبيون بالحياة الإسلامية عن كثب ، وأفادوا منها الكثير .. أفادوا منها نظرة إيجابية للحياة .. مع المحافظة على " الأخلاق " .

لقد كانوا يرون المسلمين – في داخل دويلاتهم – إذا أذَّن المؤذن تركوا دكاكينهم مفتوحة أو شبه مفتوحة ، بكل ما فيها من البضائع الثمينة ، لا يحرسها شيء ، وهرعوا إلى الصلاة في المسجد .. فإذا قضيت الصلاة وعادوا إلى دكاكينهم لم يكن شيء قد سرق منها .. لأن الناس أمناء ، بالإسلام .

وكانوا يرون المسلمين " أمة " مترابطة . يجمع بينهم شعور " الأمة " الواحدة – في ساعات الخطر على الأقل ! – فيتعاونون ، ويتوادون ، ويتراحمون ، ويخلص بعضهم لبعض ، بصرف النظر عن الحكام .

وكانوا يرون الصانع المسلم مثالا للجد والنشاط والأمانة .. أمانته هي رأس ماله الأول . وجدّه هو رصيده الواقعي للتقدم .. ومن ثم تقدمت بينهم الصناعات وتوافر الإنتاج .

وغير ذلك من الفضائل كانوا يلمسونه في واقع المسلمين الذين احتكوا بهم .. وبخاصة " الوفاء بالعهد " أشهر ما لمسه الصليبيون في تعاملهم مع المسلمين ، وعلى الأخص مع صلاح الدين .

ومن هذا الرصيد المتجمع كله ، ومن حصيلة العلم الذي أخذوه عن المسلمين في المغرب والأندلس قامت النهضة الأوربية الحديثة في كل ميدان .

* * *

ولكن النهضة – لظروف بيّناها تفصيلا من قبل – قد انحرفت عن عبادة الله . وعــادت وثنية .. يونانية ورومانية ، وإن بقيت العقيدة رصيدا باهتا في داخل الضمير .

وهنا أضيف إلى حصيلة الأخلاق في النفس الأوربية رصيد ثالــث .. هــو " الفلــسفة " المستمدة من الثقافة الهيلينية ، ثقافة " الأبراج العاجية " ذات المُثل المعلقة في الفضاء .

وبدأ الانحراف في الأخلاق منذ ذلك الحين !

ولأن الانحراف فــي الأخلاق يكون بطيئا جدا وتدريجيا جدا .. لم تتبين للنــاس حقيقــة الأمر .. عدة قرون .

لقد كان من أثر دخول الرصيد اليوناني في حصيلة الأخلاق الأوربية أنهم تصوروا أنــه من الممكن – ومن المستساغ – أن تقوم المثل الأخلاقية في الفضاء .. في الأبــراج العاجيــة ، بينما السلوك الواقعي يسير في خط آخر ، محكوم – كما يقولون – بالضرورات .

وهذه التفرقة بين النظرية والتطبيق ، رصيد أوربي بحت ، أنتجته الجاهلية الحديثة بوجه خاص ، وصبغت به " أخلاقيات " العالم كله في كل مجال ، فصار من المستساغ عند الناس أن يتحدثوا عن " النظرية " الأخلاقية ويستمتعوا بها في ذاتها – في عالم المثل – ثــم لا يتوقعــوا تطبيقها في واقع الأرض ، وإنما يسيرون في هذا الواقع بحسب ما تقتضيه " الظروف " !

وفي ظل هذه الجاهلية في التصور ، ولدت " المكيافيلية " التي تــسم بطابعهــا الــسلوك الغربي كله . في كل مجال تجد فيه أوربا أن " المثل " لا تسعفها " بالفائدة " المطلوبة !

وبدأت المكيافيلية في السياسة ...

كانت السياسة أول ما تأثر بعملية الفصل بين النظرية والتطبيق !

وسارت أوربا في السياسة على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة ! فكل وسيلة – مهما كانت قذارتها وبشاعتها – مستساغة ما دامت توصل إلى الهدف المطلوب .

وفي الداخل والخارج طبعت المكيافيلية سياسة أوربا بطابعها .

الملوك والأشراف ورجال الدين يتبعون أخس الوسائل للمحافظة على ما لهم من سلطان . والرأسمالية من بعدهم ترثهم وترث وسائلهم وتزيد عليها .. بشاعة زائدة في التــواء الــسلوك لتحقيق المصالح غير المشروعة التي تعيش عليها .. حتى لا يعود هنــاك مــانع فــي نظــر الرأسمالية الأمريكية مثلا من قتل كنيدي .. للمحافظة على مستوى الأرباح !

أما في الخارج فالأمر أشد بشاعة .. الاستعمار يتوسل بكل ســفالات الأرض ودناءاتهــا ليوطد سلطانه ، ويمتص دماء الناس .. ولا يرى في ذلك انحرافاً ! فالغاية تبرر الوســيلة ! ولا يهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة .. ففي عالم المثل توجد النظافة .. لا في عالم الواقع المشهود !

وهكذا انفصلت السياسة عن الأخلاق في أوربا .. وقال الناس : لا ضير ! إنهــا هكــذا " السياسة " .. لا صلة لها بالأخلاق !

* * *

كان ذلك بدء الانحراف .. ولكنه لم يكن كل الانحراف .

وخدع الناس فلم يفطنوا إلى الحقيقة .. أنه ما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فــي الله ، فلن تثبت في الأرض ، ولن تصمد للعقبات !

خُدِعوا .. لأنهم رأوا رصيداً ضخما من الفضائل ما زال باقياً في واقــع الأرض .. لــم يتطرق الفساد إليه .. فظنوا – مخدوعين – أن السياسة شأنها هكذا حقيقة .. لا تخضع لقواعــد الأخلاق ! وأن ما حدث لم يكن هدماً للأخلاق ولا انتقاصاً من رصيدها النبيل ، وإنما هي نظرة " واقعية " للأشياء ، لا تحلم بالمثل المستحيلة التطبيق !

ولكن السنة الحتمية لا تتخلف ! فما دامت الأخلاق قد انفصلت عــن العقيــدة ، معينهــا الطبيعي الذي يجدد حيويتها ، ويمنحها الإخلاص والصدق ، فلا يمكن أن تثبت !

لقد استبدلت أوربا بالدين الفلسفة .. وصاغت منها قواعد أخلاقها .. أو أنها في الحقيقة – كراهية في الدين – قد أعطت ثوباً فلسفياً لما كان باقياً لديها من رصيد خلقي لم يفــسد بعــد ..

فصار الناس يمارسون الفضائل – الموروثة – ثم ينفرون مـن أن يحسوا بأنها مستمدة من الدين ! فيفسرونها " بالواجب " أو " بالضمير " أو بكـذا .. وكـذا .. ويأبون أن يفسروها بالدين [90] !

ولكن هذه الأخلاق ، المنفصلة عن معينها ، لم يكن يمكن أن يكتب لها الدوام .

أخذ الاقتصاد – من بعد السياسة – ينفصل عن الأخلاق !

حقيقة إن الوضع الاقتصادي في أوربا كان قائماً منذ البدء على أساس غير أخلاقي . فقد كان نظام الإقطاع المعتمد على عبيد الأرض قائماً في الإمبراطورية الرومانية من قبل المسيحية بكل شناعاته ورذائله ، ولم تستطع المسيحية – في صورتها الزائفة التي فرضها الإمبراطور قسطنطين على الإمبراطورية فرضاً ، وتولت الكنيسة صياغتها حسب أهوائها – لم تستطع هذه المسيحية الكنسية المحرفة أن تخضع الوضع الاقتصادي في الإمبراطورية لقواعد الأخلاق المستمدة من الدين . بل إن الكنيسة ذاتها انقلبت بعد أجيال قليلة إلى مؤسسة إقطاعية ، تمارس في ممتلكاتها كل ما يمارسه الإقطاعيون من مظالم كريهة .. باسم الدين !

ومع ذلك فقد كان الانحراف الخلقي في الاقتصاد الإقطاعي محصوراً في هـذا الوضع الموروث من قبل ، الذي عجزت الكنيسة المسيحية عن تعديله . واستطاعت تعاليم الدين – على الرغم مما أصابها من انحراف ومسخ – أن تجعل التعامل بالربا – مثلا – أمرا مستبشعا لا يلجأ إليه الناس في تعاملاتهم الاقتصادية إلا كارهين .

فلما جاء الانقلاب الصناعي والرأسمالية كان الناس قد بعدوا أشواطاً عن العقيدة وأشواطاً عن الأخلاق ! ومن ثم لم تجد الرأسمالية الناشئة حاجزاً يحجزها عن انتهاك كل ما رغبت في انتهاكه من مبادئ الأخلاق .

---

[90] انتشر هذا المفهوم – بالعدوى – في الشرق " الإسلامي ! " فتجد أحدهم يقول لك : أنا لا أشرب الخمر .. ثم يسارع فيقول لك كأنه ينفي عن نفسه تهمة كريهة : لست أفعل ذلك عن تدين !! وإنما كراهة في الشراب !

الربا .. المحرّم في المسيحية – واليهودية من قبل – كان هو الأساس الذي قامت عليه الرأسمالية من أول لحظة ، بكل ما يشتمل عليه من قبائح وظلم ، واغتصاب للجهد المبذول ، واستمتاع فاجر بالكسب الذي لم يتعب فيه آخذه ، وإنما يأتيه الكسب سهلاً ميسراً وهو قاعد مستريح !

ثم كان الاستغلال البشع لجهد العمال لقاء القوت الضروري ، بل لقاء أجر يقل أحياناً عن الكفاف ..

وكان استغلال الأطفال – في طفولتهم الغضة – يعملون الساعات الطويلة المنهكة لقاء دريهمات ..

وكان استغلال المرأة لمضاربة الرجل وتفتيت عزيمته حين أخذ يطالب برفع الأجور وتحسين أحوال العمل .. ثم استغلالها لإرضاء شهوات الرجل الهابطة ، وقهرها على بيع عرضها لقاء لقمة الخبز !

وكان إفساد الأخلاق بالجملة لإتاحة فرص الربح المجنون للرأسمالية ، في " الملاهي " والملذات ، وأدوات الزينة والملابس و " المودات " و " التقاليع " .. !

وكان نهب المواد الخام من البلاد المستعمرة لتحصل الرأسمالية على الربح الفاحش ، وتترك الملاك الأصليين في الفقر والتأخر والجهل والمرض والعجز .. مع تصدير المفاسد الخلقية إليهم لتربح الرأسمالية عن طريقها مزيداً من الأرباح !

وكان شراء الذمم والضمائر – في السياسة الداخلية – لضمان تسيير السياسة حسب أهواء الرأسمالية الحاكمة ، وفي السياسة الخارجية للإبقاء على مصالح الرأسمالية والاستعمار ..

وسخرت الرأسمالية أيما سخرية من الذين يواجهونها بالدعوة الخلقية والرجوع إلى مبادئ الأخلاق !

وظهرت نظريات " علمية ! " تقول إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة .. قوانينه الحتمية التي لا علاقة لها بالأخلاق .. بل لا علاقة لها " بالناس " على الإطلاق !

وهكذا انفصل الاقتصاد عن الأخلاق انفصالا كاملا .. وهز الناس أكتافهم ، وقالوا : هذا شأن الاقتصاد .. إنه لا يخضع لقواعد الأخلاق !

* * *

ثم أخذ الجنس – من بعد السياسة والاقتصاد – ينفصل عن الأخلاق !

على هدى التفسير الحيواني للإنسان ، والتفسير الجنسي للسلوك ، وفي ظل الانقلاب الصناعي الذي ولد في الجاهلية المنحرفة عن العقيدة .. أخذ الناس يغرقون في حمأة السعار الجنسي المجنون ..

وفي مبدأ الأمر كان واضحاً للناس ولا شك أن هذا فساد في " الأخلاق " !

ولكن رويداً رويداً نسي الناس هذه الحقيقة .. أو أنستها لهم الشياطين !

ماركس .. وفرويد . ودركايم .. وغيرهم من الشياطين ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول .. غروراً [91] .

ماركس – ومعه التفسير المادي للتاريخ – يقول : إن " العفة " الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعي البائد ! كقيمة موقوتة لا بد أن توجد في هذا الطور الاقتصادي .. لا كقيمة ذاتية ينبغي أن تتبع بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية ، لأنها مرتبطة بكيان " الإنسان " ذاته المتميز عن الحيوان !

وفرويد يقول : إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي . وكل قيد – من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد – هو قيد باطل ، ومدمر لطاقات الإنسان .. وهو " كبت " غير مشروع !

---

[91] انظر فصل " اليهود الثلاثة " في كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

ودركايم يقول :

" إن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق . وكذاالأمر فيما يتعلق بالدين ، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان .. الخ [يقصد الرسل والأنبياء والقديسين] **ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها** [92] ! "

ويقول :

" ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وإن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على **أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان** [93] " .

ويقول :

" وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها إذا صح هذا التعبير .. ومن ثم فليس من الممكن ، تبعاً لهذا الرأي ، أن تصبح مجموعة **القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها** موضوعاً لعلم الأخلاق [94] " ..

وسنتحدث عن الفساد في علاقات الجنسين في الباب القادم من هذا الفصل . ولكننا هنا نشير فقط إلى دلالات خط التاريخ ..

لقد غرق الناس في حمأة الجنس بتأثير هذه المبادئ الهدامة ، ثم نسوا أنهم بذلك ينحرفون عن " الأخلاق " فراحوا يقولون : إن الجنس عملية " بيولوجية " بحتة لا علاقة لها بالأخلاق **!!**

---

[92] قواعد المنهج في علم الاجتماع ص 165 .

[93] ص 173 .

[94] ص 59 – 60 .

كما قالوا من قبل : إن السياسة هي سياسة ولا علاقة لها بالأخلاق ! وكأنهم حين يقولون ذلك بأفواههم يغيرون حقيقة الواقع ، أو ينفون عن هذا الواقع ثقلة الانحراف ، ونتائج الانحراف !

وهكذا انفصل الجنس عن الأخلاق كما انفصلت السياسة والاقتصاد من قبل ، وانهار ركن جديد من الأخلاق بعد إذ انفصلت عن معينها الحقيقي الذي لا معين غيره .. معين الدين !

* * *

وإذ كان التحول في مجال الأخلاق تدريجياً وبطيئاً .. وإذ كانت الحصيلة التي جمعتها الأجيال تحتاج – في هدمها – إلى أجيال .. فقد انفصلت السياسة والاقتصاد عن الأخلاق ثم انفصل الجنس ، وبقي بعد ذلك رصيد ضخم من الأخلاق لم يكن قد فسد بعد .. فخيل للناس – في جاهليتهم – أن الأخلاق يمكن أن تنفصل عن العقيدة في الله وتظل مع ذلك حية فاعلة في الأرض .. وخيل إليهم – بما نفخت الشياطين في أذهانهم من المذاهب والنظريات – أن السياسة والاقتصاد والجنس ، لا علاقة لها بالأخلاق حقا ! فهي محكومة بقيم أخرى واعتبارات أخرى غير القيم والاعتبارات الخلقية .. وأن " الأخلاق " باقية بخير ، ومستمرة في فاعليتها .. حتى بعد انفصال السياسة والاقتصاد والجنس .. لن تتأثر بهذا الفساد ، الذي آن لنا أن نكون " واقعيين " فلا نسميه فساداً .. ولنسمه مثلا .. تطوراً .. أو فلنسمه .. ضرورة حتمية ! والتطور والحتمية كلاهما قوة لا تناقش ولا تعارَض ، ولا توضع – كالأشياء الأخرى – في الميزان . فهي ميزان نفسها . ولا تقاس بشيء خارج عنها .. أو ليست " آلهة " ؟ لا تُسأل عما تفعل ! فلنقبل حكمها صاغرين .. بل فلنتقبل حكمها مسرورين !

* * *

ومضت العجلة خطوة أخرى في طريق الانحدار .. فما كان يمكن أن تقف عند حد معين .. ما دامت في طريق الانحدار !

لقد كان قد بقي رصيد من الأخلاق الحقيقية في أوربا .. رصيد من الفضائل الإنسانية الخليقة بالإعجاب . الصدق والأمانة والاستقامة والجلد على العمل والإخلاص فيه .. والقدرة

على التنظيم .. والتوجّه إلى الإنتاج والصبر على مقتضياته ، والكفاح من أجل تحسين الحيـــاة وتجميلها وتيسيرها ..

وهي كلها جزء من الرصيد الأصلي للأخلاق ، الذي استمدته أوربا من معينـــه الأول – معين الدين – ســـواء المعين المسيحي والمعين الإسلامي .. مضافاً إليه الـــروح الرومانيـــة " القديمة " ، النشيطة في عالم المادة والإنتاج المادي ، المتجهة إلى " التنظيم " و " التحسين " .

ولكن الروح الرومانية ذاتها هي التي أفسدت ذلك الرصيد !

وكما أفسدت الهيلينية رصيد الأخلاق من قبل ، ففصلت بين المثال والواقـــع ، وأباحـــت الاستمتاع بالمثل الأخلاقية – في الأبراج العاجية – دون أن يكون لها رصيد من الواقع [ونشأت عن ذلك المكيافيلية في عالم السياسة] فكذلك أفسدت الروح الرومانية ما تبقـــى مـــن رصـــيد الأخلاق .. من ناحيتين :

إن الروح الرومانية – كانت – نفعية من ناحية . وأنانية من ناحية .

ومن هذين الانحرافين في الجاهلية الرومانية القديمة حدث الانحراف في الرصـــيد الـــذي تبقى من الأخلاق في الجاهلية الحديثة .. فصارت نفعية .. وصارت أنانية ..

إن الصدق والإخلاص والأمانة والاستقامة .. الخ ، فضائل . ولكنها يمكن أن تتم علـــى مستويات مختلفة ، وليست صورة واحدة مفردة ..

يمكن أن تتم على مستوى " إنساني " .. وهذا هو الخليق بها .. وهذه صورتها الحقيقيـــة الأصلية التي تستمدها من معين الدين . ويمكن أن تتم على مستوى " قومي " أي أنها لا تطبـــق إلا في حدود " القومية " التي يعيش الإنسان في داخلها ، فإذا خرجت عن حدود هذه القوميـــة – الضيقة – مهما اتسعت – عن النطاق " الإنساني " الشامل – فقدت رصيدها ودوافعها ، وانقلبت أنانية تسرق وتنهب وتغش وتخادع وتلتوي .. ولا تبالي أن تصنع ذلـــك كلـــه ، ولا تتـــأثم ولا تتحرج .. لأنها – في أصلها – لا تقوم على ركيزة " إنسانية " حقيقية . ويمكن – بعد ذلك – أن

تتم في المستوى **القومي ذاته ، لا على أساس** أنها قيم مطلقة ينبغي طاعتها – في المستوى القومي على أقل تقدير – وإنما على أساس ما تجلبه من النفع لحاملها .. فهي تتبع بمقدار هذا النفع ، وتبطل إذا بطلت المنفعة ، القريبة أو البعيدة ، التي هي – في هذه الحالة – الرصيد الوحيد المتبقي لهذه " الأخلاق " !

ولقد وقعت أوربا – بتأثير الجاهلية الرومانية المعادة – في هذين الانحرافين معاً .. بالتدريج !

* * *

حين كان المسلمون يتعاملون مع الصليبيين في الحروب الصليبية – وخاصة في عهد القائد المسلم صلاح الدين – فيفون بعهودهم ، ويأبون أن ينقضوا مواثيقهم حتى حين تحصرهم الضرورة وتكون " المنفعة " في نقض هذه المواثيق .. حينئذ كانوا يضربون مثلا للأخلاق " الحقيقية " ! فهذه هي الأخلاق في صورتها الأصلية ، المستمدة من منهج الله

" وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ [95] " .

فالميثاق لا ينقض غدراً حتى حين تخاف الخيانة .. وإنما يعلن العدو أن الميثاق قد انتهى بسبب الخيانة من جانبه ، ويعلن أن العلاقة هي علاقة الحرب ، فلا يؤخذ على غرة – وهو عدو !! – وعدو في العقيدة .. أغلى ما يملك المؤمنون !!

وحين كان الصليبيون ينقضون الميثاق الذي ضربوه للمسلمين . ويأخذونهم على غرة . ويقتلون منهم الألوف من الرجال والنساء والأطفال قتلا وحشيا بشعاً لا يطيقه إلا " ضمير " أوروبا . ويدخلون عليهم المسجد – وهو الحرم الآمن المقدس .. بيت الله – وهم لاجئون إليه بلا سلاح ولا عدة ، فيقتلونهم في داخل بيت الله حتى تغوص سيقان الخيل الهاجمة في الدماء .. ثم ترتد الجولة للمسلمين فينتصرون على هؤلاء الصليبيين ذاتهم ، فيعاملونهم على نفس

[95] سورة الأنفال [58] .

المستوى " الإنساني " الذي كانوا يعاملونهم به من قبل .. كانوا يضربون مثلا آخر للأخـــلاق " الحقيقية " القائمة على ركيزة " إنسانية " لأنها تستوحي منهج الله وتعيش على هداه .

ولكن أوروبا الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله لم ترتفع إلى هذا المستوى قط في تاريخها كله .. لأنها لا تستمد الأخلاق من منبعها الرائق الأصيل ، وإنما تمزج بـــه – علـــى الـــدوام ، وبنسب متزايدة – مفاهيمها الجاهلية المنحرفة ، المستمدة من جاهلية اليونان وجاهلية الرومان .. وعليها مزيد !

إن الروح الرومانية القديمة التي كانت تتمثل في القانون الروماني الشهير ، الذي يمـــنح " العدالة " للروماني فقط ! ويحرم منها الآخرين .. إنها هي ذات الروح الأنانية التـــي ســـيطرت على " أخلاق " أوروبا في جاهليتها الحديثة .. فالأخلاق سارية المفعول في حدود " القوميـــة " وحدها . فإذا انتقلت إلى خارجها فقد رصيدها ودلالتها .. إلا في حالة واحدة .. حالة المنفعـــة ! وعندئذ يمكن أن تستمر قائمة خارج حدود القومية !

السياسة أمرها واضح ! فالمواثيق تعقد وتوثّق .. وفي لحظة غادرة تنقض وتصبح حبرا على ورق ، بمجرد أن تلوح " المصلحة القومية " في نقض الميثاق ! ويمر الناس بهذا الأمـــر مستخفّين غير مبالين ، لأن النظرية الجميلة شيء والتطبيق شيء آخـــر ، بموجـــب الجاهليـــة اليونانية الفلسفية !

ولكن السياسة ليست هي المجال الوحيد لهذه " الأخلاق " !

كان المسلمون في كل بلد فتحوه يحافظون على " عقائد " المخالفين له ، ويضعونها تحت حماية الدولة المسلمة وحراستها ، ويأبون أن " يحتالوا " على الناس ليتركوا دينهم ويدخلوا فـــي الإسلام .. لأن الله – في منهجه الرباني – علّمهم هذه الأخلاق ..

وفي جنوب أفريقيا شركة ملاحة انجليزية يعمل على سفنها بحارة أفريقيون مـــسلمون .. ولا تطيق الشركة المسيحية أن تراهم مسلمين ! لا بد من إفسادهم بأية وسيلة ! فدأبت علـــى أن تصرف لهم جزءاً من أجورهم زجاجات من الخمر ! وهي أغرب " عملة " يتعامل بها الناس في

عالم الأجور ! والخمر محرمة على المسلمين ، شربها وبيعها سواء ! فكـانوا يحطمـون هـذه الزجاجات ، ويفقدون بذلك الجزء الأكبر من أجورهم ويعيشون على الكفاف ! ثم أدركهم أحـد المسلمين البصيرين بالقانون ، فوصّاهم أن يرفضوا قبض أجورهم بهذه الصورة التي لا مثيـل لها فـي أي بقعة على الأرض ويرفعوا على الشركة قضية إذا أصرت علـى هـذا التـصرف الغريب .. فما كان من الشركة إلا أن فصلتهم من العمل جميعاً دفعة واحـدة ! وهـذه هـي " الأخلاق " !

وأهل فرنسا قوم " ظرفاء " " مهذبون " . للمنفعة ! .. فحين يستقبلك أهل باريس بـالأدب والظرف و " الإتيكيت " ويمنحونك " عواطفهم " فكل ذلك لكي " تنفق " في فرنـسا أكثـر مـا تستطيع إنفاقه من النقود ! إما إذا لم تصنع .. !

حدثني شاب مصري كان هناك ، لا يشرب الخمر ولا يرتاد أماكن الفجور ولا يتقبل مـا يعرضه عليه الفندق من دعارة تأتيه حتى غرفته وهو جالس مستريح . فضيق عليـه الفنـدق الخناق لكي " يتعب " ويخرج ! ورفع عليه الأسعار !

وحين تتعامل التجارة الدولية بأمانة فائقة ، نادرة المثال ، خارج حدود القوميـة ، فهـي ليست " الأخلاق " وإنما هي " المنفعة " ! فالغش يفقد السوق ، ويفقد الأرباح ! والحرص الشديد على الربح يستوجب الأمانة الفائقة في التعاملات !

على أن هذا التفسير النفعي للأخلاق ليس مقصوراً على التعامل " الخـارجي " وحـده . فرويداً رويداً أصبح هو الدافع الأخلاقي داخل القومية ذاتها ! فلم يعد الأمر أن الأخلاق انحسرت من نطاقها الإنساني إلى النطاق القومي ، وإنما فقدت حتى داخل هذا النطاق الضيق رصـيدها الصادق ، وأصبحت منفعة متبادلة بين الناس !

الصدق جميل في التعامل لأنه نافع في حدود التنظيم القومي ! أنت تصْدُق وتتوقـع مـن الآخرين أن يكونوا صادقين مثلك . لا لأن الصدق في ذاته فضيلة ، ولكن لأنك وإياهم تكسبون

بذلك جميعاً ، تكسبون توفير كثير من الجهد وكثير من المال وكثير من الوقت .. يمكن أن توجه إلى كسب مزيد من الربح !

فأما حين يكون الصدق بلا مكسب .. أو حين يكون الصدق خسارة مادية .. فما قيمتـــه ؟ وما الدافع إليه ؟!

حدثني أحد المصريين الذين عاشوا في أمريكا ..

كان يتلقى درساً في اللغة على يد مدرسة خصوصية تعمل في مدرسة من مدارس الأحـــد هناك . ولما اطمأنت بينهما العلاقة ، وعرفت أنه مسلم متدين ، قالت له : إنني أعرف أشـــياء عن الإسلام تجعله منفراً للناس ! إنني أعرف مثلا أن نبيكم محمداً سكر ذات مرة حتى لم يعــد يملك خطواته ، فوقع على الأرض فعضه خنزير .. ومن أجل ذلك حرم الخمر والخنزير !!

فلما قال لها : إن هذه خرافة لا سند لها من التاريخ ، وإن الحقيقة أن الرسول صـــلى الله عليه وسلم لم يشرب الخمر قط ، قالت : أوه .. أشكرك على ما بينت لي من الحقيقة . هل تعلم أنني أدرس هذه الأشياء لتلاميذي في مدرسة الأحد ؟!

قال : والآن وقد علمت أن ذلك ليس حقيقة .. هل تستمرين في تلقينه للصغار ؟

قالت مسرعة : أوه : هذه مسألة أخرى . إنني أرتزق من تدريس هذه الأشياء !!!

* * *

ولأن الأخلاق في الجاهلية الحديثة فقدت رصيدها الخلقي " الحقيقـــي " بتـــأثير الجاهليـــة اليونانية والرومانية بعد انفصالها عن معينها الحقيقي الصادق .. لم يكن في الإمكان أن تثبـــت للصدمات !

ولقد فتن الناس بقضية الأخلاق في الغرب ، حين رأوا هذه الأخلاق صـــامدة راســـخة لا تتأثر بفساد السياسة والاقتصاد والفساد الجنسي ، وغابت عنهم في الوقت ذاته دلالـــة الأنانيـــة والنفعية في هذه " الأخلاق " . فحسبوا أن الأخلاق يمكن أن تنفصل عن معينها الـــديني وتظـــل

حية فاعلة في واقع الأرض ، وأن الأمور التي انفصلت عنها لم تكن من أصولها .. وأنها ستبقى هكذا أبداً ، مهما فسدت أمور السياسة والاقتصاد والجنس (أو تطورت أو خضعت للحتميـــة) ومهما طغت الروح المادية والنفعية والأنانية على الناس !

والفتنة كامنة – كما بينا – في بطء التحلل الخلقي ، حتى ليبدو للناس أنه لا يحدث تحلـــل على الإطلاق ..

ولكن أحداث ربع القرن الأخير كانت حاسمة الدلالة في هذا الشأن الخطير !

ونبدأ بفرنسا ..

لقد سرى الفساد الأخلاقي في ميدان الجنس كالسوس ينخر في داخل العظام .

وجاءت الحرب وفرنسا ماخور كبير غارق في حمأة الجنس المسعور ..

وحدث ما لا بد أن يحدث ! انهارت فرنسا في أيام ! لا لأنها لا تملك السلاح – فقد كانت أحدث الأسلحة وأفتكها في أوروبا كلها ، ملك فرنسا ! وكانت تحصينات خط ماجينو أشـــد مـــا عرف في ذلك الحين ! ولكن لأنها لا تملك " الروح " التي تحارب .. ولا تملك " الكرامة " التي تدافع عنها ! ولأنها خشيت على مراقص باريس ومواخيرها من قنابل الألمان .. فـــسلمت فـــي أسبوعين من الزمان !!

وقال الناس : هذه ظروف ! لا علاقة لها بالأخلاق !!

ثم جاء دور أمريكا !

قرر كنيدي في تصريحه الخطير سنة 1962 أن مستقبل أمريكا في خطر . لأن شـــبابها مائع منحل غارق في الشهوات ، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه . وأنه من بين كل ســـبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ! لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت ليـــاقتهم الطبية .. " والنفسية " !!

وحدث ما هو أخطر وأبشع ! اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية إلى فصل 33 موظفا من موظفيها لأنهم مصابون بالشذوذ الجنسي ، ولأنهم – بهذه الصفة – غير مؤتمنين على أسرار الدولة !

ثم جاء دور انجلترا !

قضية بروفيمو .. وتعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات ..

ثم جاء دور روسيا !

صرح خروشوف سنة 1962 – كما صرح كنيدي – بأن مستقبل روسيا في خطر ! وأن شباب روسيا لا يؤتمن على مستقبلها ، لأنه مائع منحل غارق في الشهوات !

ثم جاء دور دول الشمال في أوربا – أرقى بلاد العالم !! أرقى بلاد الجاهلية الحديثة !!

الشباب الشارد .. الذي يدخن الحشيش والأفيون .. وينفق طاقته الحية في هذا الخبل المجنون .. والعصابات التي تتألف للخطف والقتل والاغتصاب الجنسي .. تقلق أمن الدولة ، وأمن علماء الاجتماع !

وذلك كله في مجال واحد .. هو مجال الجنس !

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد .. ولا يمكن للعجلة المنزلقة في الطريق المنحدر أن تقف عند حد !

في أمريكا عصابات من " كبار " المثقفين .. من المحامين والأطباء والكتاب ورجال القانون .. مهمتها .. ماذا ؟!

مهمتها تيسير مهمة الزنا .. لأغراض قانونية !!

ففي الولايات الكاثوليكية لا يباح الطلاق إلا في جريمة الزنا من أحد الزوجين .. فيحق للزوج الآخر أن يطلب الطلاق .

ومن ثم يلجأ الطرف الكاره الذي يطلب الطلاق – سواء هو الزوج أو الزوجة – إلى تأجير واحدة من هذه العصابات ، للإيقاع بالطرف الآخر في جريمة زنا ، وضبطه متلبسا ، وإعطاء المستندات اللازمة التي تمكّن من طلب الطلاق .. لقاء أجر معلوم !

وفي أمريكا كذلك عصابات لبيع الفتيات ! بيعهن !! رقيقا .. على مذبح الشهوات لأثرياء أوروبا الذين يطلبون هذا المتاع الدنس ويدفعون فيه الثمن المطلوب !

هذا فضلا عن العصابات التي تعمل علنا في الانتخابات – الديمقراطية !! – لتهديد المعارضين والقضاء عليهم إذا لزم الأمر ! لقاء أجر معلوم !

* * *

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ..

الجيل الناشئ في أوروبا يعاني أقصى درجات التحلل والانحدار !

عصابات للخطف والسلب والنهب والاغتصاب ..

عصابات – من الأطفال – لمهاجمة القطارات وقذف نوافذها بالأحجار !

عصابات – من الأطفال – تضع الأحجار على القضبان لتخرج من عليها القطارات !

عصابات الحشيش والأفيون وبقية المخدرات ..

" التزويغ " من دفع أجرة الركوب ..

كل " الرذائل " التي يمكن أن يتصورها الإنسان !

* * *

حقيقة إن هذا الفساد لم يصبح بعد صورة شاملة !

وما تزال في الجاهلية الغربية فضائل حقيقية بعد هذا الانحدار كله ! وفـضائل كثيـرة ! وفضائل متماسكة ! .. فضائل تكفي لأن تعيش الجاهلية الحديثة – إذا شاء الله – جيلا آخر قبل الانهيار !

ولكن المهم هو دلالة خط السير ! صعود أم هبوط ! خير أم شر ؟!

لقد حاول الناس في مبدأ الأمر أن يتجاهلوا النذير ، حاولوا أن يضحكوا علـى أنفـسهم ويدفنوا رءوسهم في الرمال ، ويقولوا : إن الدنيا بخير ! إنه " التطور " !

بل راح قوم – في سماجة – يتظاهرون بالتعقل و " التثقف ! " وأنهم " يرتفعـون " إلـى مستوى التطور !

يقول قائلهم : إن الجيل الجديد بخير .. بل هو خير من الجيل الماضي بكثير ! إنه جيـل جريء متفتح متطور يعيش بعقلية ظروفه ! إن أخلاقياتنا نحن لا تصلح للحياة فـي الظـروف الجديدة ، والجيل الجديد يصنع أخلاقياته بنفسه ، حسب ظروفه ، صاعدا .. صاعدا .. إلى مـا شاء الله ! وإن الذين يتصايحون بأن الجيل الجديد منحل أو منحرف ، هم الجامدون المتخلفـون الذين عجزوا عن أن يروا الأمور بمنظار الجيل الجديد .

ثم جاءت الأنباء من عند " السادة " أنفسهم ! من أوروبا ! من أمريكا !

جاءت تلجم ألسنة العبيد الذين يتظاهرون بالتعقل والتثقف والارتفاع إلى مستوى التطور !

جاءت تقول : إن مؤتمرات " علمية " تعقد هناك للنظر في انحراف الشباب ، وتقـرر – في جد صارم لا هزل فيه – أن الأمر خطير حقا .. وأن الجيل الناشئ الذي سيتولى غدا قيـادة الأمر .. جيل منحرف هابط ، لا يؤتمن على المستقبل . وأن " الدول الغربية " مهددة بالبوار !

وبصرف النظر عن هذا التفكير اللا إنساني . الذي لا يفكر في الأخطار الماثلة لمستقبل " الإنسان " ، وإنما ينظر من داخل الحدود " القومية " وبوحي من هذه الروح ..

بصرف النظر عن هذا التفكير – وهو انحراف " أخلاقي " مما تمارسه الجاهلية الحديثة – فإن الدلالة خطيرة إلى أقصى حد .. إلى حد تهديد البشرية كلها بالزوال !

* * *

ذلك تاريخ " الأخلاق " في الجاهلية الأوربية الحديثة ، الذي ينتشر – بالعدوى – في بقية بلدان الأرض ..

إن الأخلاق حين انفصلت عن معينها الأصلي .. حين انفصلت عن العقيدة فـــي الله .. أو حين تأثرت بانحرافات هذه العقيدة .. لم تستطع أن تصمد .. لم تستطع أن تعيش ..

في قرنين اثنين انهارت أخلاق أوروبا .. التي احتاجت في بنائها إلى عدة قرون !

وليس يهم أنه ما يزال هناك رصيد كبير من الفضائل في الجاهلية الحديثة ، هـــو الـــذي يمكّنها من أن تعيش حتى اليوم ..

إن هذا الرصيد يتضاءل يوماً بعد يوم .. وأخطر ما فيه أن الجيل الناشئ هو الأشد فساداً والأكثر تحللاً .. ومعنى ذلك أن المستقبل يزداد خطورة ، لأنه معرض لمزيد من الانحدار ..

ولم يعد يجدي أن يقال : إن كذا وكذا لا علاقة له بالأخلاق .. !

إن خروج السياسة من دائرة الأخلاق ، ثم خروج الاقتصاد ، ثم خروج الجنس ، لم يكن إلا بداية لمزيد من الانزلاق ! لا يمكن أن تقف العجلة المنزلقة على المنحدر عند حد معين .. لا بد أن تزيد في الانزلاق !

وقد حدث بالفعل مزيد من الانزلاق

وتلك هي الدلالة الخطيرة لسير الأحداث في هذه الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله .

لقد وصل الفساد إلى " العظم " ..

ولئن كان السوس بطيئاً .. وبطيئاً جدّاً وهو ينخر في العظم .. فإنه كذلك خــداع ! فـــي لحظة واحدة ينهار العظم المنخور ، الذي كان يبدو سليما قبل لحظات .

ومع ذلك فما زالت الجاهلية تزعم للناس ، ويزعم لها الناس ، أنها غنية بالفضائل . وأنها ذات أخلاق !

في علاقات الجنسين ..

هنا لن نتحدث عن الفساد في علاقات الجنسين من الناحية الخلقية !

لقد أشرنا إلى هذا الفساد الخلقي إشارة عابرة في الباب السابق من هذا الفصل ؛ ولكنا هنا ندرسه من حيث هو اختلال في النفس والمجتمع . أي في الكيان النفسي للإنسان ، وفي الحياة الاجتماعية للناس .

إنه – كفساد خلقي – أوضح حتى من أن يشار إليه ! وعلى الرغم من كل محاولات الجاهلية الحديثة ، أن تحيطه بالنظريات " العلمية ! " على يد فرويد مرة ، وماركس والتفسير المادي للتاريخ مرة ، ودركايم مرة .. وتحيطه بأوهام تستقر في أذهان الناس ، كقولهم : إن الجنس عملية بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالأخلاق . ! وتحيطه بسيل مستمر من الإنتاج " الفني " ! من قصص ومسرحيات وسينما وتليفزيون وإذاعة وصحافة ، تصور الحياة من خلال لحظة الجنس الطائشة ، وتصورها على أنها الشيء " الطبيعي " الذي لا انحراف فيه ولا فساد .. ! على الرغم من ذلك كله ، فلن يكون التحلل الجنسي إلا فساداً خلقياً من البدء إلى الانتهاء .. !

تقول " بروتوكولات حكماء صهيون " : " يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، **وعندئذ تنهار أخلاقه** " .

وتقول البروتوكولات : " لقد رتبنا نجاح داروين وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم . **وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد** " .

إنه إذن – مهما قيل فيه – فساد في الأخلاق !

*　*　*

ولكنا على الرغم من ذلك لا نريد أن نعالجه هنا – بصفة أساسية – على أنه فساد خلقي . ذلك أن الناس – في تصورهم الجاهلي للأشياء – قد فصلوا بين ما هو " أخلاق " وما هو " حياة " ! ولا انفصال في حقيقة الأمر بين هذا وذاك .

إن " الأخلاق " ليست شيئاً منفصلا عن الواقع . ليست نظريات تدرس في الأبراج العاجية مستقلة بذاتها . وليس لها قوانين خاصة غير قوانين الحياة الواقعية ! ولا يمكن أن يوجد فساد " خلقي " مع استقامة في حياة الناس الواقعة . إنما هما شيء واحد : الفساد في الأخلاق معناه فساد في واقع الحياة . والفساد في واقع الحياة معناه فساد في الأخلاق .. لأنهما قانون واحد مستمد من الوجود البشري المتكامل ، والفطرة البشرية الشاملة .

وهنا حين ندرس الاختلال في علاقات الجنسين من ناحية أثره في الحياة الواقعة ، نبين في النهاية معنى القول بأنه فساد في الأخلاق .

*　*　*

ككل شيء في الحياة البشرية حدث التحلل في علاقات الجنسين على مدى طويل وفي تدرج بطيء ..

في العصور الوسطى كانت المفاهيم المسيحية هي المسيطرة على أوروبا ، كما صورتها الكنيسة الأوروبية للناس .

ولا شك أن المسيح عليه السلام قد دعا إلى لون من الزهادة الارتفاع على متاع الجسد الملهوف . وفوق أن هذه هي دعوة كل نبي وكل دين ، لمواجهة تلهف البشرية على قضاء الشهوات .. فقد كانت الجرعة مضاعفة – إذا صح التعبير – في أقوال المسيح عليه السلام ،

لأنه كان يواجه طغياناً ماديا وفساداً خلقيا بلغ أقصى الغاية سواء بين بني إسـرائيل أو العـالم الروماني .

وقد جاء في الأناجيل : " إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لـك أن يهلـك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله في جهنم " [96] .

ومن هذا القول – وأمثاله – استمدت الكنيسة مفاهيمها الخلقية التي فرضتها على الناس ، فكانت الرهبانية التي ابتدعوها :

" وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ " [97] ...

وكان الإيحاء العام أن الجنس دنس قذر في ذاته والمرأة مخلوق شيطاني دنـس ينبغـي الابتعاد عنه والزواج ضرورة غريزية – حيوانية – للعامة ، ولكن السعيد الأتقى من استطاع أن " يرتفع " عليه ولا يتزوج .

ومضت الأمور على ذلك حيناً : مباذل شنيعة بشعة في الإمبراطورية الرومانيـة علـى اتساعها ، ورهبانية واسعة الآفاق على حدود الصحارى ، وفي داخل المدن ، فراراً من الفساد .

يقول " ليكي " في كتاب " تاريخ الأخلاق في أوروبا "

" كانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى . وإن المدن التي ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته " [98] .

ويصور الكاتب النفور من فكرة " الجنس " وما حولها من علاقات – في ظل الرهبانية – فيقول :

---

[96] إنجيل متى الإصحاح الخامس آية 24 .

[97] سورة الحديد [27] .

[98] عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي .

" وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن – ولو كن أمهات أو أزواجاً وشقيقات – تحبط أعمـــالهم وجهودهم الروحية " .

وينقل الأستاذ أبو علي المودودي في كتابه " الحجاب " بعض أقوالهم ، يقول :

" فمن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن ، أن المرأة ينبوع المعاصـــي ، وأصـــل السيئة والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلا أنها امـــرأة ! وينبغي لها أن تستحي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن **تكفّر ولا تنقطع** عن أداء الكفارة أبداً ، لأنها هي التي قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها " .

" ودونك ما قاله " ترتوليان Tertulian " أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتهـــا ، مبينـــا نظرية المسيحية في المرأة : إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإنها دافعة بـــالمرء إلـــى الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله . ومشوهة لصورة الله – أي الرجل " .

" وكذلك يقول كرائي سوستام Chry Sostem الذي يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة : هي شر لا بد منه ، ووسوسة جبلّيّة ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلي مموه ! "

" أما نظريتهم الثانية في باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمـــرأة هي نجس في نفسها يجب أن تتجنب – ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع [99] " .

*   *   *

---

[99] " الحجاب " ص 25 .

من هذه النظرة الجاهلية المنحرفة – التي لم يأمر بها الدين ، ولا يمكن أن يأمر بها نبي – حدث رد فعل جاهلي عنيف في الاتجاه الآخر .

حدث في تدرج بطيء .. ولعوامل شتى .

فالفساد المروع الذي حدث داخل الأديرة ذاتها ، حاويا لكل أنواع الفساد الجنسي ، ما بين الرهبان والراهبات ، وما بين كل فريق بعض وبعضه .. كان إحدى الصدمات التي خلخلت القيم الرهبانية من أصولها ، وصرفت الناس عن هذا " الترفع " سليما كان أو غير سليم ، فانحـــدروا يبحثون عن الشهوات .

والتفسير الحيواني للإنسان ، الذي مده فرويد ووسعه بالتفسير الجنسي للــسلوك .. كـــان دفعة قوية أخرى في سبيل الفساد .

والانقلاب الصناعي ، وما أحدثه من تفكيك للأسرة ، ونقل للشبان الأقوياء – بلا أســر – مـــن الريف المتزمت المتحفظ إلى المدينة الفضفاضة الأخلاق ، وتوقيع فتـــرة مـــن " التعطـــل الجنسي " عليهم بحرمانهم من الأجر المعقول الذي ينشئون به أسرة في المدينة ، وإتاحة البغـــاء لهم وتيسيره .

وتشغيل المرأة على نطاق واسع ، واضطرارها إلى التبذل الخلقي لتضمن لقمة العيش .

وانشغال المرأة بقضية المساواة مع الرجل ، وطلبها – في أثناء ذلك – المساواة معه فـــي الفجور ، كفرع من فروع المساواة التامة الشاملة ..

كل ذلك كان دفعة عنيفة في سبيل الفساد .

وتلقفت ذلك كله الصهيونية العالمية ، سواء في عالم النظريات أو في عالم الواقع .. فراح ماركس وفرويد ودركايم ، وغيرهم من " العلماء " يهوّنون من أمـــر الأخـــلاق ويـــسخّفونها ، ويدعون المرأة – كل من ناحيته وبطريقته – أن تخرج وتمارس نشاطها الجنسي ، حتى تكـــون سهلة قريبة من متناول الرجل .

ثم راحت السينما – وهي صناعة يهودية بصفة أساسية – وَوَرَثَتُهَا من الإذاعة والتليفزيون ، تزيد كل أنواع التحلل الجنسي ، و " الاستمتاع " .

وبيوت الأزياء .. وبيوت الزينة .. والتقاليد " الاجتماعية " القائمة على الاختلاط . والإباحية الكاملة في النهاية .. !

* * *

بالتدريج !

لم يحدث كل ذلك دفعة واحدة ..

فقد ظل أنصار الأخلاق يحذرون من التحلل ، وظل أنصار " التطور " يزينون في الفساد .. وتقوم المعارك طويلة عنيفة بين هؤلاء وهؤلاء .

ولكن التوجيه الدائم الملح المتكرر ، بكل وسائل الإعلام ، نحو الإباحية والتحلل .. والظروف الاقتصادية التي وضعتها الرأسمالية – اليهودية أصلاً – التي لا تيسر للناس سبل الزواج النظيف في مرحلة الشباب المبكر ، ثم تملأ فترة التعطل الجنسي بالمغريات التي لا قبل للشباب – في فورته – باحتمالها والانصراف عن ندائها ..

وسهولة الحصول على المرأة ، زميلة في العمل وفي الشارع وفي دور التعليم ..

وفنون الإغراء التي زوِّدت المرأة بها عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما .. ثم التليفزيون ..

والبغاء المتاح في جميع صوره وألوانه . من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية . ومسارح وملاهٍ تصطاد " الزبائن " وتقدم لهم البضاعة الدنسة ..

والتوجيه الفكري بأن الحياة خلقت للاستمتاع . بلا ضابط .. إلا الاكتفاء [ولن يحدث الاكتفاء !] وأنها فرصة واحدة إن لم يهتبلها الإنسان في حينها فستمضي .. بلا رجوع .

كل ذلك عمل عمله في الجاهلية المنحرفة ، فبلغ الاختلال أقصاه من الطرف الآخر .. من أقصى التزمت إلى أقصى الاندفاع ..

* * *

و " تحررت " المرأة .. وتحرر الناس من قيود الدين والأخلاق والتقاليد .. وأصبحت الإباحية ديانة معترفاً بها ، تيسرها الدولة وتقوم بها وترخص بمزاولتها في كل مكان .. وتجند – تحت سمعها وبصرها – جميع القوى للدعوة إليها ، كتباً وبحوثاً وقصصاً وصحافة وإذاعة وسينما وتليفزيون .

يقول " ول ديورانت " في كتابه " مباهج الفلسفة " :

" إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط . نعني كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ **إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن** ... " [ص 6 ج 1]

" واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقي قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج ، لأن النكاح يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل ، وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه ، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة لهذا العامل .. " [ص 120 جـ 1]

" فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج ، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسي يتم مبكرا عما كان قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا في ظل النظام الاقتصادي الزراعي ، فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا أو غير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال ، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم . وتصبح العفة التي

كانت فضيلة موضعا للسخرية ، ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مالوفا ، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ، ولم يعد العالم المدني يحكم به " [100] [ص 126 – 127]

" ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه . ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان (!) وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف ، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين – وهم في حُمّى الفوضى الصناعية – من حِمَى الزواج ورعايته للصحة .

" ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل ، نظاماً دوليا مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة

---

[100] واضح أن الكاتب يفسر الأمور على هدى التفسير المادي للتاريخ ، فيفسر التحلل الخلقي بالتطور الاقتصادي . ولكنه أغفل حقيقة هامة ينبغي الإشارة والتوكيد عليها .. إن الدولة الشيوعية التي تملك أرزاق الناس " وتحررهم " من سلطان رأس المال .. لم توجه الشبان في بلادها إلى الزواج المبكر الذي يمنع الفساد الخلقي ، رغم أنها – فيما تزعم – رفعت لعنة الضرورة الاقتصادية عن كاهل الناس ! إن الأمر ليس تطوراً اقتصاديا في حقيقته . ولكنه توجيه مسموم لتدمير البشرية .

العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها .. " [ص 127 – 128] .

" وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – أن الدين يشهّر بملاذهم ، التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين .. " [ص 134] .

" ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجاً بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع ، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .. " [ص 225] .

" لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها . وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء ، فقد فَقَدَ الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد . سينهار " المستوى المزدوج " وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعاً في كل طبقة يضحي الحمل أمراً عارضاً في حياة

المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء " [ص 235 – 236] .

* * *

شهادة من كاتب غربي ، جديرة بأن تغنينا عن التعليق !

إن المفاسد التي يشرحها الكاتب ، والتي نجمت في النفس والمجتمع عن التحلل الجنسي .. لجديرة بأن تفتح عيوننا على شناعة الجاهلية الحديثة في هذا الشأن .. المنذرة بتدمير كيان الإنسان في مجموعه ، لا في المجال الضيق الذي يعرف عادة " بالأخلاق " !

إن هذا التحلل الجنسي لم يترك شيئاً في النفس والمجتمع ناجياً من الفساد .

ماذا بقي بعد الصورة الكريهة المنفرة التي عرضها هذا الكاتب ؟! ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف كتب كتابه هذا سنة 1929 ! ونحن الآن في النصف الثاني من القرن العشرين ، قرن الجاهلية الكبرى ، نشاهد بأعيننا أن كل ما تنبأ به الكاتب قد حدث ، وانتشر في كل بقاع الأرض ، واستشرى بحيث لم تعد الجاهلية ذاتها تملك رده لو أرادت .. لأن الزمام أفلت من أيديها ، ولم يعد لها على الفساد سلطان !

ولكن المقتطفات التي نقلناها هنا لم تشر إلى كل أمور الفساد ! أو لم تفصلها !

وقد تحدثت بالتفصيل في كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " عن هذا الموضوع في فصل " المشكلة الجنسية " .. وتحدثت عنه بالتفصيل كذلك من زاوية أخرى في كتاب " التطور والثبات " . ولن أعيد هنا ما كتبته هناك . إنما يكفي أن نرسم صورة سريعة لهذه الجاهلية المجنونة ، كيف صارت حين انفلتت من رباط " الإنسان " في شئون الجنس ، وارتكست إلى عالم الحيوان .. بغير ضوابط الحيوان !

* * *

إن الفطرة الإنسانية كما خلقها الله .. ذات " معايير " و " ضوابط " تـضبط منـصرفات الطاقة الحيوية وتحدد مقدارها .. فإذا انفلت العيار ، وبطلت الضوابط ، فلن يكون هذا " خيراً " يصيب الإنسان في نفسه ومجتمعه . ولن يكسبه السعادة التي يرجوها بالانفلات !

ولا فائدة في تحدي الفطرة .. فمنطقها في النهاية هو المنطق الذي يَغْلِب .. وليس منطق الأهواء !

حين انفلت الناس من قيود الجاهلية السابقة – المتزمتة – وتكالبوا على متاع الجنس بـلا حواجز ولا قيود .. ما الذي حدث في عالم الواقع ؟

هل " شبعت " الشهوة بإتاحة الفرص للإشباع ؟

كان دعاة " الحرية " والانفلات يقولون : إن " الكبت " أو الامتناع في أية صـورة مـن صوره هو الذي يحدث الجوع الجنسي الذي لا يشبع ، والمشغلة الدائمة بالجنس ، التي تـشغل الأعصاب وتبدد الجهود .

و .. نعم . يحدث ذلك حين يطول الامتناع عن الحد المعقول ، وبغير سبب معقول ! فما نتيجة الإباحة بلا حدود ولا قيود ؟

إن بلاد الغرب والشرق كلها قد أباحت المتاع الجنسي و " باركته " بإغـضاء الدولـة أو تشجيعها الصريح ، وإتاحة الفرص الواقعية للإشباع بعيداً عن كل نهي أو زجر أو تخويـف أو ترويع ..

فما بال الجوعة لم تهدأ بالإشباع المطلق المتاح ؟

ما بال هذا العصر أشد العصور كلها اشتغالا بأمور الجنس ؟

كما فلماً .. كم كتاباً .. كم قصة .. كم صورة خليعة .. كم برنامجاً إذاعياً أو تليفزيونياً .. كم أغنية .. كم حفلة عارية أو شبه عارية " يستهلكها " الشباب من الجنسين ؟

وكم مرة مع ذلك – كم ملايين من المرات – يقع فيها الاتصال الجنسي في سهولة ويسر ؟

لِمَ لَمْ يشبع هذا النهم المسعور ؟

لا نتحدث عن " الأخلاق " !

نتحدث عن الأمن النفسي والاستقرار الذي ينبغي أن يتوفر لكل نفس " إنسانية " لها مهمة تقضيها على هذه الأرض غير مهمة الحيوان ! ونتحدث عن " القيم " الإنسانية التي ينبغي أن تعمر قلب الإنسان : قيم الحياة الراشدة المستعلية الهادفة البناءة التي تسعى إلى " التقدم " بكل كيان الإنسان !

وما نتائج هذا النهم الذي لا يشبع رغم إتاحة كل الفرص له للإشباع ؟

هذا القلق الدائم . هذا الضغط العصبي . هذا الجنون . هذا الانتحار . هذه الجريمة .. أو ليس من روافدها هذا النهم المسعور ؟

والأسرة ..

ماذا أصاب الأسرة من إطلاق الشهوة دون حدود ؟

لم تعد الأسرة راحة وسكناً ، ورباطاً زوجيا ، وأطفالا يمسكون بأيديهم الرقيقة حبالها ، فتتوثق وتتعمق في الوجدان ..

بل لم تعد حتى عِشْرَةِ حيوان لحيوان .. فبعض الحيوان يتعاشر جنساه مدى الحياة !

والسبب في ذلك – كما قال ول ديورانت – هو الإباحية ذاتها !

إن الفتى والفتاة يتعودان في فترة شبابهما على التعدد .. في الحفلات الراقصة والحياة المختلطة في البيت وفي الشارع والمكتب والمصنع .. والمعسكرات في الأحراش والغابات وشواطئ البحار والأنهار !

و " حجة " التعدد هي التجربة ! حتى يجد كل منهما الشخص الذي يناسبه بالضبط .. **في كل شيء** .. حتى في توافق الرغبة الجنسية والمزاج ..

ولكن الهدف يُنسى .. وتصبح الوسيلة هي الغاية ! يصبح التعدد في ذاته هدفاً ، أو على الأقل عادة !

ويجد الشاب بعد طول التجربة فتاته .. وتجد الفتاة شريكها في الحياة ..

ويضمهما البيت .. عدة شهور ! أو سنوات !

ثم تفتر العلاقة ولا شك .. فهي ليست علاقة " إنسانية " تتأصل بدوام المعاشرة ! إنها علاقة جنس حيواني غالب .. علاقة جسد شهوان بجسد شهوان .. هكذا بدأت في أيام " الصداقة " ! وهكذا استمرت في حس الولد والبنت المرتبطين بعقدة الزواج !

ويصبح الزواج سجناً بليداً لا حركة فيه ولا " مثيرات " .

ويعود الولد والبنت – أو الرجل والمرأة – إلى ما تعوداه من قبل من " صداقات " !

إن هذه الفتاة تبدو وضيئة لامعة شهية مثيرة .. لأنها "جديدة " لم تذهب الألفة بما فيها من إغراء ، كما ذهبت بما تملكه الزوجة من فنون الإغراء ..

وإن هذا الفتى ليبدو لطيفا مملوءا " بالرغبة " التي لم تطفئها الألفة بعد .. وهو شهي في نظر الزوجة لأنه جديد .. وضّاء !

ومن ثم يشرد الزوج والزوجة فيتخذان العشيقات والعشاق .. أو ينفصلان !

ونسبة الطلاق في أمريكا أباحت الفجور الدنس إلى أقصى حد ، وحمته بسلطة التشريع ، ووجهت إليه بكل وسائل الإعلام ، وجعلته فلسفة كاملة يكتب فيها كل من يجد في نفسه القدرة على البيان .. نسبة الطلاق هناك في بعض الولايات [غير الكاثوليكية التي تقيد الطلاق] وصلت 40 % من مجموع الزيجات .. وهي آخذة في الازدياد ..

وكذلك هي في دول الشمال في أوربا ، " أرقى " دول الجاهلية المعاصرة على الإطلاق !

معنى هذا .. ؟ أن حياة الأسرة في طريقها إلى الدمار ..

والأولاد المشردون ..

وهل يكونون إلا مشردين .. أولئك الذين تنفصم عرى محاضنهم الفطرية ويتوزعون بلا رباط ؟

فلتكن الضمانات " الاقتصادية " لهؤلاء الأولاد ما تكون .. فأين ضمانات المشاعر ؟ وطمأنينة النفوس ؟

على أن للأطفال مشكلة أخرى ..

إن تلك الحياة الفاجرة التي يحياها الغرب ، المليئة بالمثيرات فوق الطاقة ، تنضج مشاعر الأطفال الجنسية قبل الأوان .. قبل أن تنضج المدارك والتجارب التي تصلح لإقامة الأسرة والاستقرار في الزواج .

ثم تدفع تلك الحياة الفاجرة بالأولاد والبنات المراهقين إلى ممارسة الجنس في هذه السن المبكرة بلا ضوابط تكبح الجماح ..

ثم . ينتشر بينهم الشذوذ الجنسي !

والشذوذ الآخذ في الازدياد في كل البلاد التي أفرطت في إباحة الحرية الجنسية مشكلة خطيرة لم تدرس هناك دراسة جادة من جميع أوجهها . وربما كان نقرير " كنزي " عن السلوك الجنسي للرجل الأمريكي ، والسلوك الجنسي للمرأة الأمريكية أول محاولة " علمية " لهذه الدراسة . ولا تشرح الأسباب ولا تقدم العلاج .

ولنا رأي في هذا الشذوذ وانتشاره في البلاد التي أباحت الاتصال الجنسي بلا حواجز ، والتي برزت فيها المرأة حتى صارت هي الجنس الغالب في البيت وفي المجتمع .. رأي أثبتناه من قبل في الكتب السابقة .

ولكننا هنا معنيون فقط بإثبات هذه الحقيقة – كما تسجلها المشاهدة والإحصاءات العلمية – وإثبات علاقتها الواضحة بالتحلل الجنسي الذي أصاب الجاهلية الحديثة بالسعار !

* * *

ثم تجيء تلك الفضائح التي أشرنا إليها في الباب السابق [في الأخلاق] ..

انهيار الأمم وعجزها عن الصمود في حلبة الصراع ..

انتشار الفساد الخلقي حتى يصل إلى أجهزة الحكم ويعرض الدولة للأخطار .. من بيع الأسرار العسكرية ، إلى تمكين الجواسيس من التجسس في مقابل المتاع الدنس .. والشذوذ .

فضيحة بروفيمو في انجلترا .. والدبلوماسيين الأمريكيين ..

ويجيء تشرد الشباب وانحرافه .. فضلا على شذوذه ..

وتجيء نذر الخطر بأن شباب أكبر دولتين في الجاهلية الحديثة – روسيا وأمريكا – شباب منحل داعر لا يؤتمن على مستقبل البلاد لانهماكه في الشهوات ..

* * *

إنها نذر الفطرة ..

ليست المسألة محصورة في " الأخلاق " بمعناها الضيق المتعارف عليه .

إنها أوسع من ذلك جدّاً .. إنها مسألة هذا " الإنسان " ..

الإنسان الذي تدمره الإباحية المتحللة ، المرتكسة إلى عالم الحيوان .. بغير ضوابط الحيوان !

وفي كتاب " التطور والثبات " بينت أن هذه الإباحية – ونتائجها الحتمية – ليست خاصة بالجاهلية الحديثة وحدها ، فهي سمة لا بد أن توجد في كل جاهلية على ظهر الأرض . وجدت

في الجاهلية اليونانية ، والجاهلية الرومانية والجاهلية الفارسية .. ودمرتها . وتوجد اليوم في الجاهلية الحديثة .. وهي في طريقها إلى تدمير كيان الإنسان .

ولكن ينبغي أن نقرر أن نصيب الجاهلية الحديثة في عملية التدمير هذه أبشع وأشد .. لأنها لا تكتفي كالجاهليات القديمة بترك الفساد يأخذ مجراه .. وإنما تسانده مساندة " علمية " !

فالنظريات والمذاهب التي تبرر الانحراف والتحلل قد وجدت ولا شك من قبل في كل جاهلية ، ولكنها لم تلبس الثوب " العلمي " بقدر ما لبسته في الجاهلية الحديثة التي تُلبس الدمار ثوب العلم وتشيعه في الناس .

وبالإضافة إلى ذلك وسائل الإعلام .. الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون .. والصهيونية العالمية من وراء ذلك تبارك الفساد ، وتفرك يديها فرحاً بتدمير " الأميين " ..

* * *

ولم نشأ أن نأخذ الأمر من صورته " الخلقية " بمعناها الضيق لأن قوماً يظنون أن الأخلاق شيء آخر مختلف عن " الحياة " .

ولكن كيف رأينا من استعرض الواقع الذي تعيشه جاهلية القرن العشرين ؟

إن الذي ينظر الناس إليه على أنه فساد خلقي محصور في دنيا الأخلاق ، هو في حقيقته فساد مدمر للنفس والمجتمع ، يستشري في واقع الحياة ..

والفساد في واقع الحياة هو في النهاية فساد خلقي .. سواء كان فساداً سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو جنسيا [أو فنيا] .. فهو في النهاية فساد في الفطرة البشرية . والأخلاق هي ضوابط الفطرة ، وليست شيئاً منفصلا عنها يعيش في عالم النظريات .

وهذه الجاهلية الحديثة .. المتعلمة المتنورة المستبصرة .. هي أكثر الجاهليات عماية عن حقيقة الفطرة ، وعن ضوابط الفطرة التي تكوّن الأخلاق .

في الفن ..

الفن صورة من الحياة .. ولا يملك إلا أن يكون كذلك !

وأصحاب المذاهب " الواقعية " الذين يتصايحون بأن الفن ينبغي أن يكون للواقع ، وأنه لا يوجد شيء يسمى " الفن للفن " .. أولئك ما كان لهم أن يتصايحوا ! فالفترات ذاتها التي كان يبدو فيها أن الفن يُنْشَأ من أجل الفن لا من أجل الواقع ، كان الفن فيها يعكس صورة " واقعية " من حياة الناس ! فلولا أنهم – لسبب من الأسباب – قد رغبت نفوسهم في هذا اللون من الفن لما أمكن أن يوجد وأن يروج بين الناس ! والرمانتيكية – كمثال – إذا كانت تمثل الهروب من الواقع ، والجنوح إلى الخيال المفرط الغريب .. فليس ذلك لأن الفن كان للفن .. وإنما لأن الناس في تلك الفترة من تاريخهم كانوا يحبون الهروب من الواقع ، والجنوح إلى الخيال المفرط الغريب .. !

ومن ثم يكون الفن في جميع أحواله صورة من الحياة .. حتى ولو كان يمثل الهروب من واقع الحياة !

* * *

تلك مقدمة لا تعنينا – إلا بقدَر – في هذا البحث ! فمجالها الأصيل هو النقد الفني [101] ! ولكنا نحتاج إليها هنا من حيث تعطينا المفتاح لفهم انحرافات الفنون الجاهلية ، التي تنشأ في مجتمع جاهلي .. ولا تملك إلا أن تنحرف مع انحرافات الجاهلية . لأنها لا تملك – في أية حالة – إلا أن تكون صورة من الحياة !

* * *

---

[101] ناقشنا كثيراً من المفاهيم الفنية ، المستقيمة والمنحرفة ، في كتاب " منهج الفن الإسلامي " وسنمر هنا بشيء من هذه القضايا ، ولكن مروراً عابراً بما يناسب موضوع هذا الكتاب .

أول ما يلفت النظر في الفنون الغربية أنها فنون وثنية ! لا تنشأ إلا في بيئة وثنيـــة ، ولا تنشئ إلا إنسانا وثنيا في نهاية المطاف !

وفي هذه الفنون روائع " إنسانية " بارعة ولا شك .. روائع عميقة وعالية معـــاً ، تلقـــي أضواء كاشفة على أغوار النفس الإنسانية ، وآمالها وآلامها ومسراتها وعـــذاباتها .. وترتفـــع بالمشاعر الإنسانية إلى عالم رفيع ..

ومـــن أجل هذه الروائع – في داخل الفن الوثني – ظن الناس أن الفن ينبغي أن يكـــون وثنيا ! وأن الاتجاه الوثني في الفنون حلية تتحلى بها هذه الفنون .. لتحسن وتجود !

والأمر في هذه الروائع الفنية هو ذات الأمر بالنسبة لكل شيء في الجاهلية . لا يمكن أن يكون شرا خالصاً ، ولا يمكن أن يكون خلوا من الخيـــر . لأن الـــنفس البـــشرية لا تـــستطيع بمجموعها – أن تتمحض للشر ، ولا بد – مهما فسدت – أن تظل فيها قطع من الخير متنـــاثرة هنا وهناك .

ولكن هذا الخير المتناثر لا يستطيع أن يعفيها من وصمة الجاهلية ، ولا يستطيع أن يعفيها كذلك من تبعة الجاهلية .. وما يترتب على الانحراف من ازدياد مستمر يصل إلى البوار .

* * *

والظاهرة الغريبة في الفن الغربي أنه – في تاريخه كله – مشغول إما " بالآلهـــة " وإمـــا بصراع الآلهة والإنسان ! ولست أدري الآن – فإني لم أدرس هذه الظاهرة بعـــد ، وأرجـــو أن يتنبه لها غيري ويدرسها – لست أدري إلى أي حد يمكن أن تكون هذه ســـمة " بـــشرية " فـــي الإنتاج الفني البشري : أن يكون مشغولا إلى هذا الحد بفكرتي الله ، والإنسان ، ومـــا بـــين الله والإنسان من صلات [102] .

---

[102] ظاهر في الفن الهندي أنه مشغول " بفناء " الإنسان في الله .. أو في الوجود الكلي الذي يرمز إلى الله أو يحل فيه الله . ولكني لم أتبين هذا الاتجاه بوضوح في الآداب الأخرى . وأرجو – كما قلت – أن يأخذ غيـــري

ومن أجل هذه الظاهرة – بصفة خاصة – ظهر الفساد في الفن الغربـــي .. لأنـــه يتتبـــع انحرافات العقيدة خطوة خطوة .. ويقع فيما تقع فيه العقيدة من انحرافات !

منذ بدء التاريخ الأوربي ، كن الفن اليوناني يمثل – حتى في " أروع " إنتاجـــه – ذلـــك الصراع الكريه المنفر بين الآلهة وبين الإنسان .. وبين " القدر " وبين الإنسان .

كل المسرحيات اليونانية الشهيرة لا تخلو من آثار هذا الصراع ..

الإنسان يريد أن يثبت ذاته . وهو لا يرى طريقة لإثبات ذاتـــه إلا أن يـــصارع القـــدر ويصارع الآلهة .. وفي كل مرة – تقريباً – يكون الإنسان على حق ، والقدر .. أو الآلهـــة .. هي التي تتحكم فيه لغير شيء سوى شهوة التحكم ، بلا منطق واضح ولا مبرر مفهوم !

وتقع المأساة حين يتحطم البطل – الصالح – على يد القدر ، أو على يد الآلهـــة الجبـــارة التي لا ترحم ، والتي تفتك بالبطل لغير معنى .. سوى عقابه على أن يتحدى الآلهة الجبـــارة ، ويريد أن يصبح إلهاً هو الآخر ، متحكما في مصير نفسه ، صانعاً تاريخه بيده .. غير مـــصيخ للقوى الخارجية التي تُخضع بجبروتها الإنسان .

ويظل فـــي نهاية المأساة هـــذا الإحساس : أن الإنسان خيّر .. ومظلـــوم . وأن الآلهـــة شريرة .. وظالمة . وأنه لا وسيلة للصلح بين الجبروت الظالم والخير المظلوم !

وفي ظل هذا التصور الجاهلي نبتت – كما قلنا – " روائع فنية " تلقي أضواء كاشفة على أغوار النفس البشرية ، وترتفع معها أحياناً إلى آفاق عليا .. ولكن الجو المسمم الذي يعطيه ذلك الصراع ، يفسد هذه الروعة الفنية ، ويلقي عليها ظله الكريه ..

وربما كان مفهوماً – من حيث التحليل النفسي – أن يوجد مثل هذا الانحراف في طفولـــة البشرية التي تمثلها الفرة اليونانية .. ففي الطفولة – المنحرفة – يحب الطفل أن يثبت ذاته بـــان يرفض اليد " العليا " التي توجهه ! كأنه يحس في ظل هذه اليد الموجهة معنى العجز والضآلة !

على عاتقه هـــذه الدراسة ، فهي ظاهرة تستأهل الدراسة حقا ، وربما ألقت ضوءًا كاشفاً علـــى تـــاريخ الفـــن ودلالاته .

وأن الشخص " الكبير " لايخضع لأحد .. إلا ذات نفسه .. ومن ثم – لكي يحس أنـه كبيـر – يخرج على توجيه الكبار .. ويتحداهم . ويحس – حين يصل الانحراف أقـصاه – أن الكبـار يريدون أن يحطموه ويصغروا من شأنه .. وكلما زاد خروجاً عليهم ، وزادوا توجيهاً لـه ، زاد هو نفوراً وحقداً على هذا التوجيه .. وود لو يرد على هؤلاء الكبار بتحطيمهم أجمعين !

هذا انحراف خطر يعرفه علم النفس التحليلي معرفة وثيقة !

ولقد كان هو ذات الانحراف – أو شبيهه – الذي استولى على الـنفس اليونانيـة فـي جاهليتها ، فأنتجت هذا السيل من الفن – " الرائع " في بعض جوانبه – والذي لا يسلم من هـذا الظل الكريه الذي يلقيه الصراع البشع الدائر بين الآلهة والإنسان ..

وليست أسطورة بروميثيوس وحدها هي التي تشير إلى هذا الـصراع .. ولكنهـا جملـة أساطير ، سجلتها المسرحيات اليونانية في مختلف العصور ..

وهو انحراف .. حتى بالنسبة للطفولة البشرية ! فليس كل طفل يشعر بذلك نحو الكبار . وإنما هو في صورته السوية يبادلهم الحب . وقد يتألم أحياناً من توجيهاهم لأنها تؤذيه في ذات نفسه – والنفس بطبيعتها تكره النقد وتحب المديح – وقد يحب كذلك أن يثبت ذاته بـأن يعتمـد على نفسه فيما كان يتلقى فيه العون من قبل من الكبار .. ولكن لا يصل الأمـر إلـى الحقـد والكراهية والرغبة في التحطيم ، وتصور رغبة الآخرين في تحطيمه ، إلا حين يكون في الأمر انحراف ..

وفي الجاهلية اليونانية كان ذلك الانحراف ، الذي انعكس في فنهم واضـحاً ، لأن الفـن صورة من النفس وصورة من الحياة ..

* * *

تلك سمة من سمات الجاهلية اليونانية ، في الحياة والفن ..

وسمة أخرى هي عبادة الجسد ..عبادة وثنية تجعل من الجسم الجميل إلهاً يعبد ، وتقدم له القرابين .. ويزعم لها الزاعمون أنها ليست شهوة .. وإنما هي فن ! فن يعجب بالنسب والأبعاد ؛ بالجمال المجرد ، وإن كان يتجسم في جسد إنسان !

وفي الجاهليات – من هذا النوع – مزاعم كثيرة .. لا تثبت للتمحيص ..

فواقع الحياة اليونانية – التي زعمت أنها تعبد الجمال جمالا مجرداً من شهوة الجسد – كان هذا الواقع يعج بالمباذل الخلقية التي دمرت في النهاية حضارة اليونان .. كما أن أساطير " الحب " والجمال عند الإغريق ، حافلة بهذه المباذل التي يغرق فيها البشر والآلهة إلى الأذقان !

لقد كانت إذن شهوة هذا الجسد ، تتستر وراء عبادة الجمال !

* * *

هذان الانحرافان الجاهليان في الجاهلية اليونانية القديمة ، ألقيا ظلهما طويلا ، وطويلا جدا ، على الفنون الغربية منذ عصر النهضة إلى العصر الحديث ..

فبعد الفترة المسيحية – القصيرة نسبيا – التي شغل الفن فيها " بالإله " على الصورة التي قدمتها الكنيسة الغربية ، وامتد فيها ظل الجاهلية اليونانية والرومانية معاً في تجسيد الإله وعبادته في صورة وثن حسي ملموس ، في التماثيل العديدة التي قامت لهذا الشأن [103] . بعد هذه الفترة عادت الهيلينية منذ عصر النهضة تحكم الاتجاهات الفكرية والفنية حكماً واضحاً صريحاً .. وترد الناس إلى وثنية اليونان كاملة في كل شيء ..

---

[103] مما هو جدير بالذكر أنه بعد احتكاك المسيحيين بالمسلمين في العصور الوسطى قامت في أوروبا الحركة الشهيرة المعروفة بحركة تحطيم التماثيل ، التي كان رائدها ليو الثالث The Iccnoclast في القرن الثامن ، واستمرت مائة وعشرين سنة من تاريخ الكنيسة الأوروبية . ولكنها لم تستطع أن تتغلب على هذه الرغبة الوثنية في تصوير " الإله " في صورة محسوسة !

ولقد مرت على أوروبا فترة عاشت فيها بشخصية مزدوجة ، مسيحية وهيلينية فـــي ذات الوقت . مسيحية في العقيدة ، وهيلينية في التفكير والفن .. ثم جنحت رويداً رويداً إلى الوثنيـــة الكاملة في كل شيء ..

وجاء الوقت الذي عبدت فيه أوروبا " الطبيعة " وهي هاربة من الكنيسة وإلهها الـــذي تستعبد به الناس !

هذه الفترة تتوافق – في تاريخ الفن الأوربي – مع الحركة الرومانتيكية .. إنها مرة أخرى فن مشغول " بالإله " ولكن على انحراف في تصور الإله !

إن الحركة الرومانتيكية لم تكن حركة " إعجاب " بالطبيعة .. وإنمـــا كانـــت " عبـــادة " للطبيعة ..

وذلك هو مصدر الانحراف فيها !

التجاوب مع الطبيعة شعور إنساني أصيل .. عميق في أعماق الفطرة . فقد خلق الإنسان وفي فطرته هذا التجاوب الحيّ مع الأحياء الآخرين ومع الكون .. كما خلق وفي فطرتـــه هـــذا السرور الخفي " بالجمال " : أبعاده ومقاييسه ، وألوانه وظلاله ، وكل صورة من صوره ..

وإذن فلا انحراف في " الإعجاب " بالجمال .. بل هو الأمر الطبيعي الذي يعتبر غيابـــه نقصاً في الكيان البشري ، وانحرافاً عن الفطرة السليمة .

ولكن " عبادة " الجمال – في أية صورة من صوره – هي انحراف وثني ، لا تلجأ إليـــه الفطرة السليمة ، التي تعبد الله خالق الجمال ، وتعبده من خلال الإعجاب بالجمال ، ولكنهـــا لا تجعل عبادته في داخل هذا الوثن الذي اسمه الجمال !

وفرق بين الاثنين واسع كبير !

وكل الكلام " الجميل " المعسول الذي قيل لتبرير هـــذه الوثنية : أن الطبيعة " محـــراب " الله . أن الجمال " صورة الله . أننا نعبد الله في خلقه .. إلى آخر هذه الجمـــل " الرومانتيكيـــة "

البراقة .. كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفي تلك الروح الوثنية الغارقة في الوثنية ، التي تعبد " المحسوس " في حقيقة الأمر ، لأنها تعجز عن إدراك " الله " بالروح .. والــروح غنيــة عــن المحسوسات !

وقد كانت الرومانتيكية – بهذا المعنى – حركة وثنية منحرفة .. بصرف النظر عما يراه فيها " الواقعيون " من أنها كانت منحرفة لأنها لا تعيش في " الواقع " ولأنها تمثل حركة هروب من الحياة [104] .

* * *

ومن الرومانتيكية " المنحرفة " [105] انتقلت أوروبا إلى جاهلية فنيــة جديــدة .. هــي " الواقعية " المنحرفة !

وكان ذلك – مرة أخرى – يمثل تحولا في العبادة ، وتحولا في الإله !

بطلت عبادة الطبيعة .. حين كشفت " أسرارها " وسيطر العالم الإنساني عليهــا – كمــا تصورت أوروبا – وبردت حرارتها .. وانتقل الإنسان إلى عبادة جديدة فــي ظــل الانقــلاب الصناعي ، والفتنة بالعلم ومخترعاته ، والفتنة بقدرة " الإنسان " .

وكانت العبادة الجديدة هي عبادة الإنسان !

لقد آن أن ينفض الإنسان عن نفسه عبادة " الله " ، التي اعتنقها في فترة جهله وعجــزه ، وأن يصبح هو الله !

---

[104] سبق أن بينا في مقدمة الحديث عن الفن أن الرومانتيكية لم تكن انحرافاً عن " الواقع " ! فقد كان الواقــع في تلك الفترة هو " الهروب " .. الهروب من الكنيسة ومظالمها ، والإقطاع ومظالمه .. وكل الواقع السيئ الذي كانت تعيشه أوروبا ، وتعجز – في ذلك الحين – عن تغييره . فهي إذن واقعية في تصوير الحالة النفسية للناس في وقتها . وتضيف هنا أنها كانت واقعية أيضاً في تصوير " عبادة الطبيعة " التي لجأ الناس إليها هروباً من إله الكنيسة . ولكن الانحراف الحقيقي فيها هو هذه الوثنية التي تحول عبادة الله إلى عبادة المحسوس .

[105] منحرفة بالمقاييس التي بيناها في هذا الفصل ، لا بالمقاييس الفنية الأوروبية التي لا تدرك ما في طبيعتها من انحراف !

ومرة أخرى تتبع الفن الغربي الإله الجديد .. فوجه اهتمامه – بدلا من الطبيعة – إلى الإنسان !

ومرة أخرى نقول إن " الاهتمام " بالإنسان ليس في ذاته انحرافا .. في الفن أو في واقع الحياة . فمن الأمور الطبيعية البديهية أن يهتم الإنسان بنفسه ، وبتصوير حياته وانفعالاته ، ومشاكله وصراعاته ، وجهاده وكدحه على وجه الأرض ..

ولكن الانحراف هو " عبادة " الإنسان

وقد كان اهتمام الفن الأوروبي بالإنسان في هذه الفترة " تحديا " للإله !

فليس الأمر مقصورا على إبعاد الله البتة من مجال الفن ، وتحريم المشاعر الدينية والأفكار " المستقيمة " على الجو الفني ، بل تعداه إلى السخرية العنيفة – المقصودة – بكل شعور ديني ، وبكل توجه إلى الله !

ولم يكن الأمر كذلك مقصورا على السخرية " برجال الدين " المنحرفين .. ففي وسع الفنان أن يسخر ما شاء من " رجل الدين " المنحرف ، ليعيد للدين الحقيقي وقاره ، ويرسخه – في صورته الصافية – في قلوب الناس ووجدانهم .

ولكن فن هذه الفترة لم يكن يسخر برجل الدين ليرد للدين الصحيح اعتباره وصفاءه وقداسته .. وإنما هو يستتر وراء رجل الدين ، ليسخر في الحقيقة من مفاهيم الدين كلها ، ومن " سذاجة " الإيمان بالله !

وانتشر الأدب " الإلحادي " في كل الأرض .. أدب مليء بالتوقح على الله ، والسخرية من عبادة الله .. وسمي هكذا " تحررا فكريا " ليس غير .. !

* * *

ولكن في ذات الوقت كان تياران جاهليان آخران يجرفان الفن " الواقعي " في طريق الانحراف .

التفسير الحيواني للإنسان .. والتفسير الجنسي للسلوك .

التفسير الحيواني للإنسان ألقى ظله على لون من الفن الواقعي سماه أصحابه الفن " الطبيعي " .. يصور الإنسان مجموعة من السفالات ممتدة بغير حد ! فالإنسان سافل بطبعه ، دنيء ، مخاتل ، مخادع ، انتهازي لا مبادئ له ولا أخلاق . وإنما هو يلجأ إلى " التظاهر " بالأخلاق والمبادئ نفاقا .. من أجل المجتمع ! [ولم يقل أحد من هؤلاء الناس جميعا لماذا يترضى الإنسان المجتمع " بالتظاهر " بالأخلاق والمبادئ !! ألم تكن لهذه الظاهرة – على فرض صحتها – دلالة ما على كيان الإنسان ؟!] .

والتفسير الجنسي للسلوك أنشأ " فنا " كاملا قائما بذاته .. الأدب المكشوف ، والصور العارية ، والسينما العارية ، والقصة العارية ، والأغنية المثيرة ، والنكتة المصورة العريانة .. و ..

وراج هذا " الفن " .. أو " رُوِّج " كما لم يحدث قط في التاريخ .

وكانت وراء ذلك الصهيونية العالمية تدمر كيان " الأميين " .

* * *

ولكن " الانحرافات " لم تقف عند حد .

لا بد أن يتبع الفن كل انحرافات التصور وانحرافات السلوك .. لأنه – في كل حالة من حالاته – صورة من الحياة .

إن " الجزئية " التي وسمت بطابعها التصور الإنساني للنفس البشرية ، قد ألقت ظلها كذلك على الفنون .

فمن نظريات فرويد عن العقل الباطن – وأنه هو – لا العقل الواعي – حقيقة الإنسان – نشأت السريالية في الأدب والفن ، ونشأ الفن التجريدي .. وغيره من " تقاليع " الفن الحديث .. كلها تقوم على أساس أن العقل الواعي هو الجزء المزور من الإنسان ، الذي لا يمثل حقيقته

الباطنية العميقة الأصيلة ! وإنما يمثلها فقط ذلك العقل الباطن ، " المنكوش " غير المرتب ، الذي يقبع في أعماق الإنسان !

وهو انحراف ظاهر البطلان .

فما الذي يمنع – في المنطق الإنساني – أن يكــون العقل الباطن والــواعي معــاً همــا الإنسان ؟!

وتلك حقيقة أولية بسيطة عرفها الإنسان منذ حاول أن يعرف نفسه ، قبــل أن يتفلــسف فرويد ، ويأتي بهذا العجب العجاب ! فقد عرف الإنسان أن له " أفكارا " منظمــة مرتبــة ، و " مشاعر " غير منطقية ولا مرتبة بمنطق الذهن .. وأن هذه وتلك معاً تكوّنان الإنسان !

ومــن " الفردية " المنحرفة نشأت الفنون التي تحــارب " المجتمــع " وتحــاول هدمــه وتحطيمه .. وفي مقدمتها الوجودية .. التي تقوم على عبادة " الفرد " . وأنه هو وحده الحكم فيما يأتي من الأمر . ليس لأحد – من " المجتمع " – أن يحدد له مفاهيمه ، أو أخلاقه ، أو تقاليده ، أو عقائده ، أو تصرفاته ، أو سلوكه .. ولا تنظر هذه الوجودية الحمقاء كيف يصير ذلك " الفرد " المقدس ذاته حين ينهار " المجتمع " ويصبح مجرد " أفراد " .. كل منهم يحكّــم هــواه ، بــلا ضابط ، ولا عرف ، ولا معيار ثابت للأشياء !

* * *

ومن التطور الذي " يخبط خبط عشواء " والكون الذي وجد " مصادفة " والوجود الــذي " ليس له غاية ولا خالق مدبر " .. نشأ فرع آخر من " الوجودية " ، يمثل " الضياع " !

واسأل إن شئت كيف يتمثل " الوجود " في " الضياع " !

اسأل الوجوديّ " الكبير " ألبير كامو .. الذي يصور حيرة الإنسان إزاء الكون .. وشعوره بالضياع والضآلة والقلق والاضطراب . لأنه لا " حكمة " وراء وجوده ولا " تدبير " ..

* * *

ثم انحرف الفن انحرافا جذريا آخر .. وراء " المعبود " الجديد !

لقـد بطلت – أو أخذت تبطـل – عبادة الإنسان .. وتلتهـا عبـادة الآلهـة الجديـدة .. الحتميات ..

واتجه الفن ، المشغول بالإله المعبود بصورة ظاهرة .. اتجه إلى عبادة الحتميات ، يفسر من خلالها الإنسان .

لم يعد الإنسان في ذاته هو موضوع الفن .. في المذاهب الحديثة التي تـسمى المـذاهب الاجتماعية وما شابه ذلك من الأسماء [106] . وإنما صار الإنسان مجرد إطار للألوهية الجديدة . تدرس من خلاله الحتمية الاجتماعية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية ..

فحياة الإنسان شيء ثانوي في هذا الفن . والشيء الرئيسي هو " الطور " الاجتمـاعي أو الاقتصادي أو التاريخي ، الذي يصوغ هذه الحياة ، والناس مجرد أشباح تحركها هذه الحتميات كرهاً عنها لتضعها في مكانها الحتمي من الصورة ، لا إرادة لها في تصرفاتها ولا اختيار ..

وصارت هذه الحتميات هي " القَدَر " الجديد الذي يسير حياة الإنسان .

ولكنه فـي هذه المرة ليس القدر اليوناني القديم ، المغيّب عن العـين ، والمغيّـب عـن الإدراك . إنه قدر مدرَك ، منظور ، يقاس بالنوع والكم ، والأطوال والأبعاد .. ومع ذلك يقـوم بين الإنسان وبينه ذات الصراع الذي كان يقـوم بين الإنسان وقدر الإغريق القـدماء .. مـع الفارق .. أن الآلهة الحتمية هنا على حق فيما تفعل .. لا تخبط خبط عشواء ! ومع فارق آخـر أسوأ : أن " الإنسان " لم يعد يصارع ليثبت ذاته .. فقد ضاع – في ظل هذه الحتميات – وجود الإنسان ! وإنما يصارع لأنه غلطان !

* * *

---

[106] الأدب " الملتزم " مذهب من مذاهب الجاهلية الحديثة ! يلتزم بالتفسيرات المادية للحياة البـشرية ويـسمى ذلك التزاماً " بالقيم " الاجتماعية !

في ظل هذه السلسة المتوالية من الانحرافات الجاهلية أنتج الفن الأوربي روائع إنسانية بارعة .. !

ولكنها روائع مشوهة بسبب ذلك الانحراف !

إن ما فيها من روعة الإداء [" التكنيك "] ومن روعة التصوير لجوانب من النفس البشرية ودقائق الحياة ليأخذ الإنسان .. فيتمنى أن لو كانت سلمت من هذه الانحرافات الجاهلية التي تفسد ما فيها من جمال !

ولا شك أن قلة منها قد نجت من لعنة الانحراف .. فما يمكن – كما كررنا مراراً من قبل – أن تتمحض النفس البشرية للشر ، ولا يكون فيها خير على الإطلاق ..

هذه القلة النادرة هي الفن الحقيقي الصافي ، الجدير بالوجود في سجل البشرية الفني ..

ولكن كثرة من " الروائع " قد لوثها الانحراف من هنا ومن هناك . فصارت كالوجه الجميل الذي شوهته آثار " ماء النار " ! تحس أنه " كان " جميلا ، وترى فيه مواضع التشويه ..

أما غير الروائع .. وهي من حيث الكم الجزء الأكبر من الفن الغربي المعاصر [ومن كل فن !] فالبضاعة الأصلية فيها ليست الجمال ، وإنما الانحراف !

الأدب الجنسي كله .. الذي يصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس طاغية مسعورة .. لا هو فن ولا جمال .. ولا حقيقة ! فليست الحقيقة البشرية هي ذلك السعار !

والأدب " المتهوس " كله .. الذي يصور هلوسة العقل الباطن على أنها حقيقة الإنسان .. لا هو فن ولا جمال ولا حقيقة .. فليست حقيقة الإنسان هلوسة بلا دليل !

وأخيراً جاء اللا معقول !

إنه قمة الخبل الأوربي في عصره الحديث !

جاء نتيجة اليأس القاتل من كل " التجارب " البشرية المنحرفة عن منهج الله !

لقد جربت تلك البشرية الضالة كل أنواع التجارب بعيداً عن منهج الله .. فأعثرتها !

جربت المادية الطاغية .. وجربت الرأسمالية الطاغية .. وجربت الشيوعية الطاغيـــة .. وجربت الفردية الطاغية .. وجربت الجماعية الطاغية ..

وكل هذه التجارب لم تمنح البشرية الهدوء والطمأنينة واليقين ..

من أجل ذلك كفرت بهذه التجارب كلها التي أنشأها " العقل " البشري ..

وارتدت إلى اللا معقول !

سواء كانت العاطفة الجامحة التي لا يمسكها دليل العقل ، أو الهلوسة الباطنيـــة التـــي لا يحكمها التفكير المنظم .. أو .. ؟ كلها انفلات من المعقول إلى اللا معقول ..

وهي جاهلية جديدة .. لأنها لا " تهتدي " إلى يقين تفر إليه من القلق والحيرة والاضطراب والشكوك !

وتلك هي صفحة الفن الغربي .. بكل " روائعه " المرموقة ..

صفحة من الجاهلية المتصلة من لدن جاهلية اليونان إلى جاهلية القرن العشرين !

وهي – ككل شيء في هذه الجاهلية – براعات فائقة ولكنها مضيعة .. مضيعة لأنهـــا لا تعرف سبيل الرشاد !

ولم يكن الفن قادراً – في ظل الجاهلية الطاغية – أن ينجو بنفسه ، ويـــسير بعيـــداً عـــن الانحراف ..

فالفن – في جميع حالاته – صورة من الحياة !

في كل شيء .. !

ماذا بقي في هذه الجاهلية بلا انحراف ؟!

لقد تتبعناها في كل مجال من مجالاتها .. في النفس والمجتمع .. في السياسة والاقتـصاد والاجتماع .. في الأخلاق والفن .. في التصور والسلوك .. فهل أبقت شيئا من حياة الإنسان لم يتطرق له الفساد ؟!

شيء واحد يبهر الناس بشدة في هذه الجاهلية ..

إنه العلم . والتيسيرات الضخمة التي أدخلها العلم على حيـاة الإنـسان . والإمكانيـات الضخمة التي فتـح العلم مجالها أمام الإنسان .. والتنظيمات الهائلة التي أقـدر العلـم عليهـا الإنسان ..

من أجل ذلك يُقبلون على هذه الجاهلية وينهلون من منابعها .. متصورين – فـي وهـم جاهلي ضخم – أنه ما دام العلم صاعدا ومتقدما ، فالحياة البشرية كلها لا بد أن تكون صـاعدة ومتقدمة ، وسائرة على صواب !

وهم من أوهام الجاهلية .. له أمثال كثيرة في التاريخ .

فكل جاهلية ذات حضارة ، كانت تظن أن حضارتها – المنحرفة – هي الخير والبركـة والارتفاع الذي ليس وراءه ارتفاع .

وكانت النتيجة الحتمية واحدة في النهاية .. انهارت تلك الحضارات .. أو تلك الجاهليات ، بحكم ما فيها من جاهلية وانحراف .

و " العلم " ليس نتاج الجاهلية !

العلم خط بشري صاعد أبدا لا يتوقف – إلا نادرا – في خط سير البشرية !

وهو طاقة محايدة .. لا توصف – في ذاتها – بالخير ولا بالشر . ولكنها تعمل في خدمة " السيد " الذي يسيطر عليها . و " تتقدم " بالخير وبالشر سواء !

إن الدافع الأكبر للعلم هو الطبيعة البشرية ذاتها كما خلقها الله محبة للمعرفة ، تواقة إلى القوة ، متطلعة إلى المزيد من السيطرة على طاقات الكون .

وهو بهذا بعيد عن مكان الخير والشر في كيان الإنسان .

إنه كامن في " عقله " لا في " ضميره " .

والعقل لا يتوقف – إلا نادرا – في خط سير البشرية !

ولذلك يتقدم العلم ولا يتوقف ، في الهدى وفي الضلال سواء !

إنما الذي يتأثر بالهدى والضلال هو الطريقة التي يستخدم فيها العلم ، والمجال الذي يستخدم فيه !

* * *

يجب الفصل إذن بين العلم وبين الجاهلية ..

لا العلم من منشآت هذه الجاهلية حتى يُحْرَص عليها من أجله ، ولا هو عرضة للتوقف إذا انهارت هذه الجاهلية وحل محلها منهج الله !

ولقد عرفت البشرية من قبل منهج الله ، فكان هو ذاته الذي بعث العلم من شتاته الضائع ، وحركه أكبر حركة في تاريخ العلم يومئذ .. الحركة التي وجهت أوربا – باحتكاكها بالمسلمين في المغرب والأندلس – إلى المذهب التجريبي ، وكل ما نتج عنه بعد ذلك من نتائج باهرة ما تزال في الازدياد !

* * *

ليس العلم من نتاج الجاهلية الحديثة .. بل الجاهلية الحديثة هي التي توجهه في سبيل الشر وفي سبيل التدمير !

إنما هو نتاج " بشري " ضارب بجذوره في التاريخ ، ظلت تسلمه أمة إلى أمة حتى وقع اليوم في يد أوربا . ففتحت به فتوحا ضخمة ، ولكنها كذلك انحرفت به عن السبيل ، فأفسدت الأخلاق وهددت العالم بالتدمير ..

فإذا أخرجنا العلم من حصيلة الجاهلية الحديثة .. فلن يبقى لها إلا الجاهلية العمياء ..

هناك – حقا – خير متناثر في كل الأرض ..

هناك تحقيقات مختلفة لكيان الإنسان .. في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفن .. هناك عدالة جزئية وفضائل جزئية ومكاسب جزئية حصل عليها الإنسان ..

وهي ضخمة في ظاهرها .. لأن كل شيء في العصر الحديث يتسم بالضخامة .

ولكن المقياس الحقيقي لمقدارها ينبغي أن يكون بالقياس إلى الشر المستشري في كل الأرض ، والظلم الطاغي في كل مكان ..

وينبغي ألا ننسى – في ظل الخير المتناثر – رغم ضخامته – مدى هذا الشر الغائل لكيان الإنسان ..

فلنتذكر ..

دكتاتورية رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا ، وما يفرضانه من المذلة على كيان الإنسان .

الملكية الطاغية التي تستعبد غير المالكين .. وانتزاع الملكية الطاغي الذي يستعبد غير المالكين !

الفردية الطاغية التي تدمر المجتمع .. والجماعية الطاغية التي تسحق كيان الفرد ..

التدهور المستمر في الأخلاق ..

الفساد الحادث في علاقات الجنسين ، وما ينشئه في النفس والمجتمع من شقاء بالغ وقلـــق واضطراب ، في حياة الرجل والمرأة والأطفال .

التوجيه الفاسد في الفن ، الذي يعود فينعكس على النفس فيفسدها ..

الـــ ... الـــ ...

لا شيء نجا من هذا الطغيان ..

والخير المتناثر فـــي كل الأرض .. على ضخامته .. جد ضئيل حين يقاس إلـــى هـــــذا الشر ..

فتات يتساقط من أيدي الطاغوت ، ليلهي البشرية ! وليبقي الطاغوت – وحده – مستمتعاً بجميع المنافع .. وبالسلطان !

* * *

على أن هناك أمراً خطيراً في شأن الجاهلية الضاربة اليوم في أعماق الأرض ..

فسواء رضي الناس بالعبودية للطاغوت واستكانوا إليه ، أم سخطوا استعداداً لإزالته مـــن على كاهلهم .. فمصير الجاهلية الطاغية ليس متروكا لاختيار الناس !

هنالك " حتميات " في أقدار الناس .. حتميات حقيقية لأنها من صنع الله .

ومن هذه الحتميات أن هذه الجاهلية لا تستيطع أن تبقى إلى الأبد مسيطرة علـــى أقـــدار الناس .. فإنها – لا بد – ستنهار ..

تنهار بحكم ما فيها من شر غالب .. " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [107] .

---

[107] سورة الأحزاب [62] .

ولكن سنة الله التي فرضت انهيار الجاهلية – بصورة حتمية – لما فيها مـن شـر ، لـم تفرض أن يعقبها – آليا – حكم الخير !

إنما " الناس " هم الذي يختارون لأنفسهم ما يحل بهم بعد انهيار الطاغوت .. إما الهـدى وإما الخضوع لطاغوت آخر ، يتلقف الشاردين في الجاهلية بعيداً عن مـنهج الله ، فيـستعبدهم بالطغيان .. كما انهار طاغوت الرأسمالية – أو كاد – فتلقف منه طاغوت الجماعية ما كان بيده من سلطان !

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " [108] .

من أجل ذلك كان لا بد للناس أن يفكروا لأنفسهم .. قبل الانهيار ! هل يعـدون أنفـسهم لطاغوت آخر أم يبحثون عن العلاج ..

وما العلاج ؟!

---

[108] سورة الرعد [11] .

لا بدّ من الإسْلام !

حين قال برتراند راسل كلمته المشهورة : " لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض ... " لم يكن " يتنبأ " بنبوءة .. وإنما كان يقرر حقيقة واقعة في الأرض . حقيقة كان الفيلسوف المعاصر " يراها " بذهنه الثاقب . وإن كان لا يراها الدهماء من البشر على سطح الأرض ، وفي مقدمتهم دهماء " المثقفين " !

والحقيقة التي كان يراها ذلك الفيلسوف – وإن كانت رؤية جزئية غير كاملة ، لأنه هو ذاته يعيش في ظل الجاهلية الحديثة ، ويتأثر بمفاهيمها وتياراتها – هذه الحقيقة هي أن هذه الجاهلية كلها تؤذن بالانهيار ..

إن حضارة " الرجل الأبيض " قد أخذت مداها من الهبوط والانحراف .. ومن ثم **فلا بد** لها أن تنهار ..

ولكن انهيارها – كما قلنا في نهاية الفصل السابق – لا يترتب عليه – آليا – أن يحكم الخير مقادير البشرية !

إن انهيار الجاهلية – أي جاهلية – يترتب عليه فقط أن يتيح الفرصة للناس ، ليقيموا حياتهم على الخير .. حين يهتدون إلى منهج الله ، ويؤمنون بأنه الحق من ربهم ، وأنه سبيل الخلاص ..

فإذا لم ينتهز الناس هذه الفرصة .. ولم يسعوا سعياً جادا إلى إقامة منهج الله في الأرض .. فلن يحكم الخير – آليا – في حياة الناس .. وإنما ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية ، ومن طاغوت إلى طاغوت جديد .

* * *

غير أننا نرى في هذه المرة أنه لا مجال للاختيار !

لقد جربت البشرية في هذ الجاهلية الحديثة كل نظام يمكن أن يخطر في بال الإنسان .. الفردية والجماعية .. الرأسمالية والشيوعية .. الملكية واللا ملكية ..

وجربت المتاع الحسي المنطلق بلا غاية .. في المأكل والمشرب والمسكن والملبس .. والجنس ..

وجربت الإيمان بكل " إله " من صنع الإنسان .. والإنسان المتأله .. والإلحاد بكل إله ..

ثم .. ؟

ثم ازدادت مع كل تجربة حيرتها وشقاؤها واضطرابها وخلخلة روابطها .. حتى جنت أو كادت تجن !

ومن ثم .. فلم يعد هناك مجال للاختيار !

إما الله .. وإما الانهيار !

* * *

ولسنا نتنبأ بما يحدث غداً للبشرية ..

" قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ " [109] .

" وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً " [110]

ولكننا فقط نستقرئ سنة الله : " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [111] .

---

[109] سورة النمل [65] .

[110] سورة لقمان [34] .

[111] سورة الأحزاب [62] .

وسنة الله توحي – بعد هذه التجارب المريرة التي مرت بها البشرية في الجاهلية الحديثة – بأنه إما الهدى وإما الدمار ..

إن الجاهليات تظل تعيش ، بمقدار ما فيها من خير متناثر ، حتى يغلب ما فيها من شر طاغ ، فيختنق الخير ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ..

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، تتدخل إرادة الله ، فتحدث التغيير . ولكنها تحدثه من خلال سعي البشر وحركتهم :

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " (112)

تتدخل تدخلا حاسماً فتخسف الأرض بالطغيان كله ..

أو .. تهدي الناس إلى الله .. فيدخل الناس – أفواجاً – في دين الله .

ونحن على أبواب تدخل سافر من تدخلات الإرادة الإلهية الحاسمة .. لأن الطاغوت الحاكم في الأرض وصل إلى حد حاسم . وانقلب الخير حسيرا لا يملك أمراً في ظل الطاغوت ..

والناس يختارون لأنفسهم ..

إما التدمير الشامل إن ظلوا فيما هم فيه من الشرود والطمأنينة والاستقرار .

ونحن أحسن ظنا بالبشرية ، وبقدر الله ، من أن نظن أن الله – سبحانه – قد كتب على البشرية الدمار !

وإذن . فلا بد من الإسلام .

" إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ " (113) .

* * *

(112) سورة الرعد [11] .

(113) سورة آل عمران [19] .

لا مخلص للناس من جاهليتهم وضلالهم ، وشقائهم وحيرتهم ، وقلقهـــم واضـــطرابهم ، وتمزق حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم .. إلا بالإسلام !

ولم يكن للناس مخلص من الجاهلية فـــي تاريخهم كله .. إلا بالإســـلام بمعنـــاه الواســـع الشامل .. الإِسلام الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صـــلوات الله وســـلامه عليهم .

وقد اكتمل " الإسلام " في دين الله الأخير ..

" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً " [114] .

وهذا الإِسلام – في صورته الأخيرة المكتملة – هو العلاج الوحيد لكل جاهليات الأرض ، ولهذه الجاهلية الحديثة على وجه التخصيص .

إن الإسلام هو الذي يعطي الوضع الصحيح لكل ما انحرفت به الجاهلية : في التـــصور والسلوك . في السياسة والاجتماع والاقتصاد .. في الأخلاق والفن وعلاقات الجنسين .. وكـــل شيء في حياة الإنسان ..

وسنتتبع في هذا الفصل مفاهيم الإسلام في هذه الأمور ، لنرى – بعد أن شهدنا الجاهليـــة الحديثة تفسد كل كيان الإِنسان وحياته ، وتشيع الخلل والاضطراب في جميع شئونه – كيف يرد الإِسلام الأمور إلى مكانها الحق ، الواضح ، المستقيم .. فتستقيم حياة الإنسان في مجموعهـــا ، حين تستقر الكليات والجزئيات في مكانها الصحيح .

انحرفت الجاهلية في تصورها لله ، والكون والحياة والإنسان ..

ومن انحرافها في هذه التصورات انحرفت في سلوكها كله : فـــي الـــسياسة والاقتـــصاد والاجتماع والأخلاق والفن ..

---

[114] سورة المائدة [3] .

وسنرى كيف تستقيم هذه الأمور كلها حين يستقيم التصور في فكر الإنسان وضـــميره .. لأن التصور هو الأصل الذي ينشأ عنه السلوك ، فينحرف بانحرافه أو يستقيم ..

ولقد استقام هذا التصور مرة في حياة البشرية .. على يدي رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم ، والأمة المسلمة التي رباها على عينه ، والتي قال فيها خالقها : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " [115] .. وعندئذ استقامت شـــئون الحياة كلها ، في جميع فروعها وميادينها .. وقامت أكبر حركة بعث في التاريخ ..

وانطلقت الحركة المهتدية بمنهج الله ، تنشر الهدى في كل الأرض ..

وعلى الرغم مما أصاب المسلمين من انحراف تدريجي عن هذا المنهج ، فقد ظلوا قبـــسا منيراً في كل الأرض ، يعلّمون الناس ويهدونهم إلى سواء السبيل .. حتى انحسروا في داخـــل أنفسهم ، وكفوا عن الحركة والانطلاق .. وعندئذ انقضّت عليهم الجاهليـــة الحديثـــة تغمـــرهم بظلامها البالغ في الطغيان .. حتى خرجوا من دين الله واتبعوا خطوات الشيطان [116] ..

ومهما يكن أمر " المسلمين " اليوم .. فالإسلام ليس مقيدا بهم ولا متوقفاً عليهم !

الإسلام نور الله لكل البشرية .. والباب المفتوح لكل بني الإنسان ..

" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّـــةً لِلنَّاسِ بَشِيـــراً وَنَذِيـــراً [117] " " وَمَا أَرْسَـــلْنَاكَ إِلَّـــا رَحْمَـــــةً لِلْعَالَمِينَ " [118] .

* * *

كل ما انحرفت به الجاهلية الحديثة يصححه الإسلام ..

---

[115] سورة آل عمران [110] .

[116] انظر كتاب " هل نحن مسلمون ؟ " .

[117] سورة سبأ [28] .

[118] سورة الأنبياء [107] .

وقد كان الانحراف الأكبر الذي أنشأ الجاهلية كلها ، وترتب عليه ما ترتب من فساد في التصور والسلوك ، وشقاء في حياة الناس وقلق وحيرة واضطراب .. هو انحرافهم في تصور حقيقة " الإله " ، ومن ثم انحرافهم عن عبادة الله ، المتمثلة في اتباع منهجه وحده في الحياة .

والإسلام يبدأ من هذه النقطة بالذات ..

ولم يكن مصادفة ولا اعتباطا ، أن أنفق القرآن ثلاث عشرة سنة كاملة ، في تقرير قضية واحدة أصيلة : هي قضية الألوهية .. وقضية الاعتقاد .

لم يكن ذلك لأن العرب كانوا مغرقين في الوثنية فحسب ..

ولكن كان السبب – إلى جانب ذلك وقبل ذلك – أن هذه القضية هي محور ارتكاز الحياة البشرية كلها . لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفوس الناس ، ورسخت في ضمائرهم ، وصارت هي الأساس الذي يقوم عليه كل البناء ..

ولقد رأينا من واقع الجاهلية الحديثة مصداق هذه الحقيقة . رأينا كيف انحرفت حياة الناس كلها لمجرد أن انحرفت في نفوسهم قضية الألوهية ، فتفرقت بهم السبل ، وما عادوا يهتدون أو يستقرون أو يطمئنون .

لذلك ظل القرآن المكي كله لا يقول للناس شيئاً سوى قضية الألوهية وقضية الاعتقاد .

ثم لما نشأ المجتمع الإسلامي والدولة المسلمة في المدينة ، صار القرآن يتنزل بالتشريع والتوجيه ، في العبادات والمعاملات ، والفروض المختلفة التي فرضت على الأمة المسلمة لتقوم برسالتها الكبرى للبشرية . ولكن قضية الألوهية وقضية الاعتقاد لم تتخل عن مكانها لتفسح الطريق لهذه التشريعات والتوجيهات ، وإنما ظلت مصاحبة لها حتى آخر لحظة ، بل ظلت هي الأساس الذي تقام عليه التشريعات والتوجيهات ، في الشعائر والمعاملات سواء [119] .

وقد أعطى الإسلام الناس قضية واضحة في شأن الألوهية والاعتقاد ..

---

[119] راجع " في ظلال القرآن " تفسير سورة : " المائدة " و " الأنعام " و " الأعراف " جـ 6 ، 7 ، 8 .

الله هو الخالق . والله هو المدبر . والله هو الرازق . والله هـو المالـك .. والله هـو المسيطر . والله هو المعبود ..

قضية غاية في البساطة واليسر والوضوح .

لا تعقيدات في طبيعة الألوهية ، ولا غبش في قضية الاعتقاد .

إنه لا إله إلا الله .. لا إله في الكون كله ، في السموات والأرض ، إلا الله .. لا خـالق غيره ولا مالك غيره ولا مدبر غيره .. ولا شريك له في شيء من الملك أو الرزق أو الخلق أو التدبير ..

ومن ثم فلا معبود غيره .. ولا ينبغي لغيره أن يكون معبوداً في كل الكون .

تلك القضية البسيطة اليسيرة الواضحة هي التي قام عليها الإسلام كله ، وقامـت عليهـا الأمة المسلمة ، وقام عليها تاريخ الإسلام .

وقد ترتب على ألوهية الله – سبحانه – أن تكون له العبودية من كل الخلـق : السموات والأرض ومن فيهن والإنسان .

قضية أخرى بسيطة يسيرة واضحة .. فما دام هو الخـالق وحـده ، والمالـك وحـده ، والرازق وحده ، والمسيطر وحده .. فمن ذا الذي يمكن أن يتجه له الخلق بالعبوديـة غيـره . وكيف يتجهون بالعبودية إلى أحد غيره .. أو أحد معه !؟

من .. ؟

الإنسان ؟! وما الإنسان ؟! أو ليس خلقا من خلق الله ؟ الله هو الذي منحه القوة والتمكين ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ؟ هل هو – الإنسان – الذي خلق السموات والأرض وما فيهن ؟ هل هو الذي وضع للكون قوانينه التي يسير عليها ؟ وهل يملك أن يغير شيئاً مـن هذه النواميس لو أراد ؟ هل يستطيع أن يمنح المادة خواص غير خواصها ، أو ينشئها على غير قوانينها التي خلقها بها الله ؟ فكيف إذن يكون معبوداً من دون الله ، أو معبوداً مع الله ؟!

من .. ؟

الحتميات ؟! وما تلك الحتميات ؟! من الذي حتمها وأعطاها حتميتها على فرض أنها حقا حتميات ؟! أو ليست هي قَدَر الله فـي الكون والناس والأشياء ؟ وهي حتمية بما فيها من قـدر الله ، وليست حتمية في ذاتها إلا أن يشاء الله .. فكيف إذن تكـون معبـوداً مـن دون الله ، أو معبوداً مع الله ؟!

من .. ؟

من ذا الذي يمكن أن يتوجه له الخلق بالعبودية إلا الله ؟

* * *

ومن مقتضيات العبودية أن تكون الحاكمية لله وحده وأن يأخذ الناس تشريعهم عن الله ..

ولقد جادلت في هذا الأمر كل جاهلية في تاريخ الناس !

حتـى الجاهليـات التـي كانت تقـول : إنها " تعـرف " الله .. حتـى الجاهليـات التـي كانت تقـول : إنها " تعبـد " الله .. حتـى الجاهليات التـي كانت تظـن أنهـا تـؤدي العبـادة الحقـة لله .. كـل الجاهليات كانت تجـادل فـي هـذا الأمر ، وتظـن أن العبودية لله أمـر يختـلف عـن الإقـرار بالحاكميـة لله وحـده وأخـذ التـشريـع عـن الله دون سواه .

" وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ " (120)

كيف يعبدون الله – في زعمهم – ثم يأخذون نظام حياتهم عن غير الله ؟

كان هذا يكون فرضاً معقولا لو أن الله لم يشرع لهم . أو لو أنه قال لهم : شرعوا لأنفسكم من دوني !

---

(120) سورة الأنعام [91] .

أما وقد شرع لهم ، وقال لهم : أطيعوا شريعتي : " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [121] " .. " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [122] " .. " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " [123] .. " وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ " [124] فأنَّى يكون لهم أن يحكموا بغير ما أنزل الله ؟

لقد ركز القرآن على تقرير هذه القضية تركيزاً شديداً مكرراً واضحا في كل سور التشريع : أن قضية التشريع هي قضية الألوهية : الله – وحده – هو " الإله " ومن ثم فهو – وحده – صاحب التشريع . هذه من تلك . إفراد الله – سبحانه – بالألوهية ، هو كذلك – في ذات الوقت – إفراده بالحاكمية . فما يكون لأحد أن يكون في الأرض حاكما مع الله . وإلا فقد أشرك نفسه مع الله ، وأصبح مشركا ، ومن اتبعه مشركون [125] .

ولقد ضلت الجاهلية ضلالتها الكبرى حين فصلت " الشريعة " عن " العقيدة " . حين فصلت " الحاكمية " عن " الألوهية " .

ثم ترتب على ذلك كل ما ترتب من طغيان في حياة الناس .

وليس هناك نتيجة غير هذه النتيجة !

إنه حين يشرع أحد للناس من غير الله ، فقد اتخذ من نفسه إذن " إلها " ، يحلل ويحرم ؛ وقد اتخذ من نفسه إذن " طاغوتا " .. فالطاغوت هو كل حكم غير حكم الله . وهو " هوىً " في جميع حالاته . هوى الفرد أو الطبقة أو الجماعة أو الأمة الحاكمة .. ولقد رأينا – من واقع الجاهلية الحديثة – كيف صار الطاغوت حين صار إليه حكم الناس ، وحين رضي الناس

---

(121) سورة المائدة [44] .

(122) سوة المائدة [45] .

(123) سورة المائد [47] .

(124) سورة المائدة [49] .

(125) راجع ظلال القرآن جـ 6 – 8 .

بالعبودية له من دون الله .. أي حين سمحوا له أن يشرع لهم من دون الله .. كيف صارت الأمور إلى عبودية من الناس وذلة . وتجبر من الطاغوت وطغيان .

وليس هناك نتيجة غير هذه النتيجة ! في " الديمقراطية " المزعومة ، وفي الدكتاتورية سواء ! [126]

* * *

وإذ يعطي الإسلام التصور الصحيح للألوهية والحاكمية .. يبسط هذا التصور فيشمل الكون والحياة والإنسان .

إن الكون ليس إلهاً : وليس كذلك مخلوقا بلا غاية ولا تدبير .

إنه لا يُعبد في ذاته . ولا يستمد من ذاته حتمية حتى لنفسه .. وإنما يستمد وجوده وحتميات وجوده من الله .

الله هو الذي خلقه ، ومن ثم فهو ذاته عابد لله .. يسير بمقتضى سنته ، ويهتدي بهداه .

" ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [127] " .

ثم إن الكون لم يخلق عبثا ، ولا باطلا .. وإنما خلق " بالحق " .

" مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [128] " .

" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً [129] " .

---

[126] راجع الفصل السابق ، باب (في السياسة) .

[127] سورة فصلت [11] .

[128] سورة الروم [8] .

[129] سورة ص [27] .

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ [130] " .

ولقد لا يدرك الإنسان – بعقله – مدى هذا " الحق " الذي خلقت به السموات والأرض ، ولا أبعاده العميقة في الكون .. ولكن ما يعجز العقل عن إدراكه تتكفل به الروح . الروح المهتدية إلى الله . فهي – في تجاوبها مع الكون ، وإحساسها بالمشاركة الحية له ، المشاركة في العبادة ، والمشاركة في التوجه إلى لله الخالق ، والمشاركة في الصدور عن الله الواحد – تدرك في لمحة ما خلق به الكون من الحق ، وعمق هذا الحق في السموات والأرض ، وأبعاده العميقة في بنية الكون .

وكلما اتسعت " معلومات " الإنسان زاد علمه بهذه الأبعاد والآماد .. ولكنها ستظل قاصرة عن الإحاطة " بالحق " الأعظم – فهي معلومات تتصل بظواهر الشياء .. وستظل الروح هي الموكلة بذلك الحق الأعظم الذي خلق به الله الكون والحياة والإنسان .

* * *

والحياة ليست عبثا ..

" أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ [131] " .

إن الإسلام لا يقطع الصورة من اكتمالها ، ويعرضها مجزأة مشطورة ، فتبدو مشوهة عابثة هازلة .

إنه يرسمها مكتملة .. بشطريها .. فتتبدى في الحال جديتها وغائيتها وتنزهها عن اللهو والعبث والباطل .

---

[130] سورة آل عمران [190 – 191] .

[131] سورة المؤمنون [115] .

الحياة الدنيا – وحدها – ليست هي الحياة . وليس ما يقع فيها هو نهاية الصورة ولا نهاية الأحداث . وإلا فهي باطل وقبض الريح !

وإنما الحياة الدنيا هي " المقدمة " التي تترتب عليها " النتيجة " . والدار الآخرة هي التكملة والنتيجة . وهي لذلك " الحياة " الحقة .

" وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [132] " .

الحياة الدنيا هي المكان والزمان المخصصان " للابتلاء " والحياة الآخرة هي المكان والزمان المخصصان " للجزاء " .

" إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [133] " .

" وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [134] " .

" الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [135] " .

" وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [136] " .

" كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [137] " .

وبذلك تكتمل الصورة في التصور . ويطمئن القلب البشري كذلك ويستقر .

فحين يعرف الإنسان أن هذه الحياة ليست نهاية الصورة ولا نهاية الأحداث تعتدل حياته كلها في آن :

---

[132] سورة العنكبوت [64] .

[133] سورة الكهف [7] .

[134] سورة الأنبياء [35] .

[135] سورة الملك [2] .

[136] سورة الجاثية [22] .

[137] سورة آل عمران [185] .

فمن ناحية لا يتلهف اللهفة المجنونة على متاع الأرض . اللهفة التي تتملك القلب البشري – لا محالة – حين يستقر في أعماقه أنها فرصة واحدة – ذاهبة – لا تتكرر . إما أن تهتبل وإما أن تضيع . ويترتب على ذلك صراع مجنون على " تملك " المتاع .

ومن ناحية أخرى لا يدركه اليأس القاتل والشقاء المميت الذي يتملك القلب البشري حين يرى مظالم الأرض وانحرافاتها ، واضطراباتها وعذاباتها ، التي لا حيلة له فيها – مهما حاول وصارع واستيأس في الصراع – ثم يحس أنها النهاية الأخيرة ، وليس وراءها تصحيح للأوضاع الفاسدة ، ولا رد للمظالم الجائرة ، ولا تعويض عن الشقاء الذي لم يستطع دفعه ولا اتقاءه ، رغم المحاولة والاستبسال ، في الفترة المعطاة له من الحياة .

ومن ناحية لا يفسد ضميره ، ولا إيمانه بالحق والعدل الأزليين .. فلا ينحرف في سلوكه وأخلاقه : يظلم ويتقبل الظلم ؛ ويبرر الوسيلة بالغاية ، ثم لا يتحرى نظافة الغاية ولا نظافة الوسيلة ..

ومن ناحية " يخشى " الله ويتقيه ، ما دام لا بد ملاقيه .. فيعمل حساب هذا اللقاء ، بالتطهر والنظافة واتقاء الفساد ..

من أجل ذلك يركز الإسلام تركيزا شديدا على القلب البشري بذكر الآخرة ، وتصويرها ، وتجسيم مشاهدها ، وإبرازها ، ووصلها بالحياة الدنيا ، وتوحيد الطريق من الدنيا إلى الآخرة ، وترتيب هذه على تلك .. لأن هذا هو " المفتاح " الذي يضبط الوتر على ضبطه الصحيح ، فلا تصدر عنه النغمة النشاز .

* * *

ثم يجيء دور الإنسان ..

والإسلام يقدمه في أروع صورة وأبدعها ..

إن الإنسان ليس إلهاً .. وما هو كذلك بالحيوان .. ولا بالشيطان ! .. وإنما هو " إنسان " !

إنه خلق من خلق الله .. ولكنه فريد مميز ، كريم رفيع القدر .. إنه خليفة الله !

وبينما تخبطت الجاهلية الحديثة تخبطات شتى ، فجعلت من الإنسان إلهاً ، ثم جعلت منه في ذات الوقت حيوانا ، ثم جعلته في النهاية عبداً سلبيا خانعا لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد .. آلهة " الحتميات " ..

فإن الإسلام يضعه في موضعه الحق الذي لا ينحرف به ولا يتخبط تخبط الجاهليات ..

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " (138) .

" إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ " (139) .

" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (140) .

" وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ " (141) ...

* * *

إن الإسلام لا يمرغ الإنسان في الوحل كما مرغته الجاهلية الحديثة ..

نعم ، لقد أشار إلى " حقارة " منشئه كما أشارت الداروينية :

" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ " (142) .

" أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ " (143) .

---

(138) سورة البقرة [30] .

(139) سورة ص [71 – 72] .

(140) سورة الإسراء [70] .

(141) سورة التغابن [3] .

(142) سورة الحجر [26] .

(143) سورة المرسلات [20] .

وليس بعد ذلك حقارة في المنشأ .. الطين المتعفن والماء المهين .. ولكن ؟!

ما الإيحاء الذي يعطيه التوجيه الإيماني ؟

إنه لا يدلي بتلك الحقائق – وهـي حقائق نهائية قاطعة لأنها من المصدر الأوحد الذي يعلم الأمور علم اليقين – لا يدلي بتلك الحقائق ليوحي بحقارة الإنسان ، أو ضآلة قدره ، أو ضآلة دوره في الحياة ، مما أوحت به الداروينية إلى أتباعها الذين صاغوا كل التفسيرات الحيوانية للإنسان .. إنما يردف ذلك بالحقائق الأخرى المكملة لها ، حقائق التفضيل وحسن التصوير والاختيار للأمانة الكبرى : أمانة الخلافة عن الله ، فيتحقق بهذا التوجيه أمران في وقت واحد : عظمة الخالق ورفعة الإنسان . وتعمل هاتان الحقيقتان معاً لربط الكائن الإنساني بالله ، ورفعه إلى المستوى الكريم اللائق بخليفة الله ، وصيانته في ذات الوقت من الغرور المردي والتمرد الذميم .

الإنسان في تصوير الإسلام هو ذلك الكائن المزدوج الطبيعة ، المكون من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، ممتزجتين مترابطتين غير منفصلتين . ومن ثم لا يكون قبضة طين خالصة فيهبط كالجماد أو الحيوان ، ولا نفخة روح خالصة فيؤلّه أو يتألّه ! إنما هو مزاج من الطين ونفخة الروح ، يكوّنان هذا الكيان المتفرد في كل الخلق ، المتميز عن كل الخلق .. كيان " الإنسان " .

وهذا الكيان المتفرد قادر على الارتفاع قدرته على الهبوط .

" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا " [144] .

" وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ " [145] .

---

[144] سورة الشمس [7 – 10] .

[145] سورة البلد [10] .

" إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً " [146] .

وفـي هذا الخاصية يكمـن الابتلاء والجزاء .. فبمقتضى قدرته علـى الهبوط والرفعة ، والإرادة الممنوحـة له ليختـار بهـا – فـي كـل لحظـة وفـي كـل حالـة – بـين الهبـوط والرفعة ، بمقتضى ذلك يُترك فـي الأرض ليعمل ، ثم يجازى علـى عملـه يـوم الجـزاء .

* * *

ثم إنه كيان موهوب ..

فحين خلقه الله للخلافة وهب له أدواتها :

" وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. " [147]

" وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ " [148]

وبهذه المواهب يقوم بعمارة الأرض ، ويكلف بالخلافة ، ويتفرد بحمل الأمانة :

" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ ... " [149]

ومن مقتضى ذلك كله أن يكون عنصرا فعالا في الأرض ، لا كمّاً مهملا تـتحكم فيـه " الحتميات " وهو أمامها خاضع ذليل . إنما يعمل قدر الله في الأرض من خلال حركة الإنـسان وعمله :

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " [150] .

---

[146] سورة الإنسان [3] .

[147] سورة البقرة [31] .

[148] سورة النحل [78] .

[149] سورة الأحزاب [72] .

[150] سورة الرعد [11]

" وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ " [151]

ثم يجعل الله الكون كله مسخرا للإنسان ، والإنسان هو القوة الموجبة بالنسبة إليه :

" وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " [152]

وحين يرفع التصور الإسلامي الإنسان إلى هذا المدى الهائل الرفيع .. فإنه لا يجعله خصما لله يصارعه ويبغضه .. وإنما يحبه ويخشاه !

إن موهبة الله للإنسان لا تستدعي – بداهة – إلا الشكر والعرفان ! فالإنسان لم يمنح نفسه هذه المزايا ، ولا جعل نفسه خليفة الله ، ولا خلق نفسه ابتداء ! وكان في استطاعة الله – لو أراد – سبحانه – ألا يخلقه أصلا ، ولا يعطيه هذه المواهب أصلا . ومن ثم فالرد على هذه العطايا هو الشكر ، والتعبد ، وليس البغضاء والصراع كما صورت الجاهلية اليونانية العلاقة بين البشر والآلهة ، وألقت ظلالها طويلة عميقة على جاهلية القرن العشرين ، في تصورها للعلاقة بين الإنسان والله .

* * *

والإنسان في نظر الإسلام – كما هو في حقيقة فطرته – كائن مترابط . فلا انفصال بين عنصر الطين وعنصر الروح فيه . ليس جسداً خالصاً ولا روحاً خالصة . ولا انفصال بين شعوره وسلوكه . ولا عمله وأخلاقه . ولا مُثُله وواقعه . ولا عقيدته وشريعته . ولا دنياه وآخرته ..

كلها مزاج واحد ، وحسبة واحدة !

جسمه وروحه وحدة : جسمية روحية في آن .

وشعوره وسلوكه وحدة : شعورية سلوكية معاً في ذات الوقت .

---

[151] سورة البقرة [251] .

[152] سورة الجاثية [13] .

وعمله وأخلاقه وحدة : عملية خلقية بلا انفصال .

وعقيدته وشريعته شيء واحد هو " الدين " .

ودنياه وآخرته جزآن متكاملان من حياة واحدة متصلة ليس في داخلها انقطاع .

وهو كائن متوازن – أو ينبغي أن يتوازن .

لا الجسد يغلب فيه على الروح .

لا الواقع على الخيال ..

لا نزعته الفردية على نزعته الجماعية ..

لا نزعته السلبية على نزعته الإيجابية ..

لا دنياه على آخرته ..

لا ثقلته نحو الأرض ولا رفرفته للسماء ..

ومن هذا الكيان المتوازن يتوازن الفرد والمجتمع ، والتصور والسلوك ...

* * *

حين يستقيم هذا التصور الواضح المضيء في ضمير الإنسان .. تستقيم حياته كلها على الأرض .

ولقد استقام هذا التصور في نفس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المسلمة التي رباها على عينه ، فحدثت معجزات في الأرض لا مثيل لها في التاريخ :

تجمعت القبائل الجاهلية فصارت أمة مسلمة ..

وتركت النفوسُ الجاهليةُ إلفَها وعاداتها ، وعرفها وسلوكها ، ولذائذها المنحرفة وشهواتها ، وأساطيرها وخرافاتها .. واستوت على الصراط .. نفوساً جديدة أنشأها الإسلام إنشاء كأنما ولدت اللحظة .. على المولد الجديد " للإنسان " كله .. المولد الحقيقي في ظل الله ..

وقامت هذه النفوس المسلمة تنشئ واقعها إنشاء على نمط غير مسبوق .. ولا ملحوق . نمط ليس من وحي هذه البيئة ، ولا من عاداتها ولا من عرفها ولا من سلوكها الجاهلي . وليس من وحي " ضرورة " من كل ضرورات الأرض ..

قامت تحرر " الإنسان " من الطاغوت .. لغير سبب بيئي ولا دنيوي يدفعها إلى هذا التحرير !

فما الذي تغير في غضون هذه السنوات ؟

هل جد جديد في حياة الناس .. غير الإِسلام ؟

هل جد جديد يمنح الناس صفاء التصور للألوهية .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تتخبط في تصور الألوهية حتى القرن العشرين ؟!

هل جد جديد يمنح الناس التحرر من العبودية للناس .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال يعبد بعضها بعضاً ، بالخضوع لبشر من البشر يشرّع لهم حسب هواه ، ويلزمهم بما يرتئيه هواه .. فيخرون سجداً منفذين ، بسطوة " الدولة " وإرهاب " القانون " في دكتاتورية رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا على السواء ؟!

هل جد جديد يمنح الناس التحرر من العبودية لشهواتهم .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تستعبد لشهواتها ، بل تزيد استعباداً لهذه الشهوات كلما انحرفت عن منهج الله وهداه ؟!

هل جد جديد يصحح وضع " الإنسان " من الكون .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تتخبط في وضع الإنسان .. فتارة تمنحه ألوهية زائفة لا رصيد لها من الواقع إلا الغرور الأجوف ، وتارة تضعه في موضع العبودية الذليلة من هذا الكون : تتناوشه الحتميات الآلهة فتمرغ وجهه في الوحل ، وهو صابر ذليل مستخذ للسلطان الباطل ، لا يملك نفسه من هذا السلطان ؟!

هل جد جديد يصحح أخلاق الإنسان .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تتخبط في أخلاقها ، فتجعلها أخلاقاً " خصوصية " تارة – للبيض فقط !! – وأخلاقاً نفعية تارة .. ثم تظل تتدهور على الدوام ؟!

هل جد جديد يصحح وضع الفرد من المجتمع ، والمجتمع من الفرد .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، فتفتت المجتمع لحساب الفرد مرة ، وتسحق الفرد لحساب المجتمع مرات ؟!

هل جد جديد يصحح علاقات الجنسين .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال تجعل علاقات الجنسين متاعاً حيوانيا مسعوراً لا يسكن أو يهدأ .. وتبدد في هذا طاقات الإنسان ؟!

هل جد جديد يمنع الحاكم – فرداً أو طبقة أو شعباً – من أن يحكم بهواه ويحكم بالطغيان .. وهذه البشرية – في غير الإسلام – ما تزال يحكمها الطاغوت بأهوائه في ظل " الديمقراطيات " الزائفة أو الدكتاتوريات سواء ؟!

ماذا جد في غضون تلك السنوات ؟

لا شيء .. سوى استقامة التصور ، ينشأ عنها استقامة السلوك واستقامة الحياة !

* * *

قامت الأمة المسلمة التي رباها على عينه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تنشئ واقعها إنشاء .. من وحي الإسلام ..

قامت تنشئ استقامة عجيبة في سلوك الناس .

فيها ضعف البشر الفطري . نعم . ما زال الناس على بشريتهم ! ولكنهم يستقيمون إلى أقصى ما تتيحه الطاقة البشرية .. وهي تقدر – في ظل الإسلام الحق – على كثير .

قامت تنشئ ترابطاً عجيباً بين الناس ..

فيه ضعف البشر الفطـــري . نعم . كل إنسان يحب لنفسه الخير : " وَإِنَّهُ لِحُـــبِّ الْخَيْـــرِ لَشَدِيدٌ " [153] ولكن هؤلاء الناس استطاعوا أن تصفو نفوسهم بعضهم لبعض بدرجة لا مثيل لها في التاريخ : " يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ " . [154] " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " [155] " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـــاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ " [156] .

قامت تنشئ شعوراً " إنسانيا " نحو الناس كافة . " وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " [157] . " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـــوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ " [158] . (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا .. " [159] .

قامت نتشئ مجتمعاً يتوازن فيه الفرد والمجتمع .. الفرد له كيانه البارز ، المتحرر مـــن الطغيان ، الإيجابي المحسوس الوزن ، المكلف – بفرديته – بالرقابة على الحاكم والمجتمـــع ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمجتمع – المترابط – له كيانه في توجيـــه الأفـــراد ، وصوغ نفوسهم وأفكارهم على الحق ، وصيانة حرمات الله .

قامت تنشئ اقتصاداً تتوازن فيه المغارم والمغانم ، ويقوم على التكافل بين المالكين وغير المالكين ، أمة واحدة بعضها مسئول عن بعض ، والكل شركاء في الخير ، لا تستبد فئة قليلـــة

---

(153) سورة العاديات [8] .

(154) سورة الحشر [9] .

(155) سورة الحجرات [10] .

(156) سورة التوبة [71] .

(157) سورة المائدة [8] .

(158) سورة الممتحنة [8] .

(159) سورة المائدة [2] .

بالمال : " كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " [160] ولا يبقى في المجتمع محروم ، فالدولة – بيت المال – مسئول عن الجميع .

قامت تنشئ " أخلاقا " عجيبة في تاريخ الأرض .. في كل أمر من الأمور .

السياسة تقوم على الأخلاق . بين الحاكم والمحكومين في داخل الأمة المسلمة . وبين الأمة المسلمة ومن عداها ، في الوفاء بالعهد وحفظ المواثيق .. وعلاقات المجتمع تقوم على الأخلاق . والاقتصاد يقوم على الأخلاق ، في التعامل الفردي والجماعي . وعلاقات الجنسين تقوم على الأخلاق ، بدرجة من النظافة لم يشهدها التاريخ .

.. ومن ثم انطلقت هذه الأمة تنشئ بناء راسخاً ، يكفي من رسوخه أنه لم يتهدم في أكثر من ألف عام ، عملت فيها كل وسائل الهدم ، من الداخل والخارج ، وبيد **جميع** الأعداء !

* * *

ولم يكن واقع المجتمع الإسلامي – في داخل الجزيرة العربية – هو العجيبة الوحيدة في هذا الدين ..

فقد انساحت الأمة المسلمة في الأرض ، تبشر بدين الله وتقيم قواعد عدله في كل مكان حلت فيه .. فوصلت في نصف قرن من المحيط إلى المحيط ، بسرعة ما تزال تذهل الباحثين حتى اليوم ، بالمقارنة إلى أية حركة أخرى في التاريخ !

وأنشأت من ذلك المدى الواسع من الأرض والأمم والشعوب .. أمة واحدة !

لقد قامت " إمبراطوريات " كثيرة في التاريخ .. الإمبراطورية الرومانية ، والامبراطورية الفارسية . والامبراطورية الهندية . والامبراطورية الصينية .. وفي العصر الحديث قامت الامبراطورية البريطانية والروسية ... الخ

ولكن الأمر في الإسلام لم يكن أمر " امبراطورية " !

---

[160] سورة الحشر [7] .

فكل هذه الامبراطوريات قامت ثم انهدمت وهي عاجزة عن أن تجعل من الأمم والشعوب أمة واحدة على الرغم من كل المحاولات التي تبذلها . أما " العالم " الإسلامي فقد صار أمة واحدة بغير ضغط ولا محاولة من الحاكمين !!

والسبب بسيط .

هذه الامبراطوريات تحاول أن تخضع الشعوب **لنفسها** .. ومن ثم تحس الشعوب الأخرى أنها مغلوبة على أمرها ، وأنها تفقد صبغتها الخاصة لحساب الدولة الأم ، أو الدولة المسيطرة على قطيع الشعوب .

والأمة المسلمة في مجموعها كانت خاضعة لله ! ومن ثم أحست أنه لا غالب ولا مغلوب ! واحتفظت – كما شاءت – بصبغاتها الخاصة ، طالما لم تتعارض مع الإسلام .. وارتبطت كلها في شعور واحد : ارتبطت في عقيدتها لله . ومن أجل ذلك ما زال يربطها شعور الأمة الواحدة رغم كل المحاولات الجبارة الذي بذلت وتبذل لتفتيت هذه الأمة بكل سبيل وكل شعار ..

وقامت " حضارة " إسلامية رفيعة بانية ...

لم يكن لدى العرب من مقومات الحضارة كثير .. ففي بداوتهم ، وظروفهم الجغرافية والاقتصادية والعلمية ، لم تكن الفرصة أمامهم واسعة لإنشاء حضارة ..

وعلى الرغم من قيام حضارات سابقة في الجزيرة .. وعلى الرغم من اتصال العرب بالرومان والفرس .. فالواقع الذي شهده التاريخ أن انطلاقة المسلمين في إنشاء حضارتهم كانت شيئا آخر لا يقاس به ماضي العرب كله في شبه الجزيرة ، كما لا يقاس به جهد أية أمة أخرى معاصرة في ذلك الحين .

نعم . لقد اقتبس المسلمون كثيراً من التشكيلات الإدارية من الروم والفرس . ولكن قاعدة النظام الذي يستخدم هذه التشكيلات الإدارية ظلت إسلامية ! على الرغم من كل ما أدخل عليها

من الشوائب الغريبة على المدى التاريخي المتطاول نحو ألف عام . حتى كانت حضارتهم هـي الحضارة .. وهي مصدر الحضارة الأوربية الجديدة كلها كما يشهد الغربيون .

يقول بريفولت في كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity " .

" إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلـى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة " [161] .

وكانت كذلك حركة علمية هي – في وقتها – أكبر حركة علمية في التاريخ .

والعلم – بصفة خاصة – لم يكن مما وجه العرب اهتمامهم إليه .. إذ كانوا مشغولين دائماً بفن القول ، يجعلون همهم كله فيه .. وإنما الذي بعثهم يتعلمون وينشئون الحركة العلمية كان هو الإسلام .

وقد اقتبس المسلمون – كذلك – كل العلم الدنيوي من الأمم المجاورة لهم : علم اليونـان القديم ، وعلم الرومان ، وعلم المصريين وعلم الهنود .. في الفلك والرياضة والطب والطبيعـة والكيمياء .

ولكنهم لم يقفوا عند ما اقتبسوه .. لا في الكم ولا في النوع ..

فقد كانوا هم – المسلمين – الذين غيروا وجه العلم ، حين أنشأوا – بهدى مـن التوجيـه الإسلامي – المذهب التجريبي الذي تقوم عليه الحركة العلمية الحاضرة في أوربا بلا استثناء !

يقول بريفولت في كتابه الذي أشرنا إليه :

" لقد كان العلم أهم ما جادت بـه الحضارة العربية [يقصد الإسلامية !) علـى العلـم الحديث .. وعلى الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكـن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما

---

[161] عن كتاب " تجديد الفكر الديني في الإسلام " تأليف محمد إقبال وترجمة عباس محمود ص 149 .

تكون ، وأهم ما تكون ، في نشأة تلك الطاقة التي تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفي المصدر القوي لازدهاره : أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي .

" ... وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب [يقصد المسلمين !] ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا : **إنه يدين لها بوجوده نفسه** . فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ؛ وأخذوها من سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجاً كليا بالثقافة اليونانية .

" وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي .. كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب [يقصد المسلمين !] إلى العالم الأوربي " . [162]

ويقول دريبر الأمريكي في كتابه " النزاع بين العلم والدين " .

" تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم . وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن ثم كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي ... " . [163]

لقد كان هذا هو الترجمة العملية لتوجيه الله للمسلمين أن يتدبروا خلق الله ، ويبحثوا عن آيات الله في الكون . وتوجيهه لهم أن يعيشوا الحياة في الواقع لا في نظريات الخيال !

---

[162] المصدر السابق ص 149 – 150 .

[163] عن كتاب " الإسلام دين علم خالد " لفريد وجدي .

*   *   *

تلك كانت انطلاقة الأمة المسلمة في واقع الأرض حين استقام تصورها لله ، واستقامت عقيدتها في الله !

شيء يذهل له التاريخ .. من حيث الكم ومن حيث النوع سواء !

.. ولقد انحرفت الأمة المسلمة كثيراً عن منهج الله ..

أدركتها – بالتدريج – جهالة الجاهلية . ففصلت العقيدة عن الشريعة .. وأخذت " الدين " عقيدة مستسرة في القلب ، منقطعة عن الواقع ، بينما الواقع يحكمه دين غير دين الله ! فلم يعد منهج الله هو المحكم في واقع الأمة الإسلامية .. ومن ثم لم تعد أمة " مسلمة " وإن كانت ما تزال تتسمى بأسماء المسلمين ، وتصلي – أحياناً – وتصوم !

ثم إنها – كذلك – فقدت حضارتها وحاستها العلمية الفردية .. وانزوت في داخل نفسها ، تستسلم للضعف والهوان .. فزادت بذلك بعداً عن الإسلام ..

وانحلت أخلاقها .. فلم تعد تصدق . ولا تخلص . ولا تستقيم في المعاملة . ولا تقوم بينها روابط " الإنسان " .

ثم زادت فانزلقت في تيار الجنس الجارف .. في مصيدة يهود !

وبذلك خرجت عن كل الإسلام !

*   *   *

والإسلام بعيد عن هؤلاء !

الإسلام هو النهج الرباني الخالد ، الذي نزل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لا ينحرف بانحرافات البشرية .

وهو الباعث " للإنسانية " .. حيث تكون وكيف تكون ..

الإسلام هو المنهج الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور . من الطاغوت إلى الله .

وهو المخلص للناس من الجاهلية الراهنة الطاغية الرهيبة .. التي تدمر كيان الإنسان .

* * *

كل ما شهدناه من انحرافات الجاهلية لا يصلحه إلا الإسلام ..

حين يستقيم التصور على النهج الذي رأينا .. يستقيم السلوك .

حين تعود البشرية الضالة إلى الله ، تستقيم حياتها على الصراط .. في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن .. وكل شيء !

ولقد وضعت الجاهلية حجاباً كثيفاً بين البشرية ومنهج الله ...

التطور !

قالت إن التطور قد سار شوطاً بعيداً بالبشرية بعيداً عن الدين ! وقالت إن ما كان يصلح للناس قبل ألف وأربعمائة عام لا يصلح للناس اليوم .. لأنهم متطورون !

والتطور .. هو هذا الفساد المروع في التصور وفي السلوك .. الذي صحبناه في الفصلين السابقين من الكتاب ! والذي لم يدع جانباً واحداً من جوانب الحياة البشرية ولا النفس الإنسانية بلا انحراف !

التطور .. هو الذي أشرف بالبشرية على الدمار !

" ويحسبون أنهم مهتدون " !

أما منهج الله .. فهو كما هو منذ نزل .. المخلص من الجاهلية .. والمنقذ من الدمار !

حين يهتدي الناس إلى منهج الله ، ويتبعون هداه .. حين يؤمنون بالله الإيمان الحق .. حين يعبدونه حق عبادته لا يشركون به شيئاً من طواغيت الأرض .. لا يتبجحون على الله بترك شريعته والتشريع لأنفسهم .. لا يغتصبون لأنفسهم الحاكمية التي هي من شأن الله وحده .. حينئذ

تزول كل الانحرافات والمظالم ، والشقاء والعذاب الذي حل بالناس حين انحرفوا عــن ســواء العقيدة وسواء العبادة ، واغتصبوا الحاكمية ، واتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله : هــؤلاء يشرعون ، وهؤلاء يطيعون !

وما يزال الإسلام – كعهده يوم نزل – هو المصحح لانحرافات البشرية ، والهادي إلــى الصراط ..

وهو اليوم – كما كان قبل ألف وثلثمائة عام – الفيصل بين الحــق والباطــل ، والبــاني للإنسانية الرشيدة ، والهادم للانحراف والطغيان ..

وحين يؤمن به الناس .. تعتدل حياتهم وتستقيم ..

* * *

ولا يتسع بحث كهذا لعرض مفاهيم الإسلام – بالتفــصيل – فــي الــسياسة والاقتــصاد والاجتماع ، والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن ... وكل شيء !

ولكنه يتسع لعرض مختصر لهذه المفاهيم ، يعرض فقط رءوس المــسائل .. يعــرض " المفاتيح " !

لقد أوضحنا من قبل انحرافات الجاهلية في هذه الأمور كلها .. مــن " مفاتيحهــا " . لــم نعرض لتفصيلات الجاهلية فيها إلا بالقدر الذي يوصلنا إلى مكمن الانحراف وعقدة الاختلال .. وكذلك حين نعرض منهج الله في هذه الشئون كلها لن نذكر من التفصيلات إلا القدر الذي ينيــر لنا السبيل لتصحيح الانحراف .

أما البحث التفصيلي في المفاهيم الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والفنية .. الخ ، فمجاله كتب مستقلة في كل باب .. كتب متخصصة يقدمها مختصون . وبعض هذه الكتب موجود بالفعل ، والباب مفتوح – دائما – للمزيد ..

هناك كتاب " نظرية الإسلام السياسية " للأستاذ المودودي وكتاب " الإسلام وأوضاعنا السياسية " و" سياسة المال والحكم في الإسلام " للأستاذ عبد القادر عودة وهناك كتب للمودودي وسيد قطب تبين منهج الاقتصاد الإسلامي [164] . وكتب " التطور والثبات " و " دراسات في النفس الإنسانية " و " منهج التربية الإسلامية " و " منهج الفن الإسلامي " تعالج موضوعات اجتماعية ونفسية وتربوية وفنية من وجهة النظر الإسلامية .

ولكن هنا لا نبحث هذه التفصيلات إلا بالقدر الذي ينير السبيل .

* * *

عقدة الجاهلية في السياسة أنها لا تحكم بما أنزل الله !

وبصرف النظر – مؤقتاً – عن تفصيلات ما أنزل الله في هذا الشأن ، فإنه ينبغي أن نتبين – **أولا** – أن عدم الحكم بما أنزل الله – **ابتداء** – هو الذي ينشئ الانحراف لأن الحكم بما يضعه البشر معناه – **حتماً** – حكم طائفة معينة من الناس على بقية الناس ، ومن ثم حكم مصلحة طائفة معينة من الناس على مصالح بقية الناس !

والذي يقول ذلك ليس نحن .. من وجهة نظرنا الخاصة !

كلا ! إنها شهادة الجاهليين أنفسهم ، بعضهم على بعض " وشهد شاهد من أهلها " !

إن من القواعد المقررة – عندهم – في السياسة والاجتماع والاقتصاد – مجتمعة – أن " الطبقة " التي تملك ، هي في الوقت ذاته الطبقة التي تحكم ، وتحكم لصالحها هي ضد بقية " الطبقات " .

فالرأسمالية تملك .. وتحكم لصالح الرأسماليين ضد العمال أو " الكادحين " .

والبروليتاريا تملك .. وتحكم .. تحكم لصالح البروليتاريا ضد المالكين .

---

[164] للمودودي ثلاثة بحوث رئيسية في الموضوع : " أسس الاقتصاد الإسلامي " و " الربا " و " ملكية الأرض في الإسلام " ولسيد قطب كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام " .

وكل منهما تحصل على المزايا لنفسها ، وتسلب المزايا من الآخرين .

ولا يحدث قط في حكم البشر أن تحكم طائفة من الناس لكل الناس ! ولمصلحة كل الناس !

إنما يحدث ذلك فقط حين يحكم الناس بما أنزل الله . لأنه حينئذ لا يكون الحكم لأية طائفة من الناس ! وإنما يكون الحكم لله سبحانه . وليس لله طبقة ولا طائفة يشرع من أجلها . ولا مصلحة له – سبحانه – عند طبقة ولا طائفة ! إنما هو رب " الناس " جميعهم .. وحكمه هو لجميع الناس !

* * *

إن الله حين دعا الناس إلى عبادته وحده ، وإفراده بالألوهية والحاكمية ، كان يدعوهم إلى الكرامة والعزة والتحرر ، بصورة لم تعهد قط إلا في عبادة الله !

إن الله لا يتعبد الناس لحاجته إليهم .. سبحانه !

" مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ " [165]

وحقيقة إن واجب الخلق نحو خالقهم ورازقهم ، ومالك أمرهم في محياهم ومماتهم .. أن يعبدوه .

ولكن الله – سبحانه – من رحمته بعباده وفضله عليهم ، جعل في هذا الواجب خير العباد ، بل جعله هو الخير ذاته .. فيعبد الناس الله بحكم أنه هو خالقهم ، وربهم ، وإلههم ، ثم تكون عبادته لخيرهم وصالحهم ، لا لصالح الله المستغني عن العباد :

" وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " [166] .

---

[165] سورة الذاريات [57] .

[166] سورة العنكبوت [6] .

فحين طلب الله إلى الناس أن يفردوه بالألوهية وبالحاكمية ، ولا يحكموا بشريعة أحد منهم ، وإنما يحكمون بما أنزل الله وحده في كل شيء ؛ وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم :

" وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ " [167]

حين طلب الله إلى الناس ذلك ، كان يريد أن ينقذهم من عبودية بعضهم لبعض ، ومما يترتب على هذه العبودية من " الطاغوت " الذي رأينا نماذج بشعة منه في الجاهلية الحديثة ، وفي كل جاهلية في التاريخ .

كان يريد لهم أن يحسوا بالتحرر الحقيقي ، الذي لا يمكن أن يحسوا به في أي نظام آخر يصنعه البشر لأنفسهم ، وتستعبد فيه طائفة من الناس بقية الناس ، وتحكم لصالحها هي على حساب صوالح الناس !

كان يريد لهم الكرامة التي لا تتحقق لبني الإسان إلا حين يتساوون جميعاً في العبودية الحقيقية لله ، فلا يبرز من بينهم أحد بطاغوته ، يقول : أنا أشرع للناس . أنا أسيطر على الناس . أنا أخضع لإرادتي الناس . أنا أصنع – على رغبتي – حياة الناس !

كان يريد لهم العزة التي لا تتحقق للناس إلا حين يحس كل منهم أن صلته بمصدر التشريع الحقيقي لا تقل ذرة واحدة عن صلة بقية الناس . وأن هذه الصلة متاحة – حقيقة – لجميع الناس بمقدار ما يجتهدون هم بجهدهم الخاص في التقرب إليه : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " . لا بمقدار ما في يد أحدهم من ملك أو قوة أو سلطان !

وفي هذا النظام – الوحيد – الذي يحس فيه الناس بالعزة الحقيقية والكرامة الحقيقية والتحرر الحقيقي ، يكون للناس ولي أمر منهم – ينتخبونه انتخاباً حرّاً ، في بيعة حرة ، ويولونه أمرهم – ولكن ولي الأمر هذا لا يشرع لنفسه ، ولا يحق له أن يشرع ولا يملك رقاب الناس ولا يحق له أن يملك . ولا يخضع الناس لإرادته ولا يحق له أن يخضعهم .. إنما يحكم بما أنزل

---

[167] سورة المائدة [49] .

الله . وكل مهمته التي يبايع من أجلها ، ويملك السلطان من أجلها هي تنفيذ شريعة الله ، التي لم تضعها طبقة أو طائفة ، ولم تراع فيها مصلحة طبقة أو طائفة . إنما وضعت لجميع الناس .

وولي الأمر هذا واحد من الناس لا غير ..

لا يمثل طبقة معينة .. ولا تنتخبه – أو تساعد على انتخابه – طبقة معينة . إذ أنه ما مصلحة أي طبقة في أن تبايع إنساناً معيناً من الناس وتفضله على غيره – إلا صلاحيته الحقيقية لتولي الأمر – ما دام – حين يصل إلى السلطان – لا يملك أن يشرع لهذه الطبقة ولا أن يضع مصلحتها فوق مصالح الناس ؟

وكيف تستطيع طبقة معينة – مهما أوتيت من وسائل الإعلام ، والتأثير ، والإغراء ، بل التشويش كذلك ! – كيف تستطيع أن تغري الناس بترك واحد معين ، أو اختيار واحد معين لصالحها هي ، ما دامت لا تملك – في ظله – سلطة زائدة تستعبد بها الناس ؟!

نعم ، يحدث في ظل " الضعف " البشري أن يبايع الناس رجلا لا يكون صالحاً لولاية الأمر ، ويكونوا مخدوعين في صلاحه وتقواه ، فيتكشف لهم أنه ضعيف الإرادة أو قليل التجربة أو ضيق الأفق أو غير موفق في الرأي .. نعم . وعندئذ يتحملون هم تبعتهم الكاملة في الاختيار ، لأنهم هم – بإرادتهم الحرة – الذين اختاروه .. ثم هم يملكون الأمر .. فهو دائما في أيديهم . يقولون له : لقد اخترناك ولكنك لا تصلح للتبعة . فسنعزلك ونختار شخصاً آخر !

بذلك تتحقق – في عالم الواقع لا في عالم النظريات – الحرية الحقيقية والعزة الحقيقية والكرامة الحقيقية للناس .

.. ولقد يجد ولي الأمر ، ويجد الناس معه ، أن شريعة الله المنزلة لم تسعفهم بالنص في مسألة معينة تواجههم [168] . فعند ذلك يسلكون طرقاً بعينها ، تعينهم في استنباط الحكم الذي

---

[168] في كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " بنيت العناصر الثابتة والعناصر المتطورة في النفس البشرية وفي الحياة البشرية . وبينت كيف يلتقي الإسلام – دين الله – التقاء كاملاً بهذه وتلك . فيعطي في المسائل الثابتة تشريعات تفصيلية ثابتة لا تتغير ، لأنها تواجه أموراً لا تتغير في حياة البشر . ويعطي في المسائل المتطورة إطاراً عاما ثابتاً ، ويدع للأجيال المتعاقبة – كل حسب نضجه و " تطوره " وصورة مجتمعه

يريدونه – لا ندخل في تفصيلها هنا – من بحث في السنة ، ومن إجماع ومن قياس ومن اجتهاد بالرأي .. على أساس الشورى : " وأمرهم شورى بينهم " حتى يهتدوا بإذن الله وتوجيهه إلى حل القضية المعروضة عليهم .

إنما المهم – ونحن نضع المفاتيح – أن نقرر هذه الحقائق البارزة في النظام السياسي في ظل منهج الله :

أنه لا توجد طبقة تملك وتحكم لصالحها على حساب الناس .

أن ولي الأمر الذي يبايع مبايعة حرة لا يتبع طبقة معينة من الناس . وأنه **لا يملك** أن يشرع لطبقة معينة من الناس .

أنه يحكم فقط بما أنزل الله ولا سلطان له إلا السلطان الذي يستمده من تنفيذ شريعة الله .

أنه حين لا يجد النص في الشريعة المنزلة لا يشطح ، ولا يتبع هواه ، إنما يتبع قواعد مقررة تجعل حكمه في النهاية سائراً في حدود ما أنزل الله ..

تلك القواعد العامة في السياسة على منهج الله هي **الوحيدة** التي تضمن للناس الحرية الحقيقية والعزة والكرامة ، وتمنع عن الناس أن يتملكهم الطاغوت !

وتلك القواعد – على ضوء الواقع الذي تعانيه الجاهليات كلها ، الجاهلية الحديثة بصفة خاصة – هي التي تبين لنا : لماذا ينبغي أن ينفرد الله وحده بالحاكمية ، ويكون وحده صاحب التشريع !

إن الجاهلية الحمقاء في غرورها وفتنتها " بالإنسان " .. حين ألهت الإنسان وزعمت أنه قد استغنى عن وصاية الله .. حين استنكفت أن تعترف بحاكمية الله وحده ، واغتصبت لنفسها الحاكمية .. قد وصلت إلى ما وصلت إليه من طغيان غائل ، يتمثل – اليوم – في دكتاتورية

– أن يملأ الإطار الثابت بالتشريع المتطور . ومن ثم تكون الشريعة ثابتة ، والفقه دائم النمو لمواجهة حاجات الناس كما قال عمر بن عبد العزيز " يجد للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من القضايا " .

رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا ، وما يذوقه الناس من المذلة والمهانة في ظل هذه الدكتاتوريات .

وإفراد الله بالحاكمية هو – **وحده** – الذي ينقذ الناس من هذه الدكتاتورية الطاغية ، ويردهم أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم . ويجعل في أيديهم هم أمر أنفسهم ، في ظل شريعة الله . فإن ركبهم طاغية من البشر ، فتبعة ذلك عليهم هم .. وهم يملكون دائماً رده .. لأنه لا يركبهم " بحتمية " زائفة ، ولا يركبهم بمصلحة طبقة معينة منهم تأخذ دورها الحتمي في التاريخ . وإنما يركبهم لأنهم تهاونوا في رده إلى شريعة الله . وهم يملكون دائماً أن يعودوا فيردوه إلى شريعة الله .. ولو تحملوا في ذلك تضحيات وتعرضوا لأخطار ! فهي – في النهاية – أقل على وجه التحقيق من التضحيات التي يدفعونها ثمن المذلة لطاغوت من البشر يحكمهم " بالحتمية " ولا يملكون من حتميته الفرار !

وبقي أن نعرف – ونحن نستعرض الاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن – أن شريعة الله هذه التي يحكم بها الناس في ظل منهج الله ، هي العدل الكامل والخير الخالص للبشرية .. ولكنا نبرز أولا هذه الحقيقة – السياسية – الهامة ، أنه لا حرية للناس – ابتداء – إلا بمنع البشر من أن يشرعوا لأنفسهم ، وعزلهم من هذا السلطان الجائر – وهو **دائماً** جائر – الذي يعطونه لأنفسهم حين لا يحكمون بما أنزل الله .

إن شرع الله لم يكن ينتقص كرامة البشر ووعيهم وفاعليتهم ونضوجهم وتقدمهم ... الخ – حين حرم عليهم أن يشرعوا لأنفسهم .. إنما كان يضع الوسيلة – التي لا وسيلة غيرها – لتحرير الناس تحريراً حقيقيا من كل طغيان ...

* * *

وحين تتأكد لنا هذه الحقيقة وتستقر في أذهاننا – كما ينبغي لها أن تصنع – ننتقل إلى عرض نماذج من شريعة الله ومنهجه في الاقتصاد والاجتماع والأخلاق ... الخ .

لقد كان مصدر الطغيان في الجاهلية – فيما يتعلق بالاقتصاد – أمرين اثنين : طريقة التملك من ناحية ، وكون الطبقة التي تملك هي التي تحكم من ناحية أخرى .

ومنهج الله يعالج الأمرين معا ، بما يصلح أمور الناس .

فهو أولا يعزل عن السلطان كل طبقة تريد أن تتجبر ، بتقريره حاكمية الله وحده ، ومنع الناس من الحاكمية .

وهو ثانياً يعطي عدالة **موضوعية** في مسألة الملكية .

فإذا كانت الجاهلية الرأسمالية تطلق الملكية الفردية بغير حد .. مما يترتب عليه استعباد غير المالكين ..

وإذا كانت الجاهلية الجماعية تمنع الملكية الفردية البتة .. مما يترتب عليه كذلك استعباد غير المالكين (169) ..

فالإسلام لا يمنع الملكية الفردية البتة .. ولا يطلقها بلا حدود !

إنه لا يمنع الملكية الفردية البتة ، لأن ذلك يجعل أرزاق الناس كلهم في يد " الدولة " .. وبالتالي يستعبدهم للدولة بلقمة العيش !

والإسلام يقيم نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي على أساس أن يكون " الناس " هم الرقباء على ولي الأمر ، يتابعون مدى تنفيذه لشريعة الله ، ويوجهونه إذا أخطأ في تنفيذها ، ويسقطون سلطانه عليهم إذا خرج عن شريعة الله :

" وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ **وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** " (170)

---

(169) راجع الفصل السابق .

(170) سورة آل عمران [104] .

" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فمن لم يستطع فبلسانه . فمن لم يستطع فبقلبه . وهو أضعف الإيمان [171] "

" أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم [172] "

وهذا كله لا يتأتى إذا كان الناس كلهم مستعبدين للدولة بلقمة الخبز ..

والإسلام نظام **واقعي** .. فهو لا يفترض في الناس الملائكية . ولا يفترض فيهم كذلك أن يكونوا كلهم من أولي العزم ! إنما يتعامل مع النفس البشرية في واقعها : بـضعفها وقوتهـا . وهبوطها ورفعتها . لذلك يضع نظمه على أساس هذا الواقع البشري ، ويـساعد النـاس فـي ضعفهم إزاء السلطان المتجبر .. فيحرص حرصاً شديداً – **أساسيا** – علـى أن يكـون للنـاس موارد أرزاق يطولونها بأيديهم مباشرة بعيدة عن التحكم الكامل للدولة ، الذي يجعل الدولة منفذ الرزق الوحيد إلى الناس ..

ولكن من جانب آخر يقدر الإسلام **في واقعيته** ما ينشأ من إباحية الملكية الفرديـة علـى إطلاقها ، من ظلم وطغيان من بعض الناس على سائر الناس .

لذلك يضع قيوداً موضوعية تمنع تزايد المال وتَضاعُفه في أيدي فئة قليلة مـن النـاس . منها تحديد وسائل الملكية ابتداء بوسائل حلال طيبة نظيفة . ومنها طريقة الميراث التي تفتـت الثروة على رأس كل جيل . ومنها الزكاة التي تأخذ من رأس المال وربحه كل عـام . ومنهـا تحريم الربا والاحتكار .. كما وضع في يد ولي الأمر سلطة تصحيح الأوضاع كلما جنحت إلى الانحراف . دون مخالفة ولا هدم للأصل الذي تقوم عليه الحياة في الإسلام . وهـو أن يكـون للأفراد موارد رزق خاصة لا تتحكم فيها الدولة تحكم المانع المانح ..

ولقد كان الربا والاحتكار هما مصيبة الرأسمالية الطاغية ، إذ مكناها رويداً رويـداً مـن تجميع الثروات في أيديها وحرمان سائر الناس منها .

---

[171] متفق عليه .

[172] من كلام الخليفة الراشد الأول أبي بكر رضي الله عنه .

ولو كان الأمر في حاجة إلى شهادة على أن هذا المنهج منزل من عند الله ، لا من عند البشر ، لكفت هذه الشهادة ! فمصائب الرأسمالية كلها : من طغيان وفساد ، وإذلال للخلق ، واستعمار بشع واستغلال لشعوب الأرض . لم تكن واضحة للبشر يوم نزل الإسلام . ولم يكن واضحا لديهم أن هذه الرأسمالية ستقوم على الربا .. ثم على الاحتكار .

وتحريم الربا والاحتكار في هذا المنهج الرباني ، يكفي – وحده – لأن يثبت ربانية هذا المنهج ، ويشهد له – لو احتاج لأمر إلى الشهادة – على أنه منزل من عند الله .

وليس هنا مجال التفصيل في منهج الإسلام في الاقتصاد . فذلك – كما قلنا – موضعه الكتب المتخصصة في الموضوع .

إنما نعرض هنا عرضا ملخصاً للمفاتيح الرئيسية في منهج الإسلام :

" النظرية العامة للاقتصاد الإسلامي تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان – كنوع – في الأرض ، وأن المال مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ، وفق شروط الله الواردة في شريعته ، سواء في صورة مبادئ كلية أو تشريعات جزئية – والأولى هي الأكثر – وأن الفرد موظف في هذا المال ، تقوم وظيفته فيه على أساس الملكية الفردية لجانب من هذا المال مقابل جهد يبذله ، وبشرط حسن التصرف في هذه الملكية – بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بخير ، وفي حدود شروط الله التي بدونها لا يتحقق الخير . فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملكية قيد حق التصرف وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة ، صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله في الأرض . وهذا لا يخل بقاعدة الملكية الفردية التي يقوم عليها نظام الإسلام كله – لا النظام الاقتصادي وحده – ولكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التي تكفل حسن التصرف في هذه الملكية ، ويحفظ للجماعة حقها المقرر في مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها ، مع الإبقاء على ملكية الأفراد . فيما عدا بعض الموارد العامة التي تبقى ملكية عامة :

" وَآتُوهُمْ مِنْ **مَالِ اللَّهِ** الَّذِي آتَاكُمْ " (173)

" وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ **أَمْوَالَكُمُ** الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ **لَكُمْ** قِيَاماً " (174) .

ثم يجعل هناك قاعدة لتوزيع المال في الجماعة :

" كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " (175)

" فلا ينبغي أن تحتكره أيدي الأغنياء في أية صورة . يجب أن توزع ملكيته في الأيـــدي الكثيرة كي تتداوله ، وكي تتم دورة المال الطبيعية في أيدي أكبر عدد من الأمة .

" وهناك حق المعوزين والمحرومين ، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا ، وتوزعــه علـــى المحتاجين إليه :

" وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ " (176) .

" هو حق الزكاة . ووراءه التكاليف الطارئة التي يؤخذ بحسبها كلما وجدت مـــن أمـــوال الأغنياء " .

" ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه . فلا يجيء هذا الكسب ، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أي وجه لفرد أو أكثر في الجماعة . ومن ثم يحرم النـــصب والنهـــب والسرقة والغش والاحتكار . كما يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعاً .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَـــمْ تَفْعَلُـــوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... " (177)

---

(173) سورة النور [33] .

(174) سورة النساء [5] .

(175) سورة الحشر [7] .

(176) سورة الذاريات [19] .

(177) سورة البقرة [278 ، 279] .

" وهناك أمر بالمعاونة " النظيفة " : " وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " [178]

" تلك قواعد عامة . وهذا هو الإطار الذي ينمو فيه الاقتصاد الإسلامي بــلا عــائق . إلا العوائق التي تمنع الانحراف " [179] .

وتلك هي الطريقة التي يعالج بها المنهج الرباني أمور الاقتصاد في كل طور من أطواره فيمنع عن الناس الظلم ، ولا يجعل الناس عبيدا لقوة طاغية في الأرض ...

* * *

غير أنه ينبغي لنا أن نضيف إلى تلك القواعد العامة حقيقة أخرى كبيرة يتميز بها المنهج الرباني في أمور الاقتصاد .

إن التصور الإسلامي لا يجعل الإنسان عبداً " للحتميات " من أي نوع .. ســواء حتميــة المادة أو حتمية التاريخ .

إن " الناس " – في الإسلام – هم الذين ينشئون مجتمعهم واقتصادهم . إنه ليست هنــاك أطوار حتمية تأخذ قالباً معيناً في حياة الناس ، وتغلب طبقة على طبقة ، بما تمنحهــا الحتميــة الاقتصادية من التملك وما تمنحها من السلطان !

إن هذا يحدث فقط في ظل الجاهلية المنحرفة عن منهج الله !

أما في ظل المنهج الرباني ، فالناس يعبدون الله وحده .. ولا يعبدون هذه الحتميات !

ولقد حدث بالفعل أن حال المنهج الرباني – رغم انحراف الناس عنه انحرافــا جزئيّــاً – دون قيام الإقطاع بصورته الأوربية البشعة في أرجاء العالم الإسلامي . ولم يستطع هذا الإقطاع أن يفرض صورته " الحتمية ! " على حياة المسلمين !

---

[178] سورة البقرة [280] .

[179] من كتاب " التطور والثبات " .

إن الإنسان هو القوة الفاعلة في تصور الإسلام . والكون كله – بطاقاته جميعا – مسخر له :

" وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " [180]

ومن ثم ينشئ الإنسان اقتصاده حسبما يعتقد هو ويتصور . بإرادته التي منحه إياها الله . ولا يكون عبداً ذليلاً خاضعاً لأطوار الاقتصاد " الحتمية " تستعبده وهو صاغر ، وتفرض عليه حتميتها وهو خاضع ذليل .

وحين يمنح المنهج الرباني الإنسان هذه الإيجابية الفاعلة ، فهو يكرمه في عالم التصور ويصحح خطاه في عالم السلوك فيجعل مجتمعه الإنساني بريئاً من الظلم والانحراف والفساد .

* * *

والمنهج الرباني في أمور الاجتماع يقيم التوازن بادئ ذي بدء بين الفرد والمجتمع ، ثم ينظم علاقة الرجل والمرأة في المجتمع أدق تنظيم [181] .

ليس الفرد والمجتمع معسكرين متقاتلين في نظر الإسلام !

وما ينبغي لهما أن يكونا كذلك !

إن " الخلافة " التي منحها الله " للإنسان " تشمله فرداً وتشمله جماعة ، و" الإنسان " يشمل الفرد والمجتمع في ذات الوقت .

ومن ثم فلا عداوة ولا بغضاء .. ولا تشاحن على الغلبة بين هذا وذاك !

---

(180) سورة الجاثية [13] .

(181) لا نتحدث هنا عن العلاقات الجنسية ، وإنما عن العلاقات الاجتماعية ، وعلاقة الجنس واحدة من هذه العلاقات ولا شك ، ولكنها تتميز بطابعها الخاص ولذلك أفردنا لها الحديث .

والقضية التي تصور المجتمع عدوّاً للفرد يسعى إلى سحقه وتحطيمه ، أو تصور الفـــرد عدوا للمجتمع يسعى إلى منع الخير عنه .. لا تــصور الحقيقــة إلا فـــــي حـــالات الــشذوذ والانحراف !

أما في حالات الاستواء فالفرد من المجتمع والمجتمع من الفرد .. لا انقطاع بينهمـــا ولا انفصال !

في حالات الانحراف والشذوذ فقط يوجد الفرد الطاغي – أيا كان لون طغيانه – والفـــرد الفاسد ، والفرد المنحل ، والفرد الجشع .. الخ الذي يرى أن روابط المجتمع المتماسكة تحـــول بينه وبين تحقيق الانحراف المسيطر عليه ، فيسعى إلى تفكيك هذا المجتمع وتفتيتـــه ، أو إلـــى السيطرة عليه واستغلاله .. بحسب نوع الانحراف .

ويوجد المجتمع الطاغي – بصورة من صور الطغيان – والمجتمع الفاسد المنحرف عـــن سواء السبيل ، الذي لا يطيق من الفرد المستقيم استقامته ، أو لا يطيق منه دعوتـــه إيـــاه إلـــى الاستقامة ، فيسعى إلى سحقه وتحطيمه .

أما في حالة الاستواء – من الفرد والمجتمع كليهما – فهناك التجاوب **الطبيعي** الذي تلتقي عنده الأهداف والأفكار والمشاعر ، وتتآلف وتترابط ، ليتكون منها كيان متكامل سليم .

والإسلام – بطبيعة الحال – يسعى إلى الوصول إلى حالة الاستواء ، في الفرد والمجتمع في ذات الوقت ، ويسعى إلى تقويم حالة الشذوذ والانحراف ، من الفرد والمجتمع على السواء .

* * *

يسعى الإسلام إلى إيجاد حالة من التوازن بين الفرد والمجتع ، بإبراز كيان الفرد المستقل من ناحية ، وإبراز كيان المجتمع المترابط من ناحية . كلاهما على استواء .

الفرد يخاطبه الإسلام مباشرة ، ويعطيه حقوقا ويلقي عليه تبعات ، تبرز في النهاية كيانه الفردي المستقل .

والجماعة يخاطبها الإسلام كذلك ، ويعطيها حقوقا ويلقي عليها تبعات تبرز كيانها المجتمِع المترابط .

فالفرد في الإسلام يتصل بالله مباشرة بلا وسيط . يخاطبه ويناجيه ويعبده ويتقرب إليه ، فرداً مستقلا ذا كيان محدد متخصص . والإسلام يشعره على الدوام برعاية الله له – فرداً – رعاية كاملة . فهو الذي يخلقه – فردا – من لقاء أبويه ، بقدر من الله محدد له هو شخصيا ، لا لأحد سواه .. ثم هو الذي يرزقه – فردا كذلك – وإن كان يسبب لرزقه الأسباب الظاهرة التي تشترك فيها الجماعة – كما يشترك فيها الكون كله – ولكنه رزق محدد له هو ذاته ، مكتوب له شخصيا من عند الله ، لا يناله أحد سواه . ثم الله هو الذي يستجيب له حين يدعوه ، فيجيب حاجته في الحياة الدنيا – إن شاء – أو يكتبها له في الآخرة ، ولكنه في الحالين يستجيب لدعائه الفردي المستقل عن كل فرد سواه . ثم هو يلقى الله في النهاية فردا : " وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً " [182] ولا يسأل إلا عن نفسه وأعماله الذاتية : " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " [183] . " وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " [184] .. وبذلك كله يتحقق الأساس الشعوري للفردية الذاتية المستقلة ، عن طريق الاتصال المباشر بالله .

ثم يكلف الإسلام الفرد تكاليف فردية تبرز ذاتيته . فهو – شخصيا – كل فرد بمفرده – مكلف أن يقيم شعائر الله وشرائعه . وأن يدعو " المجتمع " – أي غيره من الأفراد – إلى إقامتها ، ثم هو مكلف أن يقاوم المنكر من المجتمع – أي من غيره من الأفراد – بكل ما يملك من طاقة ، وبقدر ما في نفسه من إيمان . ولا يقف دون هذا التكليف حائل ، فالفرد – كل فرد – ينبغي أن " يتبنى " القضايا العامة للجماعة بحيث تصبح هي قضيته الخاصة والقضايا العامة في الإسلام هي تنفيذ شريعة الله . أي إقامة حكم راشد ، وإقامة اقتصاد راشد ، وإقامة مجتمع راشد وإشاعة القيم الأخلاقية في المجتمع ، والإشراف على تنظيف المجتمع وتطهيره من كل فساد

---

(182) سورة مريم [95] .

(183) سورة المدثر [38] .

(184) سورة الأنعام [164] .

خلقي – بمعناه الواسع ، ومعناه الضيق [الفاحشة الجنسية] على السواء – والرقابة على أعمال الحاكم ، لضمان أنها لا تنحرف عن شريعة الله ، أي عن الحق والعدل الشامل للجميع .. وبذلك كله تبرز له شخصية إيجابية فاعلة في واقع الحياة لا في عالم النظريات . تبرز عن طريق " تربية " الفرد نفسيا وخلقيا واجتماعيا ليقوم بكل هذه المهام .

ثم إن الإسلام يعطي الفرد حق الملكية الفردية ، فيبرز له ذاتيته المستقلة من جانب آخر . وسواء تحقق له هذا الملك في عالم الواقع أم لم يتحقق ، فالحق قائم . والفرصة كذلك قائمة . والحق والفرصة كلاهما يحققان للفرد الذاتية المستقلة ، فهو من ناحية ملك شخصي ، يتعلق بشخص الفرد ، ويحس فيه الفرد بوجوده ، ومن ناحية أخرى يجعل رزقه – الممنوح له من الله – على مقربة من كيانه الفردي ، يطوله بيده ، فيشعر فيه بالوجود الذاتي . ومن ناحية ثالثة يجعل في يده وسيلة ارتزاق يستطيع بها أن يقاوم الطغيان حين يتعرض له من جانب الحاكم أو المجتمع المنحرف سواء .

وحين لا يتحقق الملك في عالم الواقع – رغم وجود الحق ووجود الفرصة النظرية – فالإسلام كذلك لا يدع شخصيته الفردية تنسحق وتضيع وإنما يرتب له كفالة الدولة – من بيت المال – تحميه من الضياع . وكفالة الدولة في مفهوم الإسلام تشمل إعداده لعمل نافع ، وتوظيفه في عمل نافع . أو الإنفاق عليه من مواردها إذا عجزت عن إعداد العمل له أو عجز هو عن العمل للضعف أو الشيخوخة [أو الطفولة] وهو في هذا كله يأخذ " حقا " له مفروضا من الله ولا يأخذ " إحسانا " من أحد من الناس . فالناس لا يرزقون أنفسهم إنما هو رزق الله . خصص منه نصيبا " مفروضا " يأخذه المستحقون له بحق الله .

وذلك كله أقصى ما يمكن أن يصل إليه نظام يطبق في الأرض لإبراز ذاتية فردية **سوية .**

ومن الجانب الآخر يبرز الإسلام " شخصية " الجماعة ..

فكما كلف الفرد تكاليف ، لإثبات ذاتيته الفردية ، فكذلك ألقى على عاتق الجماعة تبعات تثبت ذاتيتها الجماعية .. المترابطة .

فهي مكلفة – كمجموعة – بإقامة شريعة الله وتنفيذها والرقابة على تنفيذها ..

هل التي تولي ولي الأمر .. وهي التي تملك أن تسحب منه البيعة [لا الأفراد !] وهي التي تراقب سيره في الحكم ، وتحاسبه ، وترده إلى الصواب ، وتؤدي له المشورة .

" وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " (185) .

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (186) " .

" وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (187) " .

وينادي القرآن " الجماعة " المسلمة نداءات عديدة متكررة : " يا أيها الذين آمنوا .. " :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (188) " .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (189) " .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (190) " .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (191) " .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ (192) " .

---

(185) سورة آل عمران [104] .

(186) سورة الشورى [38] .

(187) سورة آل عمران [159] .

(188) سورة البقرة [178] .

(189) سورة البقرة [208] .

(190) سورة النساء [29] .

(191) سورة النساء [71] .

(192) سورة المائدة [90] .

وفي هذه النداءات المتكررة يضع لهم تشريعاتهم – ليقوموا بتنفيذها – وتوجيهاتهم – ليربيهم عليها كجماعة ، وينشئوا عليها أنفسهم وأولادهم و " أفراد " المجتمع جميعاً – ويكلفهم تكاليف ينهضون بها مجتمعين :

" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ... (193) " .

" وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... (194) " .

وكلها أمور تقتضي وجود " جماعة " متماسكة مترابطة .. ومهيمنة في ذات الوقت على سير الأمور .

والإسلام يقيم الجماعة من الأفراد .. فهذه الجماعة المؤمنة التي تنادَى هذه النداءات وتقع عليها هذه التكاليف تنشأ من الأفراد المؤمنين – الذين كل واحد منهم مؤمن على حدة ومتصل بالله – فرداً – على حدة – ولكن الإسلام يعطي هذه الجماعة – التي تكوّنت من الأفراد بهذه الطريقة – كياناً متميزاً متبلوراً " كجماعة " ويعطيها من الهيمنة ما يوازن الكيان المستقل للفرد الذي قد تغريه فرديته واستقلاله أن ينحرف عن سواء السبيل . فهي رقيبة عليه وهو موجهة لأعماله ، وفي يدها السلطة المخولة لها من الله – عن طريق ممثلها – ولي الأمر – أن تقوّم الفرد المنحرف وترده إلى الصواب . ولكن يمنع من طغيانها بهذه السلطة – في المجتمع الإسلامي – أنها تنفذ – في جميع الأحوال – شريعة الله لا هواها الخاص . وشريعة الله منزلة " للإنسان " .. الفرد والجماعة على السواء .

والجماعة كذلك هي المكلفة حماية أرض الإسلام وشريعته وأهله .. ككيان مجتمع مترابط متناسق .

---

(193) سورة آل عمران [103] .

(194) سورة المائدة [2] .

والجماعة هي – من الوجهة النظرية – صاحبة المال الأولى ، التي تمنح حق التـــصرف فيه للفرد .. ومن الوجهة العملية تملك استرداد حق التصرف من الفرد الذي لا يحسن القيام على المال :

" وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُــمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً " (195) .

ثم هي المكلفة – فيما بينها – بكفالة أفرادها الضعاف وحمايتهم ، قبل الدولة التـــي هـــي الموئل الأخير . في حدود الأسرة أولا ، ثم في حدود كل جماعة محلية على حدة ثم في حـــدود الأمة الإسلامية عامة .

وبذلك كله تبرز شخصية الجماعة **على استواء** ، ثم تتوازن شخصية الفـــرد وشخـــصية الجماعة على استواء !

وحقيقة إن الأمر في واقع الناس ليس بالسهولة التي تكتب بها هذه الألفاظ !

فالذي يحدث في حقيقة الواقع أن الفرد يطغى أحياناً ، والجماعة تطغى أحياناً أخرى .

ولكن هذه الحقيقة مردها إلى " الناس " وليس إلى النظام !

الناس ينحرفون ، بما في فطرتهم من استعداد للانحراف ، مقابل لاستعدادهم للاستواء .

والفرق كبير – من الوجهة النظرية والعملية معاً – بين هذا الوضع ، وبـــين أن يكـــون الانحراف قائماً في النظام ذاته ، حيث لا يملك الناس له ردا إلا بتغيير النظـــام مـــن أساســـه ، وإقامة نظام جديد .

في النظرية الرأسمالية يطغى الفرد **بطبيعة النظام** ، ولا يملك النـــاس رده إلا إذا غيـــروا النظام الرأسمالي من جذوره وأما في ظله فلا يستطيعون أن يردوا ما يقع عليهم من طغيـــان ، ولا أن يقوّموا الطغاة .

---

(195) سورة النساء [5] .

وفي النظرية الجماعية تطغى الجماعة **بطبيعة النظام** ، ولا يملك الفرد إلا أن ينسحق تحت ثقلة النظام الهائلة المروعة ، التي تكتسح في طريقها كل فرد خارج عليه . أو في الحقيقة خارج على الزعيم المقدس الذي يدير الدولة بالدكتاتورية الصريحة التي تسمى دكتاتورية البروليتاريا .

أما في الإسلام فلا يقع طغيان من الفرد أو الجماعة بطبيعة النظام ، **إنما يقع إذا انحرف الفرد أو الجماعة عن النظام** . وعندئذ تقع تبعة انحراف الناس على أنفسهم . وعليهم تقويم هذا الانحراف الواقع في أنفسهم والرجوع إلى الله ورسوله .. فتستقيم الأمور .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " [196] .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن الله والرسول هما السلطة التشريعية التي يرجع إليها في جميع الأمور ، والطاعة لهما طاعة **مباشرة** . أما طاعة أولي الأمر فهي متعلقة بطاعة الله ورسوله . لذلك كرر الفعل " أطيعوا " مع الله ومع الرسول ، وأدمج طاعة أولي الأمر في طاعة الله وطاعة الرسول بغير فعل مستقل . ثم جعل المرجع في حالة التنازع بين المؤمنين على شيء ، هو الله والرسول **وحدهما** باعتبار تشريعهما هو الأصل الوحيد للتشريع .

وفي ظل هذا التصور لا يكون الفرد والمجتمع معسكرين متقابلين متقاتلين ، وإنما يكونان قوتين متداخلتين – كما هما في حقيقة الواقع – متعاونتين – كما ينبغي أن يكون الأمر – متحدتين في الأهداف والمشاعر والأفكار ؛ فلا يحدث الصراع ولا يحدث الطغيان ...

* * *

أما أفراد المجتمع من رجال ونساء وأطفال ، فالإسلام شديد العناية بهم ، شديد الحرص على تنشئتهم النشأة الصالحة التي تمنع ما وقع لهم في الجاهلية من انحراف ، تَبِعَهُ الشقاء والعذاب والحيرة والاضطراب .

---

[196] سورة النساء [59] .

فأولا هناك تقسيم عام شامل ، للعمل والاختصاصات : الرجل مكلف بالإنتاج المادي وما ينتج عنه من اقتصاد وسياسة .. والمرأة مكلفة بالإنتاج البشري ، وما يترتب عليه من رعاية الأسرة وتربية النشء الجديد على أسس صالحة .. والأطفال ينالون الرعاية والتربية والتقويم في ظل الأسرة ، محضنهم الطبيعي الفطري .

وليس هذا التقسيم تعسفيا من ناحية . وليس صارما قاطعا من ناحية أخرى .

إنه يرعى فطرة الرجل وفطرة المرأة واستعدادهما الطبيعي الأصيل ..

فالمرأة باستعدادها الفطري – البيولوجي – للحمل والولادة والإرضاع ، فقد ركبت تركيبا نفسيّاً معيناً ، يجعل الجانب العاطفي فيها هو الأقوى والأغزر ، والأقرب للاستثارة ، وهو الأملك لكيانها كله .. وليس معنى ذلك أنها لا تصلح أية صلاحية للعمل في خارج نطاق البيت ، وخارج نطاق هذه الوظيفة الفطرية .. ولكنا رأينا من شهادة الطبيبة النمساوية في الفصل السابق كيف فعلت المرأة بنفسها حين سعت إلى " المساواة " مع الرجل في جميع وظائفه وأعماله ، وكيف أثر هذا على كيانها البيولوجي ، فضمرت أجهزت الأمومة ووظائفها ، ولم تعد المرأة امرأة – ولا رجلاً كما تمنت في داخلية نفسها ! – وإنما جنساً ثالثاً في طريقه إلى الظهور ! جنساً حائراً قاقاً مضطرباً غير مستقر !

إنها عقوبة الفطرة الحاسمة التي لا تخضع لحماقات الجاهلية وأهوائها ..لأن الفطرة من صنع الله ، الذي خلق كل شيء ثم هداه إلى فطرته ووجهته بلا تبديل !

وحماقة فارغة كل ما تقوله المرأة " الحديثة " ، أو يقوله لها الرجل الذي يستهويها للخروج من مملكتها الطبيعية الفطرية ، لتكون بين يديه أسهل منالا ، وأقرب إلى إجابة نزواته في حمّى المجتمع المختلط الهائج بالنزوات ! حماقة فارغة أمام شهادة الفطرة .. فالفطرة لا تعرف أن " عقارب الساعة " قد تقدمت إلى الأمام أو أنها لا يمكن أن ترجع إلى الوراء !! فليس للفطرة علاقة بعقارب الساعة ! وعقارب الساعة هذه حين اختل توازنها فاندفعت بلا ضابط ، جرّت معها المرأة ذاتها ، وكذلك الرجل والأطفال إلى التشرد والشقاء ! فحين خرجت المرأة

شاردة إلى الطريق ، صار الأمر في المجتمع كله كما وصفه ول ديورانت . [197] شقاء شامل ، وضياع مدمر .. لا بيت ولا أسرة ولا استقرار !

ولم يكن الإسلام ليتبع أهواء الجاهلية وحماقاتها ..

إنه لم يرد للمرأة أن تكون ذلك الجنس الثالث الضائع المحير الذي نشأ من انحراف الجاهلية عن فطرة الله ، فلم يسعده انحرافه ، ولا وصل به إلى تحقيق السعادة والاستقرار .

لذلك وكل إليها وظيفتها الفطرية .. وكفل لها – في هذه الوظيفة – كل رعاية ممكنة وصيانة .

كفل لها رزقها .. دون أن يحوجها إلى العمل .

وكفل لها احترامها الإنساني .

وكفل لها صيانة جهدها أن يتبدد ما بين العمل الخارجي والبيت .

وكفل لها صيانة أخلاقها فلا تتعرض للفتنة في المجتمع المختلط بلا ضابط ، ولا تصبح هي فتنة يستغلها أعداء البشرية لتدمير البشرية .

الرجل هو المكلف بالإنفاق . في الخطبة والزواج وفي داخل الأسرة . ومهما يكن للمرأة من مال – وحق الملك مكفول لها بشريعة الإسلام ، وحق التصرف المباشر في الملك مكفول لها كذلك في هذه الشريعة ، وهو الحق الذي لم تنله في الجاهلية الحديثة إلا أخيرا جدّاً – وما زال غير كامل ! – وفقدت في سبيل الحصول عليه أنوثتها وفطرتها وأخلاقها – مهما يكن لها من مال فلا تكلف أن تنفق منه شيئاً إلا برضاها الكامل حين تريد .

والاحترام الإنساني تكفله التشريعات والتوجيهات .

فحق الملك والتصرف المباشر فيه مكفول :

---

[197] راجع شهادة ول ديورانت في الفصل السابق .

" لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ " [198]

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَــا آتَيْتُمُوهُنَّ .. " [199]

والمساواة في الإنسانية مكفولة من عند الله :

" مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. " [200]

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِــنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْــضُكُمْ مِـــنْ بَعْضٍ " [201] .

والاحترام في داخل الأسرة مكفول :

" وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " [202]

حتى في حالة الكراهية !

" فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً " [203]

وبذلك يكفل لها – شعوريا وعمليا ، واقتصاديا واجتماعيا – أن تتفرغ لوظيفتها الأولــى بغير إرهاق ، وتحقق كيانها الفطري الذي أفسدته الجاهلية الحديثة بقضية " المساواة "

ومع ذلك فليس هذا التقسيم للعمل صارما قاطعا بالنسبة للمرأة .. **فالعمل ليس ممنوعا ولا محرما** .. ولكنه أمر لا يستريح إليه الإسلام ، إلا في حالة **الــضرورة** .. الــضرورة **الفرديــة والاجتماعية معا** . وفي حدود هذه الضرورة فحسب .

---

[198] سورة النساء [32] .

[199] سورة النساء [19] .

[200] سورة النحل [97] .

[201] سورة آل عمران [195] .

[202] سورة النساء [19] .

[203] سورة النساء [19] .

أما إقامة الحياة البشرية كلها – اجتماعيا واقتصاديا وفكريا وروحيا وخلقيا – على أساس أن تعمل المرأة .. فحماقة جاهلية مدمرة رأينا بالفعل آثارها ونذرها ، في هذا الجنس الثالث الذي ينذر بأن تتحول إليه المرأة العاملة ، حاوياً لكل أنواع الشذوذ العقلي والعاطفي والوجداني والأخلاقي والجنسي ، وفي نشأة جيل من الأطفال بغير أمهات متفرغات يتربى على أيدي الخدم ، أو في المحاضن الصناعية ، فيتعرض هو الآخر لكل هذه الأنواع من الشذوذ .. ويتكون منه غداً نساء المجتمع ورجاله . بما يحملون في أطوائهم من الشذوذ !

أي أننا ندمر كيان البشرية كله ، في سبيل قدر من الإنتاج المادي ، مهما عظم فهو تافه بالقياس إلى الخسارة الكبرى في " الجوهر " الإنساني الفذ .. وهو جوهر كريم لا يعوضه كل ما يزيد في الإنتاج المادي .. والآلات الإلكترونية في طريقها غداً إلى القيام بمعظم هذا الإنتاج !

* * *

كلا ! لا يتبع الإسلام أهواء الجاهلية وحماقاتها ..

إنما يضع الرجل والمرأة والأطفال كل في مكانه الصحيح ..

الرجل يتفرغ للإنتاج المادي وما يترتب عليه من سياسة واقتصاد .. والمرأة تتفرغ للإنتاج البشري وما يترتب عليه من حضانة وتربية وتنشئة .. والأطفال يلقون الرعاية في المحضن الطبيعي الذي لا يغني غيره غناءه ، وهو الأسرة الهادئة المستقرة التي يربط رباطها الوجداني امرأة مستقرة العواطف مستقرة الكيان .

ولا يمنع هذا أن تعمل المرأة في الإنتاج المادي عند الاقتضاء على ألا تكون هذه مشغلة دائمة للجنس ، ولا " قضية " تبدد فيها الطاقات وتفسد فيها الأخلاق ..

ثم يلتقي الرجل والمرأة كلاهما – لقاء مباشراً في حدود الأسرة ، ولقاء حكميّاً في محيط المجتمع – على أهداف اجتماعية **جادة نظيفة مستقيمة** .

إنها لا يلتقيان للهو والعبث والاستمتاع على مستوى الحيوان .. ولا للاشتغال بالفتنة مـــن هنا وهناك .. إنهما يلتقيان لإقامة مجتمع صالح رشيد .

والأم التي تربي أبناءها على أخلاق الإسلام ومثله .. تصنع ذلك .

والرجل من جانبه كذلك ..

بغير حاجة إلى الاختلاط المجنون – بلا هدف إلا إثارة نوزاع الفتنة – الاخــتلاط الــذي يبدد طاقة الرجل والمرأة والفتيان والفتيات في هذا السبيل ..

ولتسأل الجاهلية الحديثة نفسها كم تنفق من الوقت والجهــد فـــي المــراقص والنـــوادي والحفلات ، في سبيل ماذا في النهاية .. ؟ غير الاستمتاع الحيواني وفساد الأخلاق !

وماذا أصاب " المجتمع " كله .. إلا فساد كيان المرأة – البيولوجي ذاته – وفساد الرجــل وفساد الأطفال ؟!

*   *   *

والأخلاق هي القواعد التي يسير عليها " المجتمع " في تعاملاته ..

والإسلام لا يترك أمر هذه الأخلاق " لناس " .. حتى لا يصيبها ما يصيب الناس من تقلب وانحراف !

إن الأخلاق – في الإسلام – من صنع الله .. إنها لا تفترق شيئاً عن التشريع الذي يـــنظم الحياة !

وكما أن الإسلام يركز على حقيقة تفرد الله بالألوهية وتفرده بالحاكمية ، فكـــذلك يجعــل المصدر الوحيد للأخلاق هو الله ، وما يقرره الله .. لأنها قضية واحدة في النهاية .

وكما أن الجاهلية حين انحرفت عن إفراد الله بالألوهية والحاكميـــة ، وقعــت فـــي تلـــك الاضطرابات والاختلالات التي وصفناها في الفصل السابق ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع

فكذاك حين انحرفت عن أخذ قواعدها الخلقية من منهج الله ، وقعت فيما وقعت فيه من الاضطرابات والاختلالات .. لأنها قضية واحدة في النهاية .

إن " الطاغوت " الذي يحكم الناس في السياسة والاقتصاد والاجتماع حين ينحرفون عن منهج الله ، هو ذات الطاغوت الذي يوجه أخلاقهم ويضع لهم قواعدها .. **هو ذات الطاغوت !**

فما الأخلاق ؟

لقد فسرها التفسير المادي للتاريخ بأنها انعكاس الوضع الاقتصادي .. وقال إنها " متطورة " وحتمية التطور ، لأنها تتبع أطوار الاقتصاد الحتمية الحدوث ..

وهذا التفسير – ولو أنه باطل ضخم – إلا أنه صادق في ناحية واحدة :

إنها حقيقة واقعة أن الأخلاق – في الجاهلية المنحرفة – تتبع التطور الاقتصادي و " تتطور " معه ! ولكن لماذا ؟! لا لأن ذلك أمر حتمي وطبيعي كما يزعم التفسير الجاهلي للتاريخ . ولكن لأن الذي يحدث في واقع الأمر أن الطاغوت الذي يضع قواعد الاقتصاد – لصالح طبقة معينة على حساب سائر الناس ! – هو ذاته الذي يضع قواعد الأخلاق ، لصالح نفس الطبقة على حساب سائر الناس ! ومن ثم يبدو للنظرة المقلوبة التي ينظر بها التفسير الجاهلي للتاريخ أن الارتباط بين الاقتصاد والأخلاق ، هو ارتباط السبب والنتيجة . وحقيقة الأمر أن الارتباط القائم بينهما – في الجاهلية المنحرفة – هو توحد المصدر الذي تصدر عنه هذه وتلك .. وهو الطاغوت !

وفي منهج الله يقوم الارتباط كذلك بين السياسة والاقتصاد والاجتماع .. وبين الأخلاق ! ولكنه – مرة أخرى – ليس ارتباط السبب والنتيجة كما تراه النظرة المقلوبة ، نظرة التفسير الجاهلي للتاريخ ، وإنما هو ارتباط المصدر الواحد الذي تصدر عنه هذه وتلك .. وهو الله !

ولا تكون الأمور إلا كذاك !

إنه مصدر واحد هو الذي يشرع للناس حياتهم بأجمعها : في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين .. الخ . إما أن يكون هو الله .. وإما أن يكون هو الطاغوت !

وحين انفصلت الأخلاق في الجاهلية الأوربية الحديثة عن معينها الأصلي ، وهو منهج الله ، أصابها ما أصابها من انحراف .. بطيء جدا ، وتدريجي جدا – لأن هذا هو الشأن في أمور الأخلاق ، المرتبطة بأعماق النفس البشرية من الداخل ، التي لا تتحرك ولا تمور حتى يكون السطح قد وصل إلى درجة من الاضطراب الذي لا يطاق ! – ولكنه حاسم في النهاية .

انفصلت السياسة عن الأخلاق بادئ ذي بدء . ثم انفصل الاقتصاد . ثم انفصل الجنس . ثم صارت الأخلاق نفعية وأنانية ، ثم .. في النهاية أخذت تتداعى هذه الأخلاق النفعية الأنانية ذاتها على يد الجيل الناشئ في الغرب .. مؤذنة بالانهيار ..

ولن يحدث في أي وقت من الأوقات أن تنهار **جميع** الأخلاق ! لن يحدث ! فالنفس البشرية – بطبيعتها المزدوجة – لا يمكن أن تتمحض – بمجموعها كله – للشر . وإنما تبقى ألوان من الخير متناثرة هنا وهناك .. ولكن يحدث أن يزداد الشر حتى يصبح هو الغالب .. وعندئذ ينهار البناء .

والإسلام – في شأن الأخلاق – يضع الأمور في موضعها الطبيعي الحق .. الأخلاق – ككل شيء في منهج الحياة – مصدرها الوحيد هو الله ، ومنهج الله . ومن ثم تصبح في وقاية من تلاعب الطاغوت ، الذي يسمى " تطوراً " ليستر الطاغوت ! وليبسر الفساد على نفس البشرية !

ومن أجل أنها أخلاق " ربانية " لا أخلاق من صنع البشر ، فهي لا تتعرض للأهواء ، ولا تتحول عن قواعدها الراسخة ، ولا تتحول لخدمة طبقة أو طائفة من الناس .. ولا تتحل كذلك اتباعاً للأهواء والشهوات .. ولا تصبح " مودات " متغيرة كما تتغير الأزياء !

ومن أجل أنها أخلاق " ربانية " ، فهي أخلاق " إنسانية " ! إنسانية بمعنى أنها تتعامل مع كــل بني الإنسان . لا علـــى أساس المصلحة القومية أو المصلحة العنــصرية ، أو العــصبية الدينية .. أو أي لون من ألوان الانحراف الذي أصاب " الأخلاق " الغربية حين انحرفــت عــن منهج الله .

إنها تتعامل مع الإنسان على أنه إنسان .. بصرف النظر عن فوارق اللــون والعنــصر والطبقة .. والاعتقاد .. إنسان مشتق من " النفس " الواحدة التي خلقها الله بادئ ذي بدء ، وخلق منها زوجها وبث منهما الرجال والنساء :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَــثَّ مِنْهُمَــا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً " [204] .

" وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " [205] .

وتظل قواعد الأخلاق ثابتة ، على تطور الاقتصاد والسياسة ، لأنها تنبع من قضية ثابتــة في حياة البشرية ، وهي مساواة الناس في الإنسانية ، وتكافؤ حرماتهم ووجوب صــيانتها عــن العدوان [206] .

وقد عرف الواقع الإسلامي نماذج رائعة من هذه " الأخلاق " توضح الفرق بينهــا وبــين الأخلاق الغربية النفعية الأنانية القائمة على أساس المصلحة ؛ ومصلحة طبقة معينة أو شــعب معين على حساب بقية الناس .

" في وسط الحرب الخبيثة التي كان يشنها اليهود على الإسلام في مهده ، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ في الأرض ، والدس والكيد ونــشر الأراجيف ، وتشكيك الناس بعضهم في بعض ، وإيذاء المسلمين والمسلمات في أعراضــهم ..

---

[204] سورة النساء [1] .

[205] سورة الحجرات [13] .

[206] انظر كتاب " التطور والثبات " فصل " الإسلام وحياة البشرية "

بالإضافة إلى الحرب الرسمية التي تستخدم فيها أدوات القتال ، مع الغدر في هذه الحرب ونقض المواثيق والنتهاك الحرمات .. في وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدواناً وقع على واحد من اليهود ، إذ رُمِيَ بتهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها ، فيتنزل الوحي بتبرئته في هذه الآيات البينات : " إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ، وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ، هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ، وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ، وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ، وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً " [207] .. وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر ، لتحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودي البريء الذي كانت القرائن – الظاهرة – كلها تتهمه ، وكان الحق أنه بريء من الاتهام ! ووضع الإسلام بذلك في عالم الواقع هذا المبدأ الإنساني الخالد .. الذي لا يوجد قط بهذه الصورة في غير الإسلام ! " [208]

هذا في مجال " العصبية ! " الدينية ..

وقد مر بنا في مجال " السياسة " الداخلية موقف عمر من المعارضة وهو يخوض المعركة الحاسمة بين الإسلام وأعدائه المتربصين به من كل مكان .

فهذا مثال في مجال " السياسة الخارجية " ..

---

[207] سورة النساء [105 – 113] .

[208] عن كتاب " التطور والثبات " .

" وكذلك حدث أن سجل في هذه المعاهدة التي أبرمها [أبو عبيدة] مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة : " فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا " ... فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك [بتجهيز هرقل لمهاجمته] كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : " إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وإنكم قد اشترطنا علينا أن نمنعكم . وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم " [209]

وهكذا تدخل " السياسة " بشقيها في إطار الأخلاق ، ولا يوجد مبرر " ميكيافيلي " لنزعها من إطار الأخلاق !

أما الاقتصاد فقد زعمت الجاهلية الحديثة كذلك أن لا علاقة له بالأخلاق ! وإنما تحكمه قوانينه " الحتمية " التي لا يقال فيها " خير " و " شر " .. ولا يقال فيها " فضيلة " و " رذيلة " .. إنما مقياس كل شيء كامن في ذاته ، ما دام دخل الطور الحتمي الذي يسير فيه . فإذا انتهى الطور بصورة حتمية انقلب الميزان الأول وركب ميزان جديد ، وصار الصالح المناسب بالأمس ملعوناً منبوذاً في اليوم الجديد .. ولكن على غير أساس أخلاقي ! فالإقطاع في طوره مناسب ومقبول ! وهو مقياس ذاته ! فإذا انقضى طوره الحتمي وجاءت الرأسمالية فالإقطاع بشع ومرذول .. لا لأنه يجافي الحق والعدل الأزليين .. ولكن لأنه يعيش بعد موعده المقدر له ! والرأسمالية صواب ... مهما اقترفت من آثام .. ما دامت في طورها " الطبيعي " .. فإذا انتهت انقلب عليها الميزان .. وهكذا على ممر التاريخ ! لا مقياس لشيء خارج ذاته .. والأخلاق على وجه الخصوص هي آخر شيء تقاس به الأمور !!

وهذا – ولا شك – من شدة الرقي والتقدم والارتفاع !!

أما الإسلام – كلمة الله – فإنه لا يعترف ابتداء بأن شيئاً ما في حياة الناس .. اقتصاداً أو غير اقتصاد ، يمكن ألا يكون له علاقة بالأخلاق !

---

[209] عن كتاب " الدعوة إلى الإسلام " تأليف ت . و . أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله

من أجل ذلك حرم الربا **على أساس أخلاقي** في ذات اللحظة التي حرمه فيها على أساس اقتصادي ! لا فرق بين الاقتصاد والأخلاق في أصل التشريع ولا في واقع الحياة !

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **اتَّقُوا اللَّهَ** وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا **فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ **لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ **وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ** إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، **وَاتَّقُوا** يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ " [(210)] .

وهكذا يختلط التوجيه بالتشريع . والأخلاق بالسياسة والاقتصاد .. بغير انفصال .

فالربا يحرم على أنه ظلم .. ظلم اقتصادي واجتماعي .. وفي الوقت ذاته على أنه فاحشة أخلاقية . على نفس المستوى من التحريم . فليس تحريمه كفاحشة أخلاقية أقل او أكثر من تحريمه كفاحشة اقتصادية ، ولا متميزاً عنه . وفي الوقت ذاته يكافح الربا مكافحة أخلاقية بالتوجيه إلى تقوى الله والترغيب في مثوبته ، كما يكافح بالحرب من الله ورسوله أي بمحاربة الدولة المسلمة له بجميع أجهزتها السياسية والإدارية والقضائية .. الخ . على نفس المستوى من المكافحة . فليست مكافحته بالتوجيه الخلقي أقل أو أكثر من مكافحته بالتشريع والقانون والعقوبة ، وبإقامة الاقتصاد كله على أساس غير ربوي .. كلاهما شيء واحد من المبدأ إلى المنتهى .. بلا انفصال ولا افتراق !

وعلى هذا النحو المزدوج المتكامل من إقامة الاقتصاد على أسس أخلاقية ، وربط الأخلاق بالأسس الاقتصادية ، قام المجتمع الإسلامي الأول ببناء اقتصادياته في داخل إطار الأخلاق ، وعلى ركيزة أخلاقية واضحة في التعامل الفردي والجماعي سواء .

أقام المجتمع الإسلامي اقتصادياته على أساس تحريم الربا والاحتكار ، وتحريم الغصب والنهب والسلب والسرقة والغش ، وتحريم عدم توفية الأجير أجره ، وتحريم إساءة استعمال

---

(210) سورة البقرة [278 – 281] .

الحق .. وكلها أسس أخلاقية واضحة لا بد منها – في منهج الإسلام – لإقامة البناء الاقتصادي ..

وقد كان الانحراف عن هذه الأخلاق التي أقامها منهج الله هي التي أدت بالاقتصاد الغربي إلى وحشية الإقطاع وويلات الرأسمالية وبشاعة النظم الجماعية . وإن كان الجاهليون لم يفيقوا بعد من جاهليتهم ، ليعرفوا أن الذي ذاقوه كله والذي لا يزالون يذوقونه من الظلم والعسف والطغيان في هذه النظم الاقتصادية سببه الأول هو الانحراف عن المنهج الأخلاقي .. والفصل بين الاقتصاد والأخلاق .. والظن – الجاهلي – بأن الاقتصاد له قوانينه " الحتمية " الخاصة التي لا علاقة لها بالأخلاق .. !!

أما الإسلام – منهج الله – فقد عرف – في فترته المثالية الأولى – درجة من النظافة الخلقية في عالم الاقتصاد لا مثيل لها في التاريخ كله .. حين اشترك المهاجرون والأنصار في المال العام عن طيب خاطر ، تطوعاً بغير أمر من الدولة ولا تدخل . وحين تسابق المسلمون إلى أداء الزكاة – ضريبة التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي – تقرباً إلى الله واحتساباً دون ملاحقة من الدولة ولا مطاردة . وحين لم يقف الإنفاق عند الحد المرسوم في الزكاة ، بل تطوع الناس – أحياناً – بمالهم كله في سبيل الله . وحين قام أبو بكر – وهو خليفة ! – يبحث عن عمل يرتزق منه ! حتى قال له المسلمون : إن هذا الأمر لا يصلح بذاك . فقال : فمن أين أعيش ؟! فجعلوا له دارهم من بيت المال يعيش بها هو وأهله ، ثم اعتبرها كلها ديناً عليه فردها قبل وفاته ! وحين قام عمر يوزع عكة من السمن اشتراها له غلامه من معاشه الرسمي الضئيل الذي فرضه له المسلمون من بيت المال إذ لم يكن له مال يعيش منه .. يوزعها على فقراء المسلمين لأنه لا يحل له أن يأكل – من معاشه الرسمي الضئيل – وفقراء المسلمون لا يجدون ما يجد ! وحين قام علي بن أبي طالب يختم على جريب الدقيق الذي يخرج له من بيت المال يقول : حتى لا يدخل بطني إلا ما أعرف ! وحين قام عمر بن عبد العزيز يرد على المسلمين ما أقطعه إياه بنو مروان بغير حق ، ويرد كل ما اغتصبه بنو أمية من الناس ..

ثم عرف – بعد فترته المثالية الكبرى – على الرغم من انحراف أهله عنـــه انحرافـــات جزئية كثيرة – كيف يحول دون قيام الإقطاع – الحتمي !! – في العالم الإســـلامي بـــصورته الأوربية البشعة – اللا أخلاقية – لأنه – على الرغم من انحراف الناس عنه انحرافاً جزئيّاً – لم يتخل عن إقامة الاقتصاد على أساس الأخلاق .. بينما النظم الجاهلية – اللا أخلاقية – لم تعرف في اقتصادياتها طعم النظافة و " الإنسانية " مرة واحدة في تاريخها الطويل .. لا في الإقطـــاع ولا في الرأسمالية .. ولا في النظم الجماعية – حتى في فترتها " المثالية " على الأقل ! .. فـــي حماسة الناس للمبدأ الجديد – فقام الحزب الشيوعي في كل بلد اعتنق الماركسية يرتـــب لنفـــسه حقوقاً خاصـــة ليست لبقية الناس : فيأكل ويشرب ويلبس ويسكن غير ما يأكـــل النـــاس ومـــا يشربون . وحتى المرض والاستشفاء .. يتداوى أعضاء الحزب الشيوعي بالـــدواء المـــضمون المستورد من الخارج بالعملة الصعبة ، وجماهير الشعب تتداوى بالأدوية المصنوعة في داخـــل روسيا .. كيفما تكن النتائج وكيفما يكن الدواء !!

ذلك أن هذه النظم كلها لا تؤمن بأخلاقية الاقتصاد ! وإنما تؤمن بالمكيافيليـــة الجاهليـــة الهابطة التي تبرر الوسيلة بالغاية .. ثم لا تقيس الغاية ذاتها بمقاييس الأخلاق !

والإسلام – منهج الله – هو المخرج الوحيد من ذلك الفساد .. حين يقيم نظامه الاقتصادي على أساس أخلاقي " إنساني " يمنع الظلم ويحول دون تحكم الطاغوت ..

أما " الأخلاق " التي تعرفها الجاهلية الحديثة في محيط المجتمع .. وبقيـــة " الفـــضائل " القائمة في الحضارة الغربية من صدق وأمانة ، وإخلاص في العمل ، واستقامة في التعامل ، فلا أحسبنا في حاجة لأن نقول إنها في صميمها أخلاق إسلامية .. وقد تعلمت أوربا الكثير منها من احتكاكها بالعالم الإسلامي [وإن كان الذين يزعمون أنفسهم " مسلمين " قد نبذوها اليوم وانسلخوا منها !] ولكننا في حاجة لأن نقول : إنها في الإسلام لا تقف عند المستوى النفعي الأناني الذي تقوم عليه الأخلاق في أوربا .

إنما الإسلام – مع احتوائه على هذه الأخلاق في جميع صورها – فإنه يحتوي عليها في مستواها " الإنساني " الأعلى ، الذي لا يتوقف على المصلحة ولا العصبية ، لأنه يحتويها على مستواها " الرباني " الذي يضع القواعد لجميع الناس .. لجميع بني " الإنسان " .

وحين يأخذ الناس في حياتهم الواقعية بمنهج الله ، فستكون عندهم هذه الأخلاق ، التي يحتفظ الغرب بطرف منها ، ولكن على مستواها الأعلى . ثم يدخل في نطاق الأخلاق كل ما يعرض للناس من شئون حياتهم ، في السياسة والاقتصاد والاجتماع .. والجنس . بحيث لا يشرد شيء واحد عن محيط الأخلاق ، لأن الأخلاق هي قواعد السلوك العامة . وليست خاصة بشأن دون شأن في هذه الحياة !

* * *

والحديث عن الجنس بصفة خاصة حديث متشعب الأطراف !

وما نريد أن نتحدث عنه من الزاوية الضيقة التي يطلق عليها عادة اسم " الأخلاق " !

إن الأخلاق في نظر الإسلام أوسع جدا من النظرة الضيقة التي اعتاد الناس أن ينظروا بها وهم يتحدثون عن الأخلاق ، ويقصدون انحراف العلاقة بين الجنسين عما ينبغي أن تكون عليه .

الأخلاق في نظر الإسلام هي " الإنسان " كله ... كل ارتباطاته بربه وبنفسه وبالناس .. إنها لا تشمل شئون الجنس وحدها .. ولا المعاملات مع الناس وحدها .. ولكنها تشمل حتى المشاعر الداخلية التي لا يفصح عنها الإنسان للناس ، بل حتى التي لا يفصح عنها لنفسه .. ومع ذلك ينبغي أن تستقيم على أصول الأخلاق لأن الله " يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى " [211] " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ " [212] . وينبغي أن يتطهر الإنسان إلى الله في كل ما يعلمه الله منه ،

---

[211] سورة طه [7] .

[212] سورة غافر [19] .

من سره ونجواه ! ومن ثم فلا توجد في الإسلام أخلاق للفرد بمفرده وأخلاق أخرى يتعامل بها – نفاقاً – مع الناس !

ومع ذلك كله فلم يكن اعتباطاً أن الناس – منذ القدم – ربطوا ربطاً شديداً بين شئون الجنس وبين الأخلاق ، حتى كاد يغلب على حسهم أن الأخلاق هي أخلاقيات الجنس على وجه التخصيص .

لم يكن ذلك اعتباطاً من الناس – وإن كانوا على غير صواب في حصر مفهوم الأخلاق في هذا النطاق الضيق – لأنهم تعلموا بالتجربة الطويلة أنه لا بقاء للأخلاق – بمفهومها الواسع – إذا انحرف الناس في شئون الجنس . وأن الذي ينحرف في شئون الجنس لا يمكن – على المدى الطويل – أن تظل له أخلاق !

وقد جادلت الجاهلية الحديثة جدلاً عنيفاً جدا في هذا الموضع ، لتقول إن الأخلاق لا علاقة لها بالجنس على الإطلاق ! وإن للناس أن يصنعوا ما يشاءون في شئون الجنس ، ويظلوا مع ذلك محافظين على " الأخلاق " !

ومن قبل عرضنا لآرائهم ونحن نتحدث عن الجاهلية ، ورأينا كيف تسير سنة الله الحتمية حين ينحرف الناس في تيار الشهوات .

ونحن هنا نتحدث عن الإسلام .. نتحدث عن الوجه المقابل للجاهلية .. ونعرض – من هذه الزاوية – لشئون الجنس .

ولا نريد أن نعرض لها من الزاوية الضيقة التي يطلق عليها الناس عادة لفظة " الأخلاق " !

إنما نعرضها بالمفهوم الأخلاقي الشامل الذي يقصده الإسلام وهو يتحدث عن الأخلاق .. المفهوم الذي يرتبط بكيان " الإنسان " كله .. والذي يميز هذا الإنسان عن غيره من الخلق ، وخاصة عن الحيوان .

إن الإسلام لا يحرم الفاحشة الجنسية لأنها تخالف قواعده الخلقية بمعناها الضيق ، ولكن لأنها تهبط بكيان الإنسان عن المستوى اللائق " بالإنسان " .. ومن ثم تخالف " الأخلاق " بالمفهوم الواسع للأخلاق .

الإنسان .. خليفة الله .. الذي حمل " الأمانة " وحده حين أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .. الذي كلف عمارة الأرض وإقامة الخلافة الراشدة فيها : إقامة الحق والعدل .. إقامة السياسة الراشدة والاقتصاد الراشد والمجتمع الراشد .. وكلف الجهاد في ذلك كله ، لأنه لا بد لذلك كله من جهاد .

هذا الإنسان .. كيف يصبح حين يغرق في مباءة الجنس ؟!

وأنَّى له الخلافة الراشدة .. وأنَّى له الجهاد ؟!

ثم وأنَّى له أن يفرق بين نفسه وبين الحيوان .. وهو لا يملك أن يرتفع عن ذلك الحيوان ، بينما الله قد منحه القدرة على الارتفاع ؟!

هل تظل له " أخلاق " – بمفهومها الواسع – وهو يتخلى عن رسالته الأصيلة ويهدر قدرته على الارتفاع ؟!

هل تظل له أخلاق وهو ينطلق كالمسعور وراء شهوة الجسد التي لا تشبع – ولا يمكن أن تشبع – ويبدد طاقته " الإنسانية " الكبرى في جانب واحد من جوانب نشاطه الحيوي .. وعلى مستوى لا يليق بغير الحيوان .. ويتخلى على ضوابطه الإرادية التي ميزه الله بها على غيره من الخلق ، فيصبح وهو لا يملك حتى ضوابط الفطرة التي يملكها الحيوان ؟!

إن الإسلام حين يحرم الفاحشة .. إنما يريد إكرام الإنسان ! يريد أن يرفعه إلى ذلك المقام الكريم .. مقام الخلافة عن الله !

إنه لا يحرم الفاحشة شهوة في التحريم .. أو تضييقاً على العباد !

ليس على هذا النحو يعامل الله الإنسان !

" هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [213] .

" مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ **وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** " [214] .

" وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً " [215] .

" لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا " [216]

" مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً " [217]

كلا ! لا يحرم الله الفاحشة على العباد ليضيق عليهم .. ولكن ليطهرهم .. ليرفعهم إلى مستوى " الإنسان " ! و " الإنسان " قد كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق :

" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " [218] .

ثم هو خلق متفرد في طرقة تكوينه :

" إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ " [219]

ومن أجل هذه الطبيعة المزدوجة من الطين والروح ، فهو – في حالته السوية – لا يكون أبداً " شهوة " منطلقة بلا ضابط .. ولا يكون أبداً دفعة جسد غير ممتزجة بإشراقة الروح !

---

(213) سورة الحج [78] .

(214) سورة المائدة [6] .

(215) سورة النساء [27 – 28] .

(216) سورة البقرة [286] .

(217) سورة النساء [147] .

(218) سورة الإسراء [70] .

(219) سورة ص [71 – 72] .

في جميع أعماله .. ومن بينها الجنس ..

و " الأخلاق " التي وضعها له الإسلام .. في جميع أعماله ، ومن بينها الجنس .. هـــي " قانون " هــذه الطبيعة المزدوجة التي لا تكون أبداً – في حالتها السوية – شهوة منطلقـــة بـــلا ضابط ، ولا تكون أبداً دفعة جسد غير ممتزجة بإشراقة الروح !

إن الأخلاق في الإسلام ليست قانوناً قائماً بذاته ، منفصلاً عن الكيان الواقعي للإنـــسان ، مفروضاً عليه من خارج نفسه فرض القهر والتحكم والسلطان ! إنما هي قانون الطبيعة السوية لهذا الإنسان ذاته .. مستمدة من طبيعته هو الخاصة المتميزة ، لا من طبيعة أي كائن سواه !

فأخلاق الملائكة ، وأخلاق الحيوان .. إن صح أن نستخدم هذا التعبير – مجـــازاً – مـــع الملائكة والحيوان ، شيء آخر مختلف تماماً عن أخلاق الإنسان .. كل أخلاق نابعة من كيـــان المخلوق الذي يلتزمها .. وكذلك أخلاق الإنسان .. !

المَلَك مخلوق لا دوافع له .. ولا إرادة كذلك .. وأخلاقه – النابعة مـــن طبيعته – هـــي : " لا يَعْصُـــونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَـــــرُونَ " [220] " يُـــسَبِّحُـــونَ اللَّيْـــلَ وَالنَّهَـــارَ لا يَفْتُـــرُونَ " [221] .

والحيوان مخلوق عارم الدوافع ولا إرادة له . ولا ضوابط إلا الضوابط الفطريـــة غيـــر الواعية . وأخلاقه – النابعة من طبيعته – هي تلبية هذه الدوافع بلا تفكير ولا تدبر ولا وعي في حدود تلك الضوابط .

والإنسان هو المخلوق الجديد – فيما نعلم من خلق الله – الذي له دوافع وضوابط واعية ، ناشئة من طبيعته المزدوجة من قبضة الطين ونفخة الروح [222] . وأخلاقه المتمشية مع طبيعته

---

[220] سورة التحريم [6] .

[221] سورة الأنبياء [20] .

[222] انظر فصل " طبيعة مزدوجة " من كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " .

في حالته السوية ، هي أن يلبي الدوافع ولكن بقدر مقدور تمسكه الضوابط الفطريـة الإراديـة الواعية في طبيعته ، وأن يلبي دفعة الجسد ممتزجة بإشراقة الروح ..

ومن ثم لا تكون أعماله – قط – بلا ضوابط . ولا تكون أعماله – قط – بلا هدف مصاحب . ولا تكون – قط – دفعة جسد غليظة كالحيوان .

و " الأخلاق " بالنسبة للإنسان .. في كل أعماله ، ومن بينها الجنس .. هي تلبية الدوافع الفطرية مع وجود الضبط ، ووجود الهدف الواعي المدرك ، ووجود إشراقة الروح التي تمتزج بدفعة الطين ..

ومن ثم فأخلاقيات الجنس بالنسبة للإنسان – كأخلاقيات كل شيء آخر في حياته ، من سياسة واقتصاد واجتماع .. الخ – هي أن يلبي دافع الجنس لا على مستوى " الشهوة " وإنما على مستوى " العاطفة " . ولا يكون الجنس هدفاً في ذاته يشغل جهد الإنسان ، وإنما يكون وسيلة لهدف . ولا يكون بلا ضابط .. إنما تحكمه الضوابط التي لا تجعله مهلكة للفرد ولا مفسدة للمجموع ..

وتلك بذاتها – هي أخلاقيات كل شيء آخر في حياة الإنسان : أخلاقيات المأكل والملبس والمسكن ، والملك ، والقتال ، والبروز [223] .

وبهذه الأخلاقيات يصبح الإنسان إنساناً .. وبغيرها يصبح أسوأ وأضل من الحيوان :

" لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [224] .

وعلى هذا الأساس الشامل – الذي لا يخصص للجنس قواعد خاصة غير ما يخصصه لبقية نشاط الإنسان – يعالج الإسلام شئون الجنس ، ويربي عليها " الإنسان " .

---

[223] انظر فصل " الدوافع والضوابط " وفصل " القيم العليا " في كتاب " الدراسات " .

[224] سورة الأعراف [179] .

إنه – بادئ ذي دء – لا يحرم الجنس في ذاته .. لا يستقذره ولا يستنكره ولا ينفّر منه الحس البشري كما تفعل الهندوكية والمسيحية في صورتها التي صاغتها الكنيسة ، وغيرهما من المفاهيم المنحرفة التي تحاول التطهر والارتفاع بكبت الجسد واستقذار نشاطه . وإنما هو يبيحه .. كما يبيح كل الدوافع الفطرية وكل النشاط الحيوي ..

إنما فقط ينظفه ..

يضع له الضوابط التي تنظمه .. حتى في الدائرة المباحة ! فالإباحة والمنع هما الخط الظاهر العريض فقط .. الخط الذي يمنع التهلكة .. ولكنه ليس هو كل أخلاقيات الجنس ، التي تليق " بالإنسان " !

والجنس في هذا ليس بدعاً ..

فلنأخذ أخلاقيات الطعام .. وسنجدها صورة طبق الأصل من أخلاقيات الجنس .

الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. محرمات ..

ولكن الباقي ليس مباحاً على إطلاقه !

فالطعام ينبغي – بعد ذلك – ألا يكون مسروقاً ! مغتصباً ! ولا مسرفاً !

" كُلُوا مِنْ **طَيِّبَاتِ** مَا رَزَقْنَاكُمْ [225] " .

" وَكُلُوا وَاشْرَبُوا **وَلا تُسْرِفُوا** [226] " .

وينبغي كذلك أن تكون له آداب : " ما أوتي آدمي وعاء شرا من بطنه . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه [227] " . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يُتنفس في الإناء أو يُنفخ فيه .

---

(225) سورة الأعراف [160] .

(226) سورة الأعراف [31] .

(227) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم .

وهكذا يرتفع الطعام عن غلظ الحس .. ليصبح نشاطاً حيويا يناسب " الإنسان " .. يشترك فيه جسمه وروحه في آن .

والجنس كذلك .. وكل شيء في حياة الإنسان ..

في الجنس توجد محرمات ..

" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ...... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. " (228) .

ولكن المباح ليس مباحاً على إطلاقه !

فهناك التوجيهات التي تطهره وترفعه – وهو دفعة جسد **غالبة** – عن أن يكون دفعة جسد **خالصة !**

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ **حَتَّى يَطْهُرْنَ** فَإِذَا تَطَهَّرْنَ **فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " (229) .

ثم تصاحبه الأقوال والمداعبات التي تلطف من غلظ الحس . وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم معها ما يثبت هذا المعنى ويؤكده .

ثم يذكِّر الإنسان بأن له هدفاً ، وليس هو هدفاً في ذاته : " نساؤكم **حرث** لكم " . وفي ذلك إشارة إلى البذور والإنبات .. أي إلى النسل بطريق المجاز .

ثم يُجعل علاقة روحية ووجدانية إلى جانب كونه علاقة جسدية :

---

(228) سورة النساء [23 – 24] .

(229) سورة البقرة [222] .

" وَمِــنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِــنْ **أَنْفُسِكُمْ** أَزْوَاجاً **لِتَسْكُنُــوا إِلَيْهَــا وَجَعَــلَ بَيْــنَكُمْ مَــوَدَّةً وَرَحْمَــةً** " [230] .

وفي هذا المستوى من الترفع " الإنساني " تبدو الفاحشة ولا شك عملاً هابطا بكل مقاييس " الإنسان " ! عملاً لا تتوفر له صفة واحدة من صفات الإنسان ! لا إشراقة الــروح الممتزجــة بدفعة الجسد . ولا القدرة على الضبط . ولا التفكير الواعي الذي يحسب حــساب الأهــداف ، وينظم علاقات المجتمع في حدود الخلافة الراشدة التي ناطها الله بالإنسان .

ولذلك يحرمها الإسلام ! يحرمها لأنها لا تليق بخليفة الله ! لا لأنه يريد التــضييق علــى الإنسان !

ويحرم كذلك ما يسهلها ويزينها ويدفع إليها .. يحرم الاختلاط المجنون بــلا ضــرورة . ويحرم التبرج الذي يدفع إلى الفتنة . ويحرم إظهار الزينة لغير المحارم .

ويحرم النظرة الفاحشة واللفظة الفاحشة .. فضلاً عن العمل الفاحش بطبيعة الحال .

ثم يبيح الطريق الواحد النظيف .. طريق الزواج .

وفي غير هذا الكتاب [231] تحدثت عن الأسطورة التي تقول إن هذا " غير ممكــن " فــي الحياة " المتطورة " التي يحياها الناس في القرن العشرين !

حقّاً . إنه غير ممكن في عالم البهائم الذي يحياه الناس في الجاهلية الحديثة فــي القــرن العشرين .

ولكنه دائماً ممكن في عالم الإنسان .. حين يرتفع إلى مستوى " الإنسان " !

---

[230] سورة الروم [21] .

[231] " الإنسان بين المادية والإسلام " فصل " المشكلة الجنسية " و " معركة التقاليد " و " التطور والثبات فــي حياة البشرية " .

وكل ما يقال عن الضرورات الاقتصادية والضرورات الاجتماعية وَهْمٌ باطل حسمته الجاهلية في نفوس أهلها .. لتفتنهم بملذات الجسد وشهواته عن حقيقة الطغيان الذي يمسك برقابهم ويستعبدهم .

والدليل على أنها ليست " الضرورة " الاقتصادية والاجتماعية ، أن الدولة الجماعية في روسيا هي التي تكفل الأفراد وتطعمهم وتسقيهم وتسكنهم وتلبسهم .. وتزوجهم !

ومع ذلك فهي لا تبادر بتزويجهم – وهي تملك ذلك لأنها تملك **كل شيء** في حياة الناس – وإنما تتركهم زمناً يلهون ويعيثون فساداً في دنيا الجنس بلا ضابط .. وبغير ضرورة من ضرورات الاقتصاد !

كلا ! إنها الجاهلية الطاغية التي تترك للناس شهوة البهائم لتلهيهم عن العبودية للطغيان !

أما الإسلام فهو حين يضع الحواجز في سبيل انحرافات الجنس – كما يضع الحواجز في سبيل انحرافات كل دفعة فطرية – فهو ييسر الطريق النظيف للناس ، ليلبوا دوافع الفطرة على نظافة وارتفاع .

ييسر الزواج ويشجع عليه .. اقتصاديا واجتماعيا وفكريا وروحيا .. ويجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله !

وبذلك يضمن أشياء كثيرة في وقت واحد :

يضمن للناس راحة الأعصاب وراحة الضمير .

فهو لا يرهق أعصابهم بمقاومة الدفعة الفطرية الغلابة [وإن كان يسعى إلى تنظيف المجتمع من الفتنة التي تجعل الاصطبار على دفعة الجنس خارجة عن قدرة الإنسان] وإنما ييسر لهم سبيلها . وييسره في نظافة لا تتعب الضمير .

ويضمن لهم كذلك الاستقرار ..

وقد مر من شهادة ول ديورانت عن الجاهلية الحديثة كيف يفقد الناس الاستقرار النفسي والعصبي والروحي حين يطيرون مع شهوة الجنس مشتتي المشاعر والأفكار .

ويضمن استقرار الأسرة .

وقد مر في هذه الشهادة كذلك كيف تحطم رباط الأسرة حين انفلت ضابط الجنس وتشرد الرجل والمرأة كلاهما ، معرضين للأعاصير .

ويضمن للأطفال – في محضن الأسرة – أن ينشأوا في جو من الحب والمودة يمنع عن نفوسهم الغصة الانحراف والشذوذ .

وبذلك يلبي كل حاجات الإنسان .. في الوقت الذي يرفعه إلى حيث ينبغي أن يكون " الإنسان " !

* * *

والفن كذلك ينبغي أن يستقيم لمنهج الله .

وفي كتاب " منهج الفن الإسلامي " رددت ردا طويلاً مفصلاً على الذين يفغرون أفواههم واستنكاراً أن يكون للفن أي علاقة بمنهج الله !

ولا يمكن حكاية كتاب كامل في صفحات !

ولكنا أشرنا من قبل إلى أننا في هذا لا نبحث بحوثاً مفصلة في المنهج الإسلامي في الحياة ، وإنما نضع المفاتيح فقط ، والإشارة التي تنير الطريق .

وكما تحدثنا عن مفاتيح منهج الله في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين ، فكذلك نتحدث عن مفاتيح هذا المنهج فيما يتعلق بالفن .

ونبادر فنقول للذين يفغرون أفواههم عجباً واستنكاراً : إن الفن نشاط بشري يقوم به الإنسان في الحياة ، فإذا كان كل نشاط الإنسان من سياسة واقتصاد واجتماع وأخلاق يدخل في نطلق منهج الله ، وفي منهج الله ما ينظمه ويرفعه إلى المستوى اللائق بالإنسان ، فلا عجب إذن

أن يكون الفن كذلك – وهو نشاط بشري ككل نشاط آخر – متصلاً بمنهج الله ، وأن يكون في منهج الله ما ينظمه ويرفعه إلى المستوى اللائق بالإنسان ..

ثم نبادر – مرة أخرى – فنقول للذين يفغرون أفواههم عجباً واستنكاراً من هذا الأمر الطبيعي ، إن التزام الفن بمنهج الله لن يحوله إلى مواعظ دينية وخطب منبرية .. ولن يجعله يعطي صورة مزورة للإنسان ، كلها أبيض طاهر نظيف مترفع متعال !

كلا ! فهذه سذاجة في التفكير لا تخطر إلا على الذهن الجاهلي حين يتصور الفن في نطاق منهج الله .

إن المنهج الإسلامي للفن يطلق الفن إلى أقصى حدود الطلاقة التي يتيحها منهج الله " للإنسان " ، في شتى جوانب حياته .. ثم يزيد على ذلك .. الواقعية !

إنه يتتبع الوجود كله .. كله بلا استثناء !

الله .. والكون .. والحياة .. والإنسان .. هي مجال الفن الإسلامي .. على الاتساع !

كلها مأخوذة – بطبيعة الحال – من زاوية الرصد الإسلامية . لأن الفن – في أشكاله المختلفة – هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود ، في صورة جميلة موحية مؤثرة .

فعلاقة الإنسان بالله . وعلاقته بالكون . وعلاقته بالحياة . وعلاقته بنفسه وبالآخرين .. هي مجاله في التعبير الفني .. سواء في المنهج الإسلامي أو في أي منهج سواه ..

فكل ما يحدث حين يلتزم الفن بالمنهج الإسلامي أن هذه العلاقات كلها سترصد من زاوية الرصد الإسلامية .. ومن خلال المشاعر الإسلامية .

وتلك بديهية .. فالشخص المسلم سيعبر عن المشاعر والإيقاعات التي يحسها .. لا التي يحسها أحد غيره من الناس ..

والمشاعر والإيقاعات التي يحسها المسلم هي علاقة الحب والخشية لله . وعلاقة الحب والمشاركة الحية للكون . وعلاقة الحب للحياة مع الإدراك الواعي لأهدافها وأغراضها ، وكونها شاملة للحياة الدنيا والآخرة ، غير مقطوعة عند الحياة الدنيا ـ ذلك القطع الذي يجعلها تبدو شائهة محرفة مزعجة مظلمة غير ذات دلالة . وعلاقة المودة للناس .. وكذلك علاقة الصراع !

نعم . فالإسلام منهج واقعي .. وهو المنهج الذي يقول : " وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ " [232] ويقول : " يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ " [233] ويقول : " لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ " [234] ..

فهو لا يوهم بجنة مثالية على الأرض ! ولا يقول للإنسان إنك تجد النعيم في الدنيا تحت قدميك ! إنما يقول له إن الحياة كدح وكبد وتدافع وصراع ..

وكذلك هو منهج واقعي بالنسبة للإنسان ذاته . فهو لا يقول عنه إنه مَلَك رفيع مستو على الصراط ! ولا يقول إن الناس كلهم من ذوي العزم . إنما يقول : " وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً " [235] ويقول : " كل بني آدم خطاء " [236] !

ومن ثم فالفن الذي يلتزم بالمنهج الإسلامي لن يعطي صورة مزورة للحياة والإنسان . لن يعطي صورة وردية حالمة .. ولا صورة مثالية بيضاء .. إلا على أنها خيال إنسان !

إنما هو يعطي صورة حقيقية واقعية لصراع الناس في الأرض ، ومشكلات حياتهم وتعقدها ، واضطراب حياتهم بين الخير والشر ، والارتفاع والهبوط ..

وإذن .. فما الذي يميز الفن الإسلامي عن فنون الجاهلية ، إذا كان الأمر على هذا النحو ؟

---

(232) سورة البقرة [251] .

(233) سورة الانشقاق [6] .

(234) سورة البلد [4] .

(235) سورة النساء [28] .

(236) رواه الترمذي .

أمور كثيرة في الحقيقة [237] !

أولها أن الواقعية الإسلامية هي الواقعية الضيقة التي تمارسها الفنون الجاهلية الحديثة التي تستمد من التفسير الحيواني للإنسان . وإنما تستمد من التفسير " الإنساني " للإنسان . وهو تفسير يشمل الهبوط والرفعة . ويشمل الخير والشر . يشمل قبضة الطين ونفخة الروح .. معاً في ذات الوقت .

والثاني : هو نقطة التركيز !

فالصورة التي يرسمها الفن الإسلامي للحياة البشرية تشمل الأبيض والأسود ممتزجين كما هما في واقع الحياة .. نعم .. ولكن على أيهما يكون التركيز !

فأما الفنون الجاهلية الحديثة التي تركز على التفسير الحيواني ، وغيره من التفسيرات الجاهلية ، فهي تركز على الجانب الأسود كأنه هو الحياة !

ولسنا نقصد بالأسود ، الجانب " الأخلاقي " الضيق كما هو في عرف الناس !

إنما نأخذ الأمور كما بيناها من زاوية المنهج الإسلامي ..

فحين يرسم الإنسان خاضعاً – أبداً – للضرورة القاهرة لا يستعلي عنها ، ولا يستطيع أن يستعلي ، فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وحين يرسم خاضعاً – أبداً – للحتميات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية ، غير متحرر منها ، ولا إيجابية له تجاهها ، ولا عزيمة له في مقاومتها ، أو وقفها ، أو تصحيح اتجاهها ، فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وحين يرسم تائهاً في الحياة لا يدرك لها معنى ، ولا غاية ، ولا حقيقة ، يدور في دوامة التيه – أبداً – ولا يهتدي ، ولا يستقر ضميره ولا يبصر النور .. فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان .

---

[237] انظر كتاب " منهج الفن الإسلامي " .

وكذلك حين يرسم في لحظة الشهوة الجارفة الغليظة الممسكة بخناقه لا تفلته ولا يملك أن يفيق منها .. فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وهذا الجانب موجود .. نعم .. في واقع الحياة ! ولكنه – بالنسبة للإنسان .. بالنسبة لحقيقة كيانه وحقيقة طاقاته وحقيقة أهدافه – ليس هو الواقع الدائم ، وكذلك ليس هو الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان !

ومن ثم فنحن – في واقعيتنا في ظل المنهج الإسلامي – نرسم كذلك الواقع كما نراه .. ولكنا – بواقعيتنا كذلك المستمدة من إدراكنا لحقيقة الإنسان في ظل منهج الله – نوزع الأضواء بحيث لا تركز على هذا الجانب الأسود من الإنسان !

نرسم هذا الواقع الأسود على أنه **واقع انحراف** .. لا على أنه واقع الإنسان ! ونرسمه على أنه **لحظة ضعف** .. يفيق بعدها الإنسان ويعود إلى ارتفاعه .. أو فهي لحظة ضعف لا توحي بالإعجاب والتقدير . إنما يوحي بالأسف – على الأقل – على هذا الإنسان إن لم يكن بالاستنكار .. كقوله تعالى : " يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " [238] .

إن الضعف البشري ليس " بطولة " كما ترسمه الفنون الجاهلية الحديثة .

وهذا هو مفرق الطريق !

أما الانحرافات الأخرى فمنهج الفن الإسلامي كذلك بريء منها ..

فليس هناك في حس المسلم ذلك الصراع الكريه بين الله والإنسان .. ومن ثم فالفن الإسلامي لن يعكس مثل ذلك الصراع . فإن وجد – على أنه واقع في نفس إنسان منحرف – فسيرسمه الفن الإسلامي على أنه انحراف .

وليس هناك تأليه لغير الله ..

---

[238] سورة يس [30] .

فالطبيعة جميلة ومحبوبة ببدائع الصور ، والحس البشري يتلقى عنها الأعاجيب المعجبات .. ولكنه لا يؤله الطبيعة كما صنعت الرومانتيكية الهاربة من إله الكنيسة ، الباحثة عن إله وثني تحقق ذاتها في عبادته بعيداً عن " رجال الدين " !

والإنسان كذلك ليس إلهاً .. وما ينبغي له أن يكون .. وهو ذو طاقات ضخام . نعم ! ولكنها كلها من صنع الله ، وموهوبة له من الله . ورده عليها هو الشكر لله . فإن كفر ولم يشكر .. فهذا واقع منحرف قد يوجد .. ويرسمه الفن الإسلامي .. على أنه انحراف .

والحتميات كذلك ليست آلهة ! وما ينبغي لها أن تكون .. ولا أن تذل الإنسان كما تصورها الآداب والفنون التي التزمت بالمذاهب الاجتماعية والتفسير الجاهلي للتاريخ ..

وخلال ذلك يجد الفن الإسلامي مجالاً واسعاً جدا للتعبير ..

لا يفوته أمر واحد من أمور الحياة ..

بل هو أوسع مجال للفن على الإطلاق . الفن الذي يأخذ في حسابه : الله ، والكون ، والحياة ، والإنسان .. وما يقوم بينها جميعاً من ارتباط .

ولكنه – ككل شيء في منهج الله .. متوازن . نظيف . مترفع . مأخوذ على المستوى الأعلى .. المستوى الذي ينبغي لخليفة الله .. مع الواقعية التي لا تغفل في ذات الوقت انحراف الإنسان عن خلافته الراشدة في الحياة ! ولا تغفل كذلك ضعفه الفطري الذي لا يخرجه من دائرة الإنسان .

* * *

وهكذا يشمل منهج الله كل حياة الإنسان : في السياسة . والاقتصاد . والاجتماع . والأخلاق . وعلاقات الجنسين . والفن .. وفي كل شيء !

ليس شيء واحد مما يقوم به الإنسان من نشاط على الأرض خارجاً عن منهج الله .

ومنهج الله – في كل أمر – هو المنهج الوحيد الذي بريء من النقص والقصور والانحراف .

وما عداه كله جاهلية .. فكل تلك الانحرافات التي صحبناها في الفصلين السابقين ، ورأينا كم صنعت في حياة البشر من الشر والفساد والشقوة والعذاب ..

ولن تعتدل حياة الناس حتى يرجعوا إلى الله ، ويؤمنوا به وينفذوا منهجه في الحياة .

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "[239] .

وليس أمام الناس إلا أحد هذين الطريقين :

إما أن يؤمنوا ويتقوا ، فيفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ..

أو يكذبوا فيأخذهم الله بما كانوا يكسبون ..

ومع ذلك ..

مع وضوح هذه القضية – في حقيقة الواقع – كما بيناها في الفصول الثلاثة السابقة ، فإن الجاهلية الغارقة في الظلام ، الدائرة في الدوامة المجنونة .. لا تكاد تفيق من جاهليتها لحظة لتراجع الأمر جادة مدركة واعية .. لتقدر كم أصابها من الفساد والدمار .. وكم أصبحت تحتاج إلى علاج حاسم سريع فعال ..

بل إن الأمر أسوأ من ذلك !

إن الإسلام – منهج الله – ليس بعيداً عن واقع الناس فحسب ..

بل إن الناس .. في هذه الجاهلية .. يكرهون الإسلام !

---

[239] سورة الأعراف [96] .

لماذا يكرهون الإسْلام ؟!

هذا المنهج المتكامل الذي برئ من العوج والانحراف ..

المنهج الذي يعطي الجواب الصحيح عن كل مسألة ، ويحكم بالحق في كل مشكلة ..

المنهج الذي يجمع شتات النفس كلها ويوحد وجهتها وأهدافها ، فلا تعود تتوزع بين هذه الوجهة وتلك .. أو بين هذا الجانب من النشاط وذاك .

المنهج الذي لا منقذ غيره للناس مما هم فيه من شقوة وعذاب ، وحيرة واضطراب ..

أليس من العجب أن يكرهه الناس ويتجافوه .. وكلما دعوا إليه زادوا تباعداً عنه ؟

كلا .. ليس عجيباً هذا الأمر .. !

أو إنه – على كل ما فيه من عجب – أمر " طبيعي " إلى أقصى حد !

فالجاهليات كلها – على مدار التاريخ – تكره الإسلام ! وتكرهه أولاً وأخيراً لأنه هو الإسلام !!

وعلى قدر عتو الجاهلية وبعدها عن الله ، يكون كرهها للمنهج الذي نزّله الله ليحكم الحياة ..

وإذ كانت هذه الجاهلية أعتى جاهلية في تاريخ الأرض ، فمن " الطبيعي " إذن أن تكون أشد جاهليات التاريخ كرهاً للإسلام !

* * *

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها – في دخيلة نفسها – لا تعرف ما فيه من الحق والخير . أو لأنها – بينها وبين نفسها – تعتقد حقا أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام !

كلا ! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير ، وبأنه هو الذي يقوّم ما اعـــوج من شئون الحياة ! وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه ! وتود أن تبقـــى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم !

تكرهه لأنها هي الجاهلية .. وهو الإسلام !

" وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. " (240) .

ذلك مثل يلخص جميع الأمثال .. وهو هو موقف الجاهلية في كل التاريخ ..

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَـيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ .. ! "

" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ، قَالَ الْمَلَـأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ... ! "

" وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْـرُهُ ... قَـالَ الَّـذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ... ! "

" وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، إِنَّكُـمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ، وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .. " !!

" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. قَالَ الْمَلَـأُ الَّـذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِـنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا مَعَكَ مِـنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِـي مِلَّتِنَا .. " (241) .

---

(240) سورة فصلت [17] .

(241) سورة الأعراف [59 – 88] .

إنها قصة واحدة مكرورة في التاريخ .. قصة الجاهلية الواحدة المكرورة مع دين الله الواحد .. الإسلام !

" فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى .. " .

* * *

كلا ! لا عجب أن تقف الجاهلية الحديثة موقف الكراهية من الإسلام .. فذلك هو الموقف المكرر لكل جاهلية خلال التاريخ .. تكره الإسلام ولا تطيقه . وتكره من يدعوها إليه . وتحاول " إخراجه " أو القضاء عليه . ولا تصبر حتى على ترك الدعاة إليه يعيشون في سلام موادعين . عملاً " بحرية الرأي " ! و " حرية الاعتقاد " !

" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ، **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** .. " ! [242] .

كلا ! لا يصبرون ! حتى على المسالمين الموادعين الذين يقولون لهم : " فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين " !

ولا يجيء هذا الموقف اعتباطاً بطبيعة الحال .. وإنما يحمل معه الأسباب !

---

[242] سورة الأعراف [85 – 88] .

حين يبدأ الانحراف عن منهج الله وعقيدته ، يكون انحرافاً يسيراً في مبدأ الأمر ، وعلى خجل وتوارٍ من المؤمنين ! لأن المؤمنين يومئذ هم القوة الغالبة ، ودين الله هو المحكم في الأمور .

وقد يكون انحرافاً " حسن النية " ! منشؤه الضعف عن احتمال التكاليف ، والضعف عن الاستقامة على الصراط ..

أو يكون انحرافاً سيئ النية من المدخولين والمنافقين ، الذين ينتظرون الفرصة ليهدموا العقيدة التي لم يؤمنوا بها الإيمان الحق .. وإنما ينافقونها ما دام لها السلطان الغالب المرهوب ..

ولكنه في هذا وذاك انحراف – بعد – يسير وقريب الغور .. لا يجرؤ على السفور .

ثم تبعد الشقة ، ويزداد خط الانحراف ، ويرين على النفوس ما يزيدها بعداً عن العقيدة ، ويطمس الغبش على شفافية المنهج وشفافية النفس التي تتلقاه .. فلا تبصر النور ..

وعندئذ يبدأ الفساد في الأرض .. ويتأهب الطاغوت !

ثم تزداد الشقة اتساعاً ، وتزداد النفوس ضراوة على الفساد ..

ويحكم الطاغوت بالفعل في أمور الناس .. حيث لم يعد منهج الله يحكّم في هذه الأمور ..

وعندئذ لا تعود الجاهلية تستجيب لمن يدعوها إلى الهدى .. بل تقف منه موقف المكابرة والعناد .. بل تحاربه أعنف الحرب وتسعى إلى إخراجه أو القضاء عليه .. وكما ألح عليها بالدعوة أوغلت في الحرب ولجت في العناد ..

في هذا الطور لا يكون " حسن النية " هو الذي يبعد الناس عن العقيدة .. ولا يكون كذلك الجهل بحقيقة المنهج هو دافع العناد !

إنما يكون السبب الحقيقي هو خشية الجاهلية على كيانها ومصالحها ، وشهواتها وانحرافاتها ، من النور الجديد ! فهي تحس – في دخيلة نفسها – مقدار ما انحرفت عن الحق

وحكمت بالهوى واستسلمت للشهوات . وتحس مقدار ما تحرمها العقيدة الصحيحة حين تحكم في الأرض ، من مصالح ومنافع وشهوات ، اختلستها اختلاساً في غيبة النور !

ومن أجل ذلك تكره الجاهلية الإسلام ، وتقف منه موقف القتال والعناد .. يستوي في ذلك الذين استكبروا والذين هم مستضعفون . فلكل في الجاهلية مصالح ومنافع وشـهوات يحـرص عليها ، ويكره أن يحرمها منه منهج الله حين يحكم بالحق .. فتنتهي المصالح الفاسدة والمنـافع المنحرفة ويقف الحق في طريق الشهوات !

ومن أجل ذلك نستطيع أن نفهم موقف الجاهلية الحديثة من الإسلام ..

إنه موقف الكراهة والعناد والحرب .. يستوي في ذلك الشرق والغرب ، والـبلاد التـي تزعم لنفسها أنها " بلاد الإسلام " !

* * *

فأما أوربا – شرقها وغربها ، وامتدادها في أمريكا – فموقفها " مفهوم " !

إنها – بادئ ذي بدء – تكره الدين كله ، وتنفر من العقيدة في الله ، ومن سيطرة العقيـدة على واقع الحياة .. ولكنها فوق ذلك تكره الإسلام بصفة خاصة ، وترصد له من وسائل الحرب ما لا يخطر على البال !

فأما كراهيتها للدين كله فقد قصصنا طرفاً من أسبابها في فصول الكتاب ..

في أيام الإمبراطور قسطنطين فرضت الديانة المـسيحية فرضـاً علـى الإمبراطوريـة الرومانية .. بأمر الإمبراطور ..

ومزجت العقيدة المسيحية السماوية بعناصر وثنية من التي كانت قائمـة يومئـذ ، تأليفـاً لقلوب الوثنيين ، وتشجيعاً لهم على الدخول في الدين [243] ! فلما أصبح هذا المـزيج المخـتلط غير مفهوم للناس ، ادعت الكنيسة لنفسها التفرد بمعرفة " الأسرار " التي خفيت عليهم .. وعلقت

---

[243] راجع شهادة دريبر الأمريكي ص 28 من هذا الكتاب .

إيمانهم بالله ، بالتسليم بهذه الأسرار دون مناقشة ودون علم .. وجعلت وساطة الكنيسة ضرورية لإتمام الاتصال بينهم وبين الله !

ثم فرضت الكنيسة لنفسها – عن هذا الطريق – سلطاناً بشعاً علـــى القلـــوب والأفكـــار والمشاعر .

وفرضت عليهم الإتاوات من كل نوع ..

ثم دعتهم إلى رهبانية تصادم الفطرة ..

ثم تسامع الناس بعد فترة أن الأديرة ذاتها – مكان التطهر والعبادة والخلوص إلـــى الله – ترتكب فيها أبشع المحرمات .. يرتكبها " رجال الدين " المقدسون الأطهار !

ثم جاءت مهزلة صكوك الغفران لتجعل الأمر كله عبثاً لا يحترمه ضمير الإنسان ..

ثم كانت الطامة حين وقفت الكنيسة في وجه العلم ، وقامت تحرّق العلماء وتعذبهم باســـم كلمة السماء !

من تلك اللحظة بذرت بذور الشقاق في أوربا بين الدين والعلم ، والدين والحياة ..

وكرهت أوربا ديانة الكنيسة ، وأخذت تنسلخ منها على مر الأيام ..

فلما ولدت النهضة – على ضوء ما قبسته أوربا من الحـــضارة الإســـلامية والمعـــارف الإسلامية – قامت على مبعدة من الدين .. بل قامت على عداء مع الدين !

وقد كان لأوربا عذرها في صراعها مع " الكنيسة " .. ولكن ما عذرها في صراعها مع " الدين " ؟

على أي حال فالذي حدث بالفعل أنها كرهت الكنيسة ودينها .. ثم كانت في الوقت ذاته أشد كفراً بالإسلام الذي علمها الحضارة وعلمها المعرفة وعلمها كيف تخرج من الظلمات إلى النور [244] !

فإذا كان لها " عذرها " مع الكنيسة .. فجريمتها مع الإسلام كانت تلك الروح الصليبية الكريهة التي جعلتها – رغم معرفتها بكل ما يحويه الإسلام من خير ، ورغم قيام حضارتها الفعلية على هذا الخير – تحاربه وتطارده ، وتشوه صورته في الآفاق !

وقد كانت اليهودية – منذ دهور لا تحصى – تقف بالمرصاد لكل دعوة جديدة ، في الوقت الذي لم تحافظ هي على ميثاقها مع الله ، ولم تتبع هداه ..

فلما قامت " النهضة " الأوربية على عداء مع الكنيسة أدركت بفطنتها أنها فرصة سانحة لتحطيم المسيحية التي سامتها سوء العذاب .. فعملت على توسيع الهوة بقدر ما تستطيع .

فلما جاء دارون يصادم الكنيسة بنظرياته ، دخلت اليهودية العالمية المعركة على اتساعها .. دخلت بعلمائها الثلاثة الكبار : ماركس وفرويد ودر كايم تحطم ما بقي من مفاهيم الدين [245] . ثم قامت تعمق الهوة التي تبتلع المسيحية كعقيدة ، بإشاعة ألوان من الفساد الخلقي البشع الذي لا مثيل له – في اتساعه – في كل التاريخ ، يحطم تماسك الأمم والأفراد ويشيع في بنيانها الانحلال ، في الوقت الذي تركب اليهودية العالمية " سياسة " العالم في الشرق والغرب ، فتسيطر في وقت واحد على الرأسمالية العالمية وعلى المذهب الماركسي !!

ثم .. اتجهت العداوة الصليبية الصهيونية المشتركة بكل عنفها وضراوتها إلى الإسلام !

فقامت أوربا الصيبية – تغذيها أموال الصهيونية وتنفخ فيها وتؤازرها – تستعمر العالم الإسلامي وتخضعه لنفوذها .. وتحاول اقتلاع الإسلام من جذوره ، بالتبشير تارة ، وبتشويه صورة الإسلام في نفوس المسلمين تارة ، وإفساد الأخلاق تارة ، وأخيراً بتربية جيل من العبيد

---

[244] راجع شهادة بريفولت ص 28 من هذا الكتاب .

[245] انظر فصل " اليهود الثلاثة " في كتاب " التطور والثبات في حياة البشرية " .

النافرين من الإسلام تسلمه مقاليد الأمور في البلاد ليقوموا بدلاً منها بالقضاء على الإسلام [246] !

وليس هنا مجال التفصيل في مظاهر الحرب الصليبية الصهيونية على العالم الإسلامي ، والجهود التي تبذل فيها ، والكيد الخبيث الذي يستخدم فيها ، وقد يكفي في هذا المجال الإشارة إلى ما أقر به المستشرق المعاصر " ولفرد كانتول سميث " في كتابه " الإسلام في التاريخ المعاصر Islam in Modern History " فيما بين صفحة 104 و 113 من أن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الإسلام ، وأنه خلق إسرائيل في قلب العالم الإسلامي كجزء من هذا البرنامج المخطط المرسوم ..

وإنما الذي يعنينا هنا هو إثبات هذه العداوة التي تمارسها أوربا نحو الإسلام !

* * *

أما الحال فيما يسمى " العالم الإسلامي ! " فهو يختلف " بعض الشيء ! " عن الحال في أوربا .. ولكنه في النهاية يلتقي به كما تلتقي الجاهلية في كل مكان في الأرض وكل طور من أطوار التاريخ ، وإن اختلفت – قليلاً – السمات التي تميز هذه الجاهلية عن تلك ، وتميز ظروف هذه عن ظروف تلك .

الإسلام في هذا " العالم الإسلامي ! " غريب على الناس كغربته يوم بدأ في جاهلية الجزيرة العربية .. وهو – فوق ذلك – مكروه من كثيرين !

وخطوة خطوة في هذا الفصل ، سنسير مع فئات مختلفة من الناس .. لنبين لماذا يكرهون الإسلام !

* * *

---

[246] انظر كتاب " هل نحن مسلمون " فصل : " عوامل محلية " .

إن أي طاغية في داخل العالم " الإسلامي " – سواء أعلن حربه صريحة على الإسلام أو تظاهر بالحدب على الإسلام ورعايته وهو في دخيلة نفسه له عدو – إن أي طاغية لا يمكن أن يطيق الإسلام ، لسبب واحد بسيط : أن الإسلام يجعل ولاء الناس لله ، بينما هو يريد الولاء لشخصه من دون الله .

وتلك – في بساطة – قضية كل طاغية في التاريخ مع العقيدة ومع المؤمنين !

وذلك فضلاً عن أن أمثال أولئك الطغاة في العالم " الإسلامي ! " لا يقومون بأمر أنفسهم ، إنما يقيمهم الاستعمار الصليبي الصهيوني ليقوموا – بالوكالة عنه – بمهمة القضاء على الإسلام وتدمير المؤمنين !

* * *

أما " الناس " فهم فئات شتى في عداوتهم للإسلام !

فأما " المثقفون ! " فهم خلاصة الكيد الخبيث الذي وضعته الصليبية الصهيونية للقضاء على الإسلام .

فهؤلاء " المثقفون ! " هم الذين رباهم الاستعمار في مدارس " الحكومة " التي أقامها تحت سمعه وبصره لتنفذ سياسة معينة ، تؤدي إلى تخريج أجيال من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الإسلام ، ويعرفون بدلاً منها شبهات تحوم في نفوسهم حول هذا الدين .

أجيال لقنت أن الدين تأخر وانحطاط وتحجر ورجعية .. وأن الوسيلة الوحيدة للتحضر والارتقاء والتقدم هي الانسلاخ من ذلك الدين .. وإبعاده عن مجال الحياة العامة ، وإلغاء سيطرته على أي مفهوم من مفاهيم الحياة : السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .. أو حتى الأخلاقية ! واستمداد هذه المفاهيم كلها من أوربا .. أي من مفاهيم الصليبية والصهيونية في نهاية المطاف !

أجيال لقنت أن الدين معوّق عن الانطلاق . وأن السبيل إلى الانطلاق – الذي تعقبه " القوة " و " الحضارة " و " العلم " و " التمكن " – هو القضاء على هذا الدين !

وفي بلاهة غريرة راح أولئك " المثقفون ! " " ينهلون " من ينـــابيع الجاهليـــة الغربيـــة المسمومة ، لا يفرقون بين ما ينفع وما يضر .. بين العلم البحت – الذي هو ضرورة – وبـــين المفاهيم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية المنحرفة عن منهج الله ، والتي هي – في بلادها الأصلية – سوس ينخر في بنيانها ويؤدي بها – رويداً رويداً – إلى الدمار !

وفي بلاهة غريرة كذلك راح أولئك " المثقفون ! " يكرهون الإســـلام ويحاربونـــه بكـــل الأدوات التي وضعتها في أيديهم الصليبية والصهيونية لتحطيم الإسلام !

* * *

وأما " الكتاب " و " الفنانون " و " القصاصون " و " الإذاعيون " و " الـــسينمائيون " و " التليفزيونيون " .. الخ ، فهم ولا شك يكرهون الإسلام !

يكرهونه لأن " التجارة " التي يقومون بها ويربحون عن طريقها .. تجارة إفساد الأخلاق وإشاعة الفاحشة في المجتمع ، وإطلاق الأولاد والبنات بلا ضابط ، ينزو بعضهم على بعض .. هي تجارة محرمة يعرفون جيداً أنها محرمة . وأن الإسلام يوم يجيء لن يدع لهم ذلك المستنقع القذر الذي يعيشون في أوساخه القذرة ويتكاثرون . إنها تجارة محرمـــة كتجـــارة الأعـــراض والمخدرات سواء بسواء . وهم يعلمون ذلك جيداً في دخيلة أنفـــسهم . ويعلمـــون أن الجاهليـــة وحدها هي التي تتيح لهم الوجود والتكاثر ، والربح الوفير والعـــيش الـــوثير .. وأن الإســـلام بنظافته وتطهره وأخلاقه المترفعة التي يربي أبناءه عليها لن يتيح لهم الوجود والتكاثر والربح .. ولذلك يكرهون الإسلام !

* * *

وأما الأولاد والبنات الذين فُتح لهم الباب على مصراعيه ليَفْسُدوا ويُفْسِدوا . وانجرفوا في تيار الانحلال الخلقي ، وصارت حياتهم أغنية مائعة أو قصة داعرة أو رقصة فاجرة أو لحظة جنس مسعورة يمارسونها خفية أو علانية .. فهؤلاء ولا شك يكرهون الإسلام !

يكرهونه لأنهم يختلسون هذه الأعراض التي ينتهكونها .. أعراض بعضهم البعض .. ويختلسون هذه الشهوات التي يمارسونها . في غيبة من دين الله . وأن دين الله – بنظافته وترفعه وتطهره – لن يتيح لهم هذه القذارة الدنسة التي يعيشون فيها . وهم يريدونها ! يريدون هذه القذارة الدنسة ويحرصون عليها ، ويودون أن تدوم ! ولا يهمهم كيف فعلت في أمم قد خلت من قبلهم ، وأمم ماثلة أمامهم قد هدها الفساد .. لا يهمهم لأن القوى التدميرية العالمية التي تدبر فسادهم وتوجهه وتخطط له لحساب الصليبية العالمية والصهيونية قد أعمتهم بالشهوات بحيث لا يفيقون ، وبحيث يكرهون من يوقظهم من متاعهم الفاجر ويطلب إليهم الارتفاع ..

ولذلك يكرهون الإسلام !

والمرأة " المتحررة ! " بصفة خاصة تكره الإسلام !

وقضية " تحرير ! " المرأة المسلمة من أخطر القضايا التي جند لها الاستعمار الصليبي الصهيوني جهوده خلال قرن كامل من الزمان !

جاء في كتاب " الغارة على العالم الإسلامي La Conquete du Monde Musulman " [247] وهو عبارة عن عدد خاص من " مجلة العالم الإسلامي " التي تصدر في فرنسا لرصد أعمال التبشير في العالم الإسلامي صدر قبل خمسين عاماً ؛ في ص 48 من الترجمة العربية : " والنتيجة الأولى لمساعي هؤلاء (المبشرين) هي تنصير قليل من الشبان والفتيات **والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية** " .

وجاء قبل ذلك في ص 47 :

---

[247] ترجمة السيدين مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب . القاهرة سنة 1350 هـ .

" وينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ **من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء** " !

وفي صفحتي 88 ، 89 جاء تقرير عن أعمال وقرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة " وهي مؤتمرات تبشيرية " فجاء عن مؤتمر لكنو التبشيري الذي عقد سنة 1911 أنه وضع في برنامجه عدة أمور :

" أولها : درس الحالة الحاضرة " .

" ثانيها : استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين **والتعليم النسائي** " !

أما لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة [الذي عقد سنة 1906] فقد وضعت هي الأخرى برنامجاً يحتوي على عدة مواد منها :

" المادة السابعة : **الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات** " !

وهكذا بدأ " تحرير المرأة المسلمة " في مؤتمرات المبشرين !

أي والله ! المبشرون الصليبيون هم الذين يدعون ويعملون لتحرير المرأة المسلمة !

وتسأل : لماذا ؟!

فإليك الجواب !

يقول مروبرجر : Morroe Berger وهو يهودي أمريكي معاصر في كتابه " العالم العربي اليوم : The Arab World Yoday " – وهو من أدق الكتب التي صدرت عن العالم العربي في الفترة الأخيرة وأخطرها [248] :

" إن المرأة المسلمة المتعلمة هي أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين ، وأقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيداً عن الدين " !!

---

[248] صدر في نهاية سنة 1962 .

وإذن فقد كان أمراً طبيعيا أن يصدر " استنهاض الهمم لتوسيع نطاق التعليم النسائي " عن المبشرين ومؤتمرات المبشرين ! ما دام الهدف النهائي الذي يباركه الكاتب اليهودي هو " جـر المجتمع كله بعيداً عن الدين " !

إن أي قدر من التحطيم الموجه إلأى هذه العقيدة لم يكن ليثمر ثمرتـه إذا بقيـت المـرأة بالذات .. مسلمة ! جاهلة أو غير جاهلة !

فالأم هي التي تنشئ النشأة الأولى للطفل . والأم " المسلمة " ولو كانت جاهلة تبذر فـي أبنائها بذور العقيدة تلقائيا في السنوات الأولى من حياة الأطفال . وهؤلاء ، مهما فسدوا بعوامل الفساد الخارجية ، ومهما عمل المجتمع ، أو المخططون للفساد على إفسادهم ، فـستظل هـذه البذرة التلقائية الأولى تردهم عن الفساد الكامل ، وتعيدهم – بعد فترة – إلى الصواب !

وإذن فلا فائدة من جهد الاستعمار الصليبي والصهيوني كله في هدم هذه العقيدة – **بكـل الوسائل** – ما دامت الأم لم تفسد بعد ..

لا بد من إفساد الأم ..

لا بد من إخراج العقيدة من قلبها إذا أريد قتل العقيدة على الاتساع .

لا بد من إخراج جيل من النساء لا يعرف الإسلام .. والسبيل هو " التعليم " . التعليم على طريقة الاستعمار التي جربها مع الرجل من قبل وآتت ثمارها ، ولكن على نطاق محدود ، لأن " الأم " – على جهلها – كانت تضع في نفوس أبنائها حاجزاً أمام الفساد ..

وعمل الاستعمار الصليبي والصهيوني – بمؤازرة حركات " التحرر " التركية والمصرية والعربية والهندية " قبل إنشاء الباكستان " والأندنوسية والأفريقية .. الخ – علـى " اسـتنهاض الهمم لتوسيع نطاق التعليم النسائي " على البرامج الموضوعة بإشراف الاستعمار [سـواء فـي المدارس الحكومية أو مدارس التبشير الأجنبية] لتخريج مسلمات لا تبعد مشاعرهن عن الإسلام فحسب ، بل ينفرن من الدين نفوراً ويكرهنه كرهاً !

وغني عن البيان أن الإسلام الذي جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة لم يكن ليقف في سبيل تعليم المرأة ، لو أنه هو المحكم في الأرض . ولكنه بطبيعة الحال لم يكن ليسمح بتعليم المرأة – ولا الرجل – تعليماً ينفّرهما من الله ، ومن منهج الله !

والذي قام به الاستعمار الصليبي الصهيوني لم يكن تعليم المرأة المسلمة لتكون مسلمة . ولكن تعليمها لتصبح كما يقولون " متحررة ! " .. متحررة من الإسلام !

ثم كان لا بد بعد هذه الخطوة المباركة ! . خطوة تعليم المرأة على غير أسس إسلامية ، من إحداث أوضاع اجتماعية وفكرية وأخلاقية في العالم " الإسلامي ! " تسمح بخروج المرأة – التي تعلمت على أسس غير إسلامية – لتكمل دورها في " الإفساد " ..

لا بد أن تفسد هي أولاً لتستطيع الإفساد .. وقد كان !

وأُعِدَّ جيل من الشباب – الأولاد والبنات – ليفسد في المدارس والجامعات ، على الحداء المسموم : حداء " الكتّاب " و " القصاصين " و " الفنانين " و " الصحفيين " و " السينمائيين " و " الإذاعيين " والحياة المختلطة في الرحلات والمعسكرات ، وفي المصانع والمتاجر والدواوين والطرقات .. مع تركيز خاص على إفساد المرأة بالذات ..

وهذا الجيل – الذي يعيش الآن – في العالم " الإسلامي " ! هو البغية الأخيرة للاستعمار الصليبي والصهيوني ، لأنه هو الذي سيقوم بالقضاء الأخير على ما بقي من بذور العقيدة الإسلامية . وبصفة خاصة المرأة التي قال عنها الكاتب اليهودي : إنها أقدار أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيداً عن الدين !

نعم . كذلك .. !

فالمرأة " المتعلمة " " المتحررة " لن تقوم بعد ببذر بذور العقيدة في نفوس أبنائها ، ما دامت هي لا تؤمن بهذه العقيدة وليس لها في حياتها حساب ! بل ما دامت نافرة من هذه العقيدة ، كارهة لهذا الدين !

وعندئذ يستريح العالم الصليبي والصهيوني من الجهد الناصب الذي جهده خلال قرنين .. فأخيراً .. أخيراً جدا .. لن يحتاج إلى رصد الجهود لمحاربة المسلمين والدعاة والمؤمنين .. لأن المرأة التي قام بتعليمها و " تحريرها " لن تلد له من الأصل أبناءً مؤمنين !

ومع ذلك فلا بد من الحيطة الكاملة لئلا تفلت المرأة من التخطيط المرسوم ! لا بد من إنشاء العداوة للإسلام في نفسها **من كل سبيل** !

ومن ثم فلا بأس من أن تكون للمرأة " المتحررة ! " مع الإسلام " قضية " !

قضية صراع لنيل " الحقوق " !

قضية لا تحل إلا بالقضاء الصريح على الشرع الإسلامي .. أو بما هو أهون منه في ظاهر الأمر وهو أخطر في الحقيقة وأفعل في القضاء على الإسلام .. وذلك هو " تطوير " مفاهيم الدين !!!

* * *

ووراء ذلك كله جماهير من الناس لا تكره الإسلام عقيدةً ، ومع ذلك لا تحب تطبيقه في واقع الحياة !

هذه الجماهير التي تريد الإسلام عقيدة مستسرة في القلب .. أو – على أكثر تقدير – عقيدة يصلي لها الإنسان ويصوم ! أما ما وراء ذلك فتعب قلب ليس له لزوم !!

إنهم يريدون البحبحة بغير قيود !

يريدون أن يتسلوا بالسينما – ولو كانت فاجرة – وبرقصات التليفزيون ، وبالأغاني الفاضحة .. على أنها مجرد تسلية !

ويرديون أن يكذبوا ويغتابوا ويتجسسوا .. " بحرية " لا يقول لهم قائل : هذا حرام وهذا حلال !

ويريد رجال منهم أن يستمتعوا بالفتنة التي تعرضها المرأة في الطرقات !

ويريد نساء منهم أن يستمتعن بالقدرة على إغراء أولئك الرجال ! وأن يتبرجن في الملبس والزينة بلا قيود !

ويريد أولئك وهؤلاء ألا يحسوا بأنهم مخطئون في ذلك كله ما داموا " حسني النية " !

ومن ثم فليكن الإسلام عقيدة مستسرة في القلب ، أو – على الأكثر – عقيدة يصلي لها الإنسان ويصوم ! أما أن يصبح حياة حقيقية تحكم سلوك الناس الواقعي ، وتلزمهم بتكاليف الإسلام في الصغيرة والكبيرة ، في الملبس الشرعي والمأكل الشرعي و " الحكم بالشرع ! " .. فهذا – والله ! – ليس له لزوم !

أولئك – وإن كانوا لا يكرهون الإسلام كرها حاقداً كالمثقفين ! – إلا أنهم في الحقيقة العميقة يكرهون حقيقة الإسلام !

* * *

تلك مواقف الفئات المختلفة من الإسلام .

وفي النهاية تلتقي المصالح والمنافع والأهواء والشهوات على كراهية الإسلام !

ويستوي في هذه الكراهية الذين استكبروا والذين هم مستضعفون ! فلكل مصالح ومنافع وشهوات يحرص عليها ، ولا يجب أن يحرمه منها هذا الدين ! وتلتقي الجاهلية في داخل العالم " الإسلامي ! " بالجاهلية الشائعة في كل الأرض !

فماذا يتبقى إذن من " المسلمين " ؟!

يتبقى أفراد متناثرون على امتداد العالم الإسلامي يعرفون حقيقة هذا الدين ويحبونه ويقدرونه حق قدره .. يعرفون أنه الدين الحق والمنهج الحق . والعلاج الحق لكل عذابات البشرية ..

ويعرفون أن طريقه مملوء بالشوك .. بالعرق والدماء والدموع .. ويخوضون الأشواك في سبيل الله .. لا يترقبون جزاء في الأرض ولا يطلبون من غير الله الجزاء ..

ولكن هؤلاء الأفراد المتناثرين قد لا يستطيعون شيئاً في هذا الجيل ! فالحرب الجبارة المرصودة لهم تستهدف القضاء عليهم حتى كأفراد ! فضلاً عن إقامة مجتمع يحكمه الإسلام !

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين في دين الله !

إن " المسلمين " ! المزعومين الذين يعيشون اليوم ، ويزعمون أنهم مسلمون وهم – كما رأينا – يكرهون الإسلام ويعملون على إقصائه عن الحياة .. هؤلاء ليسوا – ولا غيرهم من البشر – الموكلين بدين الله !

" وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً " (249) .

نعم ..

هنالك جيل قادم في كل الأرض .. سيعود إلى الله !

---

(249) سورة النساء [131 – 133] .

عودة الإنسان إلى الله

ظنت الجاهلية الحديثة بكل طواغيتها أنها ستقضي – أو قضت بالفعل – على دين الله ..

ويحق لها أن تظن ذلك ! فالذي يقرأ خريطة الأرض لأول وهلة ، سيهوله ولا شك أن يرى أعلام الجاهلية مرفوعة في كل مكان في الأرض ، وألا يرى راية واحدة خفاقة للإسلام !

ولكن البشر – كما قلنا في نهاية الفصل السابق – ليسوا هم المحكّمين في دين الله !

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ " [250] .

ليست هذه أول مرة تقف الجاهلية موقف العداء والكراهة والحرب والعناد من الإسلام ! إنما ذلك موقفها منه على الدوام !

ثم .. ؟

ثم لا يكون البشر هم المحكمين في دين الله .. وإنما يحكم الله بأمره . ويقرر هو – سبحانه – ما يريد تقريره ، بغض النظر عن فقاعات الكيد الجاهلي التي تقف في طريق الدعوات !

يحكم الله فيبيد الجاهليات الواقفة في الطريق .. أو يهديها إلى الإسلام !

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، فَكَذَّبُوهُ **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ** " .

---

[250] سورة يوسف [21] .

" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ، **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ .**

" وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ، فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ،** فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " .

" وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ، وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ، **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** " .

" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ، وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ، وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ، قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ، وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ، **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ، الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ** ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ "

" وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ .

" وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ " [251] .

* * *

تلك قصة البشرية كلها مع الله ..

---

[251] سورة الأعراف [59 – 99] .

" لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. " [252]

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ " [253]

إن الجاهلية مهما عتت فلن تُعْجِزَ الله في الأرض .. ولا بد أن تجري فيها سنة الله .

وسنته أن يأخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون . فإذا لم يضرعوا بدل الله لهم مكان السيئة الحسنة ، وأعطاهم من متاع الأرض بلا حساب .. حتى ينسوا ، ويستخفوا ، ويقولوا : قد مسّ آباءنا الضراء والسراء ! ونحن مثلهم ! تمسنا الضراء حيناً وبعدها السراء ! وعندئذ يأخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون !

ونحن اليوم على أبواب تدخل حاسم من إرادة الله !

إما التدمير على الكافرين الذي يملأون بجاهليتهم أرجاء الأرض ..

وإما هدايتهم إلى الله ..

أو .. هداية جيل جديد من البشرية ينبع من هذا الفساد بإرادة الله .. " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ! "

* * *

حين نقرأ خريطة البشرية مرة أخرى لن تبدو كما بدت لأول وهلة غارقة كلها في ظلمات الجاهلية !

هناك .. على آماد متفاوتة .. بشائر النور !

وعلى ضوء هذا النور المشرق من بعد .. المشرق للغد .. كتبت هذا الكتاب !

كتبته وأنا أرى – رأي العين – هذا النور النابع من الظلمات !

---

[252] سورة النور [57] .

[253] سورة يوسف [21] .

وما من أحد يعرف الغيب في السموات والأرض .. ولكنا فقط نستقرئ سنة الله التـــي لا تبديل لها ولا تحويل . وسنة الله هي التي تقول : إما الهدى وإما التدمير !

فما لم يكن في تقدير الله التدمير الشامل للبشرية .. فلا بد إذن من الهداية إلى الله .

ونحن نتوقع هداية البشرية إلى الله .. ! ونجد البشائر ظاهرة في قلب الظلمات !

* * *

هذا الشقاء الذريع الذي تقاسيه البشرية تحت وطأة الجاهلية الحاكمة في كل الأرض ..

هذا العذاب القاتل الذي يصوغ واقع الناس .

هذا القلق المدمر للأعصاب ..

هذا الفساد الذي يوقع المظالم بالناس : في السياسة والاقتــصاد والاجتمـــاع والأخـــلاق وعلاقات الجنسين والفن .. وكل شيء ..

هذا – بذاته – عامل من العوامل التي ستعيد الإنسان إلى الله ..

إنه شقاء فوق الطاقة . وعذاب مميت ..

وإن الجاهلية لتحتمله اليوم عناداً مع الله ! أو تحتمله في سبيل ما أتيح لها من منافع جزئية وشهوات !

ولكن المسألة ليست مسألة الاحتمال !

إن التدمير قد وصل إلى أعماق الكيان البشري ذاته .. فبدأ ينهار ..

وسينهار هذا الجيل الذي يعاند الله ..

ولكن الجيل القادم من بُعْدٍ في الآفاق .. جيل سيعي الدرس من الجيل المنهار .. ســيعود إلى الله .

* * *

ولقد كفر الناس في هذا الجيل على ضوء " العلم " !

فقد أفهمتهم شياطين الأرض أن العلم ينافي الإيمان بالله . وأن العلم قد قضى على الخرافة التي كانت تملأ ضمائر الناس في العصور الوسطى : خرافة " الله " !

ومن ثم كان تقدم العلم وسيلة من أخبث الوسائل في أيدي الشياطين ! كلما تقدم العلم أوغلوا في إبعاد البشرية عن الله .

ولكن العلماء – " أنبياء " هذا الجيل من البشرية ، الذين قادوه إلى الكفر – قد بدأوا يعودون إلى الله !

ونعيد هنا بعض شهادات العلماء التي أثبتناها من قبل ، ونضيف إليها إضافات :

يقول سير " جيمس جينز " عالم الطبيعيات والرياضيات :

" لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً : وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأنه لا مناص من أن الحالة " أ " تتبعها الحالة " ب " . أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن : هو أن الحالة " أ " يحتمل أن تتبعها الحالة " ب " أو " جـ " أو " د " أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة " ب " أكثر احتمالاً من حدوث الحالة " جـ " وإن الحالة " جـ " أكثر احتمالاً من الحالة " د " .. وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات " ب " و " جـ " و " د " بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار .. " .

ويقول " رسل تشارلز إرنست " أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

" لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

" إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً " .

ويقول : " إيرفنج وليام " (دكتوراه من جامعة إيوي وإخصائي وراثة النباتات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) :

" إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها ، والتي لا يحصيها عد ، وهي التي تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا – بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها – كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة ...

" ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون .

" انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظير في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار . بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ، ويتم ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم – وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية .

" فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها . ولكنه خلق الحياة ، وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل ، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهاراً لقدرة الله " .

ونكتفي هنا بهذه النماذج – وهي مجرد نماذج – مأخوذة من كتاب واحد يحوي – وحده – مجموعة كبيرة من الآراء تتجه كلها إلى الله ، وإن كانت رواسب الجاهلية (العلمية !) ما تزال ترى في كثير من التصورات وكثير من التعبيرات ! [254] .

وهكذا تتوالى شهادات العلماء – أنبياء هذا الجيل الذين قادوه إلى الكفر من قبل – تدعوه أن يعود إلى الله !

* * *

وانهيار النظم القائمة اليوم .. ستعيد الإنسان إلى الله !

فأما الرأسمالية فقد استُهلكت كعقيدة ونظام في معظم أرجاء الأرض .. وهي وإن تكن ما تزال ضارية في أمريكا ، فمصيرها هو المصير المحتوم الذي ذاقته في الدول الأخرى .. لا على أساس الحتمية الاقتصادية أو المادية أو التاريخية .. وإنما على أساس سنة الله ! إنها تجاوزت مداها في الشر فلا بد أن تنهار !

---

[254] كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

وأما الشيوعية – الجديدة التي ما تزال تعتبر " بنت اليوم " وأحدث مبتدعات الجاهلية – فقد بدأت كذلك تنهار .

صرح خروشوف في مارس سنة 1964 بأنه لا بد من القضاء على فكرة المساواة المطلقة في الأجور ، وأنه لا بد من استغلال الحافز الفردي لزيادة الإنتاج ، وأن المزارع الجماعية ضعيفة المحصول !

وهذا كلام واضح الدلالة [255] .

إنه " كفر " كمل بالماركسية اللينينية التي قام عليها " المذهب " الشيوعي .

إنه " رِدة " إلى نظام آخر .. علمه عند الله .

وهذان هما النظامان اللذان يحكمان الجاهلية الحديثة . فإذا انهارا – كمذهب وعقيدة ، بصرف النظر عن قوتهما السياسية الحالية – فلا بد من نظام آخر يملأ الفراغ . فليست العبرة بالقوة السياسية . إنما العبرة بالعقيدة التي تحكم القوة السياسية وتقودها إلى النصر في معترك الحياة .

والنظام الآخر هو الإسلام !

فليس هناك " تجربة " جديدة تجربها البشرية بعد الرأسمالية والشيوعية المتطرفتين من أقصى اليمين وأقصى اليسار إلا النظام " الوسط " الذي سماه الله " الإسلام " ! وسمى أهله " المسلمين " !

" هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ " [256] .

---

[255] لم يعدل الانقلاب الأخير الذي حدث في روسيا شيئاً من سياسة خروشوف في هذا الباب !

[256] سورة الحج [78] .

" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّـــةً **وَسَطاً** لِتَكُونُـــوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـــونَ الرَّسُــــولُ عَلَـــيْكُمْ شَهِيداً " [257] .

تلك كلها بشائر ودلائل على عودة الإنسان إلى الله ..

ولكن هناك ظاهرة " تاريخية " حاضرة أبلغ دلالة من كل هذه الدلالات !

إن من استهزاء الله بهذه الداهلية التي تكيد لدينه في كل الأرض .. أن تبرز في أمريكا – زعيمة الجاهلية الحديثة ، التي ترصد أكبر قواها لمحاربة الإسلام في آسيا وأفريقيـــا ، وتتخـــذ لذلك أخبث الوسائل التي استخدمتها الجاهلية في التاريخ كله ، ويتحـــد فيهـــا الكيـــد الـــصليبي والصهيوني ليعمل جاهداً على قتل الإسلام – أن تبرز في أمريكا هذه بالذات ، في عقر دارهـــا ومن بين أهلها القاطنين فيها ، حركة إسلامية شابة تدعو إلى إقامة حكم إسلامي !!

وليس بعد ذلك استهزاء من الله – سبحانه – بأولئك الكائدين لدين الله !

لقد جهد الصليبيون والصهيونيون في محاربة الإسلام في داخـــل " العـــالم الإســـلامي " والقضاء على كل حركة تدعو إلى دين الله ..

وظنوا أنهم ما داموا قد قتلوه في موطنه التقليدي فقد نجوا من هذا العدو المرهوب الـــذي يرهبون يقظته في أي يوم قريب أو بعيد ! وجلسوا في كراسيهم يهزأون بالله ودينه .. ويفركون أيديهم مسرورين !

ثم .. كانت المفاجأة المذهلة لهم .. في عقر دارهم .. مـــصيبة لهـــم لا يعرفـــون كيـــف يتخلصون منها وهي تزيد عليهم في كل يوم ، على الرغم مما يوقعونه بأولئك المسلمين من قتل وتعذيب وسجن وتشريد ! وعلى الرغم مما يسلطونه عليها من الدعاية للتشويه والتنفير ؛ وعلى الرغم من كل ما يحاولونه معها من إشاعة التميع فيها ، أو ربطها بالأوضاع التي أقاموها هـــم في ما يسمى بلاد الإسلام !

---

[257] سورة البقرة [143] .

وتلك وحدها نموذج لمكر الله الذي أنذر به الكائدين .

" وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ " [258] .

" أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ " [259] .

* * *

وهي كذلك نموذج لما يمكن أن يحدث غداً في البشرية !

إن الجاهلية ظنت أنها قد أبعدت كل ظل لدين الله عن الأرض ! وأن وسائلها الجهنمية قد جعلت مجرد التفكير في الدين خاطراً بعيداً عن ذهن البشرية !

ولكن الناس هم المحكمين في دين الله !

فهذا مثل من أمثلة التوجيه الرباني لفريق من البشر في قلب الجاهلية ويتجرعون كل سمومها .. فإذا هم ينبذون هذه السموم كلها .. ويبحثون عن الله .. ويتوجهون إليه مسلمين .

والبشرية غداً في طريقها إلى مثل هذا التحول بشتى الأسباب وشتى الطرق المؤدية إلى الله !

وهو على الله هين هين .. كما نرى في هذا المثل الحاضر الذي نطالع كل يوم أخباره في الصحف والمجلات ..

هين على الرغم من كل الكيد الذي تكيده الجاهلية !

فهذا الكيد كله فقاعات فارغة لا وزن لها عند الله سبحانه حين يدبر لدينه في الأرض !

" والله غالب على أمره .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون " !

* * *

---

[258] سورة آل عمران [54] .

[259] سورة الأعراف [99] .

" والمسلمون ! " في العالم " الإسلامي ! " التقليدي يحملون تبعة باهظة أمام الله ..

تبعة التهاون في أمر دينهم .. والقعود عن إقامة مجتمعهم الراشد الذي أمرهم به الله ..

بل تبعة الانسياق وراء الجاهلية ، واتخاذ أعداء دين الله أولياء .. منهم يستمدون مفاهيم حياتهم ، بل منهم يأخذون النصيحة في أمر هذا الدين !

تبعة باهظة .. لا ينجيهم شيء فيها من عذاب الله ..

* * *

ثم تزداد هذه التبعة خطورة حين يمضي " المسلمون " سادرين ، في هوانهم ومذلتهم وجهلهم وضعفهم وتهاونهم .. بينما البشرية تتهيأ – غداً – لاستقبال دين الله !

وسيقوم غداً هذا الدين ، وهم في هوانهم ومذلتهم وجهلهم وضعفهم وتهاونهم .. !

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " [260] .

ولن ينصر الله دينه على يد الضعفاء المهازيل الذين رضوا لأنفسهم الهوان والذل !

إنما هو ينشئ لدينه – حين يريد – قوماً آخرين يحملون التبعة ويقومون بها على حقيقتها .

" إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً " [261] .

وسيحمل هؤلاء " المسلمون ! " التقليديون العار غداً ، حين يرون قوماً آخرين يحملون راية الله وهم على هوانهم مقيمون !

وسواء قام هؤلاء " المسلمون " من نومتهم أم ظلوا فيها ..

وسواء كف الكيد المجنون عن الحرب لدين الله ، أم زاد الكيد جنوناً وضراوة ..

---

[260] سورة الرعد [11] .

[261] سورة النساء [133] .

سيعود الإنسان إلى الله !

سيعود شديد الإيمان .. !

فبقدر الكفر الحاليّ .. بقدر عذابات الناس .. وبقدر ظلام الطاغوت ..

سيكون النور .. !

وبشائر هذا النور .. بادية في الظلمات ..

وغداً يشرق دين الله ..

وسواء أبصرنا بأعيننا .. في العمر المحدود .. أم كان غداً .. في جيل آخر ..

سيعود الإنسان إلى الله !

سيعود شديد الإيمان !

" وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ " [262] .

صدق الله العظيم

---

[262] سورة الصف [8] .

الفهرس